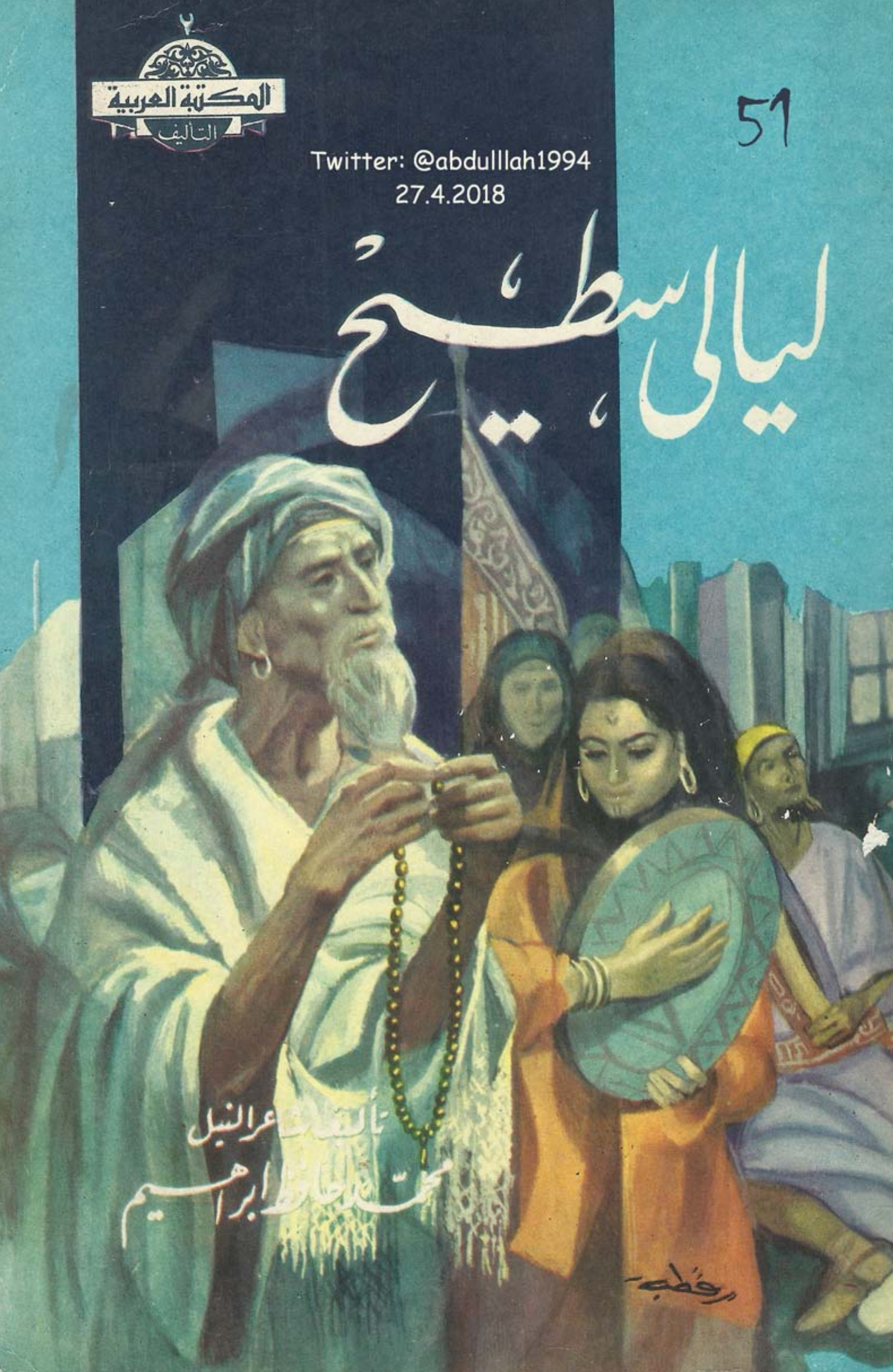

٧
المكتبة العربية
التأليف
51
ليالي سطيح
تأليف شاعر النيل
محمد حافظ ابراهيم

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي

حافظ إبراهيم

ليالي سطيح

مع

دراسة تاريخية تحليلية
للعصر والكاتب والكتاب

بقلم
عبد الرحمن صدقي

الناشر
الدار القومية للطباعة والنشر
القاهرة

١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والأرشاد القومي

بفروعها الثلاثة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

المحتوى

أولاً : المقدمة صحيفة

الصور والخرائط

الصور

الخرائط

دراسة تاريخية تحليلية
للعصر والكاتب والكتاب

بقلم
عبد الرحمن صدقي

تصدير

إنها ليال غابرة من ليالى مصر الساحرة ، على شاطئ النيل بين الجزيرة والأهرام ، فى خلوة ساكنة حالمة فى أحضان النيل ، أحياها ليلة بعد ليلة طوال مدة أسبوع ، ذلك الراوى الأديب والشاعر المطبوع حافظ إبراهيم ، وأسماها « ليالى سطيح » .

ولكن هذه الليالى السبع الساحرة — على طيب مجالسها مع الإخوان — كانت بأحلام الكابوس الجاثم معذبة مضطربة ، بما كان يساور صاحبها المؤرّق من ذكريات عابرة لا تزال تعاوده كل حين ، وكأنها حزّ السكين فى الوتين . إنها ذكريات الواقع الفاجع الذى مر به في الماضى القريب ، فى ذلك العهد البغيض ، عهد الاحتلال البريطانى .

وإذا نحن قررنا منذالبداية ، أن هذا الذى ذكرنا فحواه هومادة الرواية ، فقد أعذرنا إذا نحن ابتدأنا الحديث في هذه المقدمة ، بفصل عن « سيرة المؤلف وسير الحوادث » مع شيء من التفصيل والإفاضة ، فقد كانت حوادث عصره مادة نثره وشعره معاً . لسوف نطيل الحديث في ذلك الفصل خاصة عن تدخل الإنجليز في شئون مصر ، وعلى الأخص فى الخطوب التى أدت إلى فقدان السودان ، وفي الحروب التى انتهت باسترجاعه بالاسم دون الفعل في ذلك الأوان ، إذ ليس لنا عن تسويد تلك الصفحات مندوحة . فقد عاش حافظ في ذلك الجو الخانق منذ دخوله في أواخر عام ١٨٨٨ المدرسة الحربية حيث كان توجيه برامجها من اختصاص المعلم الإنجليزى « المستر براين » ، وتصريف إدارتها، في يد القومندان الإنجليزى « هوليات Huleatt » ، بناء على الأوامر والتعليمات التى أصدرها سردار الجيش المصرى وهو إنجليزى منذ الاحتلال الإنجليزى ، وكان ذلك السردار هو الجنرال « السير

فرنسيس جرنفيل Francis Grenfell » الذى أعقب السردار الأول « الجنرال إفلين وود Evelyn Wood » فى ١٥ من أبريل سنة ١٨٨٥ . ولما انتقل حافظ إلى وزارة الداخلية ملاحظ بوليس ثم معاون بوليس ، كان حكمدار البوليس إنجليزياً ، خلفاً لسلفه الأول منذ الاحتلال الإنجليزى « ڤالنتين باكر Valentine Baker » . ولما أعيد حافظ إلى الحربية لإلحاقه بالحملة المصرية على السودان ، كان قائد الحملة إنجليزياً وهو السردار العنيد الجبار « كتشنر Kitchener » ، الذى يكتفى الراوى عن ذكر اسمه في « ليالى سطيح » بتعديد وصفه :

« قائد الجيشين ، ورافع العلمين ، الحاكم بالإرادتين ، ووكيل الدولتين ، فاتح أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان . رافع إرم ذات العماد ، وقريع فرعون ذى الأوتاد . واصل أعصاب الفيافى والقفار ، بأعصاب المدائن والأمصار . ساكن القصر ونابش القبر . ناسف القبة وسالب الجبة . والجاعل قبته مربطاً للجياد ، ومسجده ملعباً لحمر الأجناد . الناقل تلك الكنوز والدفائن إلى تلك المصارف والخزائن . المغربى الذى يستشف أحشاء الخبايا بسحر السياسة ، وطلسم الفراسة ، ويفك ما عليها من الأرصاد بدماء أبناء البلاد ، بعد تبخيرها ببخور التمويه تحت ملاءة الترفع والتنزيه . ذلكم اللورد الكريم » .

وهذا الذى أخذ به حافظ نفسه في كلامه عن الإنجليز وغير الإنجليز في « ليالى سطيح » لم يكن من الحذر والتَّقيَّة بل لحب الإلغاز والتعمية بإضرابه عن تسمية الأشخاص بأسمائهم ، اكتفاء بذكر أوصافهم ، ثم مبالغته بعض الأحيان في تجريد تلك الأوصاف حتى ليأبى إذا كان الشخص المومَى إليه صاحبَ كتاب أن يذكر اسم الكتاب . وهذا كله كيلا ينكشف الستار عن أشخاصه ومسمياته ؛ إلا بعد طول النظر وتسريح الخيال ، وكد الذهن وإعمال الخاطر .

ولعل القارئ ، وخاصة إذا كان القارئ من الشباب الناشئ ، يحمد لنا أو على الأقل لا ينكر منا أن نتقدم في هذه المقدمة إليه ، فنضع بين يديه ، مامن شأنه أن يتيح له المتعة خالصة من غير مشقة ، من طريق البيان عن أحداث العصر ، التي صاحبت مؤلفنا في حداثة العمر ، وصارت المادة الباطنة الظاهرة التي أوحت له ما أبدعه من شعر ونثر .



حافظ إبراهيم

سيرة المؤلف

وسير الحوادث التاريخية

كان مولد حافظ إبراهيم في عصر « المحنة الكبرى » في تاريخ مصر الحديث ، وكانت المحنة من جرّاء تطلّع الدول الأجنبية إلى هذه البلاد ، على أثر البدء في مشروع قناة السويس (١٨٥٩–١٨٦٩) التي تعتبر وقتئذ أهم طرق المواصلات بين الشرق والغرب ، ومن ثمة أهميتها التجارية في المجال الاقتصادى المالى ، وأهميتها الحربية في المجال السياسى الاستعمارى .

المحنة الكبرى

وقعت المحنة الكبرى على أثر ثورة عرابى وضباط الجيش المصريين على الخديوى توفيق . وكانت بدايتها في بداية عام ١٨٨١ للدفاع عن العنصر المصرى في الجيش ، لما كان غالباً فيه من إيثار الضباط الأتراك والشراكسة دون المصريين بالمراتب الكبرى ، بحيث كان أقصى ما يبلغه الضابط المصرى رتبة « البكباشى » يقف عندها ولا يتعداها ، كما كانت الثورة للمطالبة بتأليف مجلس النواب للنظر في مصالح الأمة . يضاف إلى ذلك ما كان يؤخذ على الخديوى توفيق من موقفه السلبى واستخذائه أمام التدخل الأجنبى ، ولعل موقفه هذا من تأثير ماشهده في الثامن من أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وبقى أثره في نفسه ، من سلطان إنكلترة وفرنسا ، وما كان لهما من الكلمة المسموعة في استصدار مرسوم الباب العالى بعزل أبيه إسماعيل . بيد أنه لم يمض على ذلك التاريخ إلا القليل حتى تكرر هذا التدخل في عهد توفيق ، وكان هذه المرة على صورة سافرة مسلحة ، فقد أرسلت كل من إنجلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية ، بحجة ظاهرها المحافظة على أرواح الأجانب وباطنها الإرهاب وما وراءه من

الاستفزاز وسوء النية . وقد ظهر سوء نوايا الإنجليز حين انفردت السفن الإنجليزية بضرب الإسكندرية منذ الصباح الباكر في ١١ من يوليه سنة ١٨٨٢ .وقد استمرت في الضرب حتى انسحبت الحامية المصرية من المدينة ، فنزل جنود المعتدين إليها ، وقد حاول عرابى الزحف عليها لإجلائهم عنها فأخفق .

وانعزل الخديوى وحكومته بالإسكندرية وضواحيها ، وقطع عرابى المواصلات بينها وداخل القطر . وقبيل منتصف أغسطس جاءت من السويس حملة إنجليزية يبلغ عددها ١٤٠٠٠ من المشاة و ٢٤٠٠ من الفرسان و ١٣٠٠ من المدفعية و ٥٤٠ من المهندسين و ٩٠٠٠ من الهنود ، فتولى قيادتها السير « جارنت ولسلى Garnet Wolseley » ثم أقلتها السفن في قناة السويس إلى الإسماعيلية . وقبل أن يتم عرابى استحكاماته أنزلت هذه القوة بجيشه هزيمة خاطفة في فجر اليوم الثالث عشر من سبتمبر . ثم سار « ولسلى » إلى القاهرة فدخلها في الخامس عشر من سبتمبر ، فأنعمت عليه حكومته بلقب « لورد القاهرة » ومنذ ذلك التاريخ بدأت مأساة الاحتلال الإنجليزى وهى المأساة التى دامت أكثر من سبعين عاماً .

هنا نقف أمام هذه المأساة الكبرى متسائلين : هل وعاها وقتئذ مع أهل زمانه حافظ إبراهيم ؟ إن حافظ توفي إلى رحمة الله في الحادى والعشرين من يوليه سنة ١٩٣٢ ، وهو يائس اليأس كله من بلده ، لايدور بخلده ما حققه الحكم الحاضر من جلاء المحتلين الإنجليز(١) حتى ظل يردد طوال عمره :

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان

فهل ترى شاعرنا الذى لم يكتب له أن يرى من المأساة نهايتها ، كان في حداثته الأولى في سن تسمح له بأن يعى بدايتها ؟

هذا السؤال يقتضى التدقيق في تحديد ميلاد حافظ إبراهيم على وجه التحقيق.

---

(١) تم توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وفي ١٨ من يونية سنة ١٩٥٦ خرج إلى غير رجعة آخر جندى إنجليزى من البلاد .



أحمد عرابي
بطل الثورة العرابية في مصر

ميلاده في أعالى الصعيد

ونشأته في القاهرة

اتفق المؤرخون لسيرة شاعر النيل حافظ إبراهيم على أنه ولد في ٤ من فبراير سنة ١٨٧٢ ، ومنهم من يغفل الشهر واليوم ويكتفى بذكر السنة ، كأنه من السنة وحدها على يقين .

ونحن نستأذن في مناقشة تاريخ هذا الميلاد ، وفي مأمولنا أن نكون على السداد ، وما ندعى بعد ذلك أننا أتينا بالعجب العجاب .

الواقع أن تاريخ مولد حافظ غير معروف ، سواء في ذلك ، اليوم والشهر والسنة . ولقد أنكر الشاعر معرفة تاريخ ميلاده ، حين شرعت دار الكتب عام ١٩١١ في اتخاذ الإجراءات نحو تعيينه في إحدى وظائفها ، بناء على أمر وزير المعارف ، الأديب أحمد حشمت الذى كان يعطف على شاعر النيل ويريد إكرامه ، بتوفيز الاستقرار له في عمل يدر عليه الرزق المكفول . وأمام تجاهل الشاعر معرفة تاريخ مولده ، تقرر عرضه كما هو المتبع في مثل هذه الأحوال على « القومسيون » الطبي في ٤ من فبراير سنة ١٩١١ ، فقدر القومسيون سنه في ذلك اليوم تسعاً وثلاثين سنة ، وعلى هذا التقدير كان حساب مولده في ٤ من فبراير سنة ١٨٧٢ .

ولما كان حافظ قد كتب بخطه ، فيما يتعلق بمسقط رأسه ، أنه ولد في ديروط ، فقد كتب بعض المحققين ، ومنهم الأستاذ أحمد أمين ، وهم الذين وكل إليهم بعد وفاته جمع شعره والتقديم له ، يسألون دار المحفوظات « الدفترخانة » عن تاريخ ميلاد حافظ في ديروط فأجابت « دفترخانة » ديروط بأنها بحثت من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ فلم تعثر عليه في دفاترها .

ولما كان طالب التسنين عند التعيين ، حريصاً على تقدير سن له أصغر من

سنه ، لكي يتأخر موعد تقاعده ، ويطول بقاؤه في الوظيفة ؛ فهل لا يحتمل أن يكون شاعرنا حافظ إبراهيم ، قد عمد إلى تجاهل سنه عند سنوح الوظيفة — كغيره في ذلك الحين — طمعاً في تسنين « القومسيون » الطبي ، الذى يميل بطبيعته إلى التيسير على الناس ، وما بالك بالتيسير على شاعر كبير ، من المعلوم أنه موضع رعاية الجميع من الوزير إلى سواد الجماهير؟ هذا التيسير فيما نعتقد هو الذى جعل « القومسيون » الطبي يقدر مولد حافظ في سنة ١٨٧٢ مع أن حافظ قد يكون — كما هو المرجح في حسابنا — مولوداً قبل سنة ١٨٧٠ ، بدليل عدم العثور على اسمه في سجلات ديروط من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ .

ولما كانت القاعدة ، في البحث في سجلات المواليد ، عن تاريخ من التواريخ غير المحققة ، هى أن يمتد هذا البحث عدة سنوات قبل ذلك التاريخ ، ومثلها بعده ، فإننا نتساءل : لماذا كان البحث في سجلات ديروط سنتين قبل التاريخ ، وثمانى سنوات بعده على خلاف القاعدة ؟

أكانت هذه المسألة متعمدة ، أم أن الدفاتر قبل عام ١٨٧٠ مفقودة ؟

أياً كان السبب ، فإن الذى يخلص لنا من مراجعة هذه الملابسات جميعاً ، هو أن حافظ ولد قبل التاريخ الذى قدره « القومسيون » الطبي ونعنى به عام ١٨٧٢ ، وكذلك قبل التاريخ الذى رجع إليه الباحث في سجلات المواليد في ديروط وهو ١٨٧٠ . ومن ثمة يكون التاريخ الصحيح لميلاده في حسابنا هو عام ١٨٦٩ على وجه التحديد . ويترتب على هذا زيادة ثلاث سنوات على سنه المزعومة ، يحسن بنا أن نستدركها ويستدركها معنا المؤرخون .

وأما ما عدا ذلك مما كتبه شاعرنا حافظ إبراهيم بخطه عن نفسه ، فإننا نعتمده كل الاعتماد ونتلقاه بالتسليم ، ومن ذلك ما يتعلق بمسقط رأسه وأسرته .

وفيما يلى خلاصة ما وقفنا عليه :

ولد شاعر النيل حافظ إبراهيم في بيت من تلك البيوت العائمة على صفحة النيل المعروفة بالذهبيات ، وهى الذهبية التى كان يسكنها أبواه ،

وكانت راسيةً على الشاطئ بالقرب من قناطر ديروط حيث كان أبوه من المهندسين المشرفين على القناطر ، واسم هذا الأب « إبراهيم فهمى » ، وهو مصرى صميم . أما أمه « الست هانم كريمة أحمد البرصه لى » ، فإنه يستدل من اسم أبيها أنها من أسرة تركية الأصل متمصرة ، قيل إنها كانت تسكن حى المغربلين بالقاهرة ، وكانت تعرف بأسرة الصروان ، أى القيم على الصرة ، لأن رئيس الأسرة كان أمين الصرة في الحج .

وقد عرف شاعرنا محمد حافظ إبراهيم اليتم وهو في الرابعة من عمره ، إذ عاجلت المنية والده ، فترك الأم وولدها وحيدين يعانيان الفجيعة في ألم مقيم دفين . وسرعان ما انتقلت الأرملة إلى القاهرة ، ونزلت مع ولدها على أخيها « محمد أفندى نيازى » مهندس التنظيم . وكان محمد أفندى نيازى يسكن في حى القلعة ، فتولى أمر ابن أخته وقام على تربيته ، فأدخله كالمعتاد مكتباً من الكتاتيب في القلعة لتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم تدرج به منها إلى الدراسة الابتدائية فالثانوية . وفي هذا العهد — عهد التلمذة — كان حافظ مولعاً بقراءة الأدب الشعبي ، فكان على حد قوله في حديث متأخر له مع محرر الهلال يحفظ قصة « عنترة بن شداد » عن ظهر قلب كما كان مغرماً بكتاب « ألف ليلة وليلة » ، وكانت المدارس التى اختلف إليها حافظ هى القربية ثم تحول منها إلى مدرسة المبتديان ثم المدرسة الخديوية التى لم يطل بها مُقامه ، لنزوحه مع خاله عن القاهرة إلى طنطا .

ولما كان ما نشره عنه صديقه في طنطا الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار قد أرخ لنا ما كان من لقائه — وهو طالب في المعهد الأحمدى — للشاعر الفتى حافظ إبراهيم في أبريل سنة ١٨٨٨ ، فلا نحسبنا مخطئين إذا اعتبرنا أن نشأته في القاهرة قد امتدت حتى عام ١٨٨٧ .



زعيم الثورة المهدية فى السوادن

محمد أحمد المهدى

حافظ ومشاهد الثورة العرابية في القاهرة

هذه التواريخ في حياة حافظ ، تبيح لنا تقرير ما كان للخطوب التى صاحبته في القاهرة بحكم شهوده لها — أو على الأقل سماعه بها وعيشه في جوها — من الأثر في خلق هذه الروح التى يلفحنا أوارها ويلدغنا شرارها وتكوينا نارها في « ليالى سطيح » .

ومهما يكن من قبول ما قدمناه من الأسانيد أو الإصرار على رفضها ؛ فإن محمد حافظ إبراهيم كان عام ١٨٨٢ في العاشرة من عمره على الأقل بحساب تسنين القومسيون الطبي ، وعلى الأصح في الثالثة عشرة بحسابنا ، فهو على الحالين — مع اختلاف في درجة الوعى ونوعه — قد شهد في الأزقة والشوارع التى تجاور مسكنه ، ماكان سائداً في القاهرة من الهَرْج والاضطراب والقلق عند العامة كبارهم وصغارهم ، وما كان من ضجيجهم بالدعاء والتكبير في انتظار ما تأتى به الأخبار عن الوقعة الفاصلة في التل الكبير ، وكيف انقلب الخبر غماً وشؤماً حين فوجىء أهل القاهرة بالإنجليز — بعد انتصارهم على جيش عرابي وقواته ومعظمها من غير النظامية في التل الكبير — يدخلون القاهرة عليهم في الخامس عشر من سبتمبر من طريق العباسية ومنها إلى القلعة . ولم تمض عشرة أيام ، حتى شهد أهل القاهرة وصول الخديوى توفيق من الإسكندرية إلى محطة القاهرة ، وركوبه منها إلى عابدين ، وقد ركب في مركبته ابن صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا — وكان من قواد الحملة — « والجنرال ولسلى » قائد جيش الاحتلال ، والقنصل الإنجليزى العام . وقد اصطفت الجنود الإنجليزية حمر الوجوه على جانبي الطريق ، حتى إذا بلغ الموكب السراى الخديوية عُزف النشيد

الإنجليزى كما عزف النشيد المصرى ، فكان ذلك إعلاناً بالوضع الجديد :

هذا المشهد الذى شهده الفتى محمد حافظ إبراهيم ، أو قرأ خبره أو على الأقل سمع به ، وهو في سن العاشرة أو على الأصح في الثالثة عشرة ، قد ترك لا محالة أعمق الأثر في حسه ونفسه وخياله . فلا عجب أن عاش محمد حافظ إبراهيم منذ ذلك اليوم وهو يكره الإنجليز ؛ يكرههم ويرهبهم معاً .

حافظ وأصداء الثورة المهدية في السوادن

أ – الهزائم المصرية تحت القيادة البريطانية

كان الإنجليز – بعد ما شهدناه من ضربهم الإسكندرية بالقنابل ، وزحف حملتهم بقيادة « ولسلى » على عاصمة الديار المصرية ، وفرضهم الاحتلال الإنجليزى بدعوى أنه إجراء وقتى لإقرار النظام وتوطيد العرش الخديوى – قد أوعزوا للخديوى فأصدر الأمر في ١٧ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ بحل الجيش المصري لثورته ، وتولوا بأنفسهم تأليف جيش آخر لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى ، وعليه قائد إنجليزى هو « السردار إڤلين وود » يعاونه ٢٦ ضابطاً إنجليزياً منهم « كتشنر » و « ونجت Wingate » اللذان كان لهما بعد ذلك شأن في مصر وخطوبٌ مع شاعرنا حافظ إبراهيم بقى أثرها في نثره وشعره ، وكذلك تولى أمر الشرطة – مع اختصاصها بالأمور الداخلية وبالأهلين – إنجليزى آخر هو « ڤالنتين باكر » بمساعدة الكثيرين من الضباط وضباط الصف البريطانيين . كما كانت على مصر منذ عهد إسماعيل رقابة مالية ثنائية من إنجلترا وفرنسا ، لكثرة ما استدانه منهما الخديوى ، وقد انفرد بهذه الرقابة في ٥ من فبراير ١٨٨٣ المراقب الإنجليزى « أوكلاند كزلڤين Aucland Colvin » الذى صار مستشاراً مالياً له الحق في حضور جلسات مجلس النظار . وفي ١١ من سبتمبر وصل إلى مصر « السير إڤلين بارنج Evelyn Baring » الذى كان قبل ذلك « الكابتن بارنج » مندوب إنجلترا في صندوق الدين ، فعاد هذه المرة بديلاً عن سلفه القنصل العام البريطانى بعد أن زيد على لقبه « معتمد حكومة صاحب الجلالة البريطانية » فإذا المعتمد البريطانى الجديد (المعروف بعدها باللورد كرومر) في وضعه الجديد أعظم سلطاناً وأنفذ أمراً في الحكومات المصرية وعلى أمير البلاد. وفي أيام هذا العميد الجديد جرى ماجرى في السوادن من

توالى الهزائم المصرية تحت القيادة البريطانية ، على حد قول شاعرنا حافظ إبراهيم « صاحب ليالى سطيح » يودعه يوم استقالته بعد أربعة وعشرين عاماً :

ووافيتَ والقُطران في ظل راية فما زلت بالسودان حتّى تمردا
فطاح ، كما طاحت « مصوّع » بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

ونعود بعد هذا التمهيد الضرورى ، إلى حيث وقفنا في حديثنا عن الفتى محمد حافظ إبراهيم ، بعد ما روعه في صباه ما شهده من دخول جيش الاحتلال البريطانى .

الهزيمة الكبرى تحت قيادة هيكس باشا

مضت الأيام إثر الأيام على الفتّى محمد حافظ إبراهيم وهو يحاول أن ينسى هول ما رآه ، من مشهد اقتحام الإنجليز بلده وانتهاكهم حماه ، وإذا به لا يكاد ينقضى بعض العام ، حتّى تترامى إليه مع سائر أبناء مصر أصداء تتطاير في كل مكان عن أنباء وأراجيف واردة من السودان ، تروى قصصاً عن انتصارات متتابعة على يد نبى أتى بعد الأوان في آخر الزمان ، يدعو للثورة على فساد الحكم التركى وما رآه من التدخل الإنجليزى ، وها هو ذا قد قد أنجح دعوته ووطد سلطته في كردفان ، وجعل من « الأبيّض » عاصمة دولته . فلما أراد حاكم السودان المصرى أن يتصرف في الأمر بحكمته ويتولاه بهمته ، تدخل الإنجليز بما لهم من السيطرة على مصر بحكم الاحتلال العسكرى ، واستيلائهم باسمه على شئونها العليا من سياسة ومالية وقضائية وإدارية فضلاً عن الشئون الحربية . وقد كان من جراء هذا التدخل ، تنحية حاكم السودان ، والقائد العام لجيشها ، وتعيين أركان حربه الذى يعد مرءوسهما من حيث الظاهر النظرى ، وهو الضابط الإنجليزى « هيكس باشا Hickes » قائداً عاماً(١) على الحملة المصرية المجهزة لاسترداد الأبيّض ،

(١) كان قد صدر الإذن لأركان الحرب « هيكس باشا » بالزحف على المهدى في كردفان ، فرد بأنه لا يتحمل مسئولية الحملة حتّى تكون له القيادة العامة عليها ، فلما أبطأت الحكومة المصرية في إجابته إلى طلبه ، هدد بالاستقالة ، فأذعنت الحكومة وجعلته القائد العام على الحملة بعد تنحية رؤسائه المصريين .



هزيمة القائد الإنجليزى هيكس باشا فى السودان الغربي

وتأديب ذلك الدعيّ المتنبئ الذى يزعم أنه « المهدى المنتظر » . فخرج القائد الجديد الإنجليزى على رأس القوة الكبيرة التي جمعها من المصريين وعدتهم عشرة آلاف ، معظمهم من غير المدربين ، وكان وصولها إلى السويس بين ١٢ و ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ ثم أبحرت بهم المراكب في البحر الأحمر إلى ميناء سواكن ، ومنها براً إلى الخرطوم حيث أقامت في ضم شتاتها وإعداد معداتها مدة كانت كافية لبلوغ خبرها إلى مسامع عدوها في عاصمته كردفان . فلما قامت الحملة من الخرطوم في سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، توغل بها قائدها في صحراء كردفان ، والحر شديد والماء غير متوافر . ولم تلبث الحملة أن ضلت وسط الأدغال وظل الجند ثلاثة أيام ولياليها يلتمسون الماء فلا يجدونه ، وهو على مسافة غير بعيدة منهم . وأخيراً في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ وهم على مسيرة يومين من الأبيض ، خرج عليهم من الأدغال كمين من رجال المهدى يبلغون نحو الأربعين ألف مقاتل ، وأحاطوا بالحملة المصرية ، وأثخنوا فيها ، وأفنوها حتى لم يبق حياً من هذا الجيش الضخم الذى بلغ عدده خمسة عشر ألف مقاتل إلا ثلثمائة ، وحتى هؤلاء لم ينج منهم غير الأقلين ، ممن تمكنوا من الفرار والأسر هاربين . ولقد كان قائد الحملة « هيكس باشا » من الهالكين بسيوف الفرسان من قبيلة البقارة بقيادة الأمير الدرويش محمد الشريف الذى طعنه الطعنة الأخيرة القاضية .

وفي القاهرة روى أفراد ممن نجوا من هذه المقتلة كيف كان هولها ، وكيف كان إخوانهم من فزع المباغتة ، وما أحدثته بينهم من الهرْج والاضطراب وهم على ما كانوا عليه من الإعياء والعطش ، يطلقون النار بعضهم على البعض وهم لا يشعرون . وقد ظل أهل القاهرة يتناقلون حديث هذه المقتلة حتى عم البلاد خبرها ، وكان من شأن تناقلها المزايدة في تهويل فظائعها ، لو أنه كان فيها موضع لمزيد .

وما نحسب حافظاً — وهو وقتئذ شاب يافع يبلغ في تقديرنا الرابعة عشرة من عمره ، إلا قد سمع أطرافاً من هذا الحديث الذى كان على كل لسان ،

حديث هذه المقتلة الذريعة الفظيعة التي نزلت بالحملة المصرية من سوء تدبير قائدها الإنجليزي ، في عهد الاحتلال الإنجليزي :

فماذا كان رد الفعل لهذا كله عند حافظ إبراهيم ؟

لا نزاع في أن شعور حافظ حيال هذه الهزيمة — أو على الأصح — المذبحة التي أودت بالألوف من المصريين على يد الثائرين السودانيين ، هو بعينه شعور جميع المصريين طوال مدة الثورة المهدية . لقد كان المصريون أجمعون يألمون لما وقع بإخوانهم ألماً لا مزيد عليه ، ولكن العجيب في الأمر أن هذا الألم كانت تشوبه مسحة من الشماتة والسخرية بالقادة الإنجليز الذين كانوا على رأس الحملة في هذه المرة ، ثم — كما سنرى — في كل مرة ، فهم المسئولون عن الهزائم في المرة بعد المرة لسوء خططهم وعجز تدبيرهم ، مع ما هم عليه من غرور وغطرسة واستعلاء . وأعجب من ذلك أن انتصارات الثائرين في السودان كانت تتراءى للمصريين من أجل هذه الملابسات كأنها انتصار للمصريين باعتبار كونهم إخوان السودانيين في العروبة والدين ، ومصداقاً لذلك نذكر أن المهدى كان يسمى حكام مصر وأتباعهم بالخديويين الترك . كذلك كان قادةُ الجيوش المصرية الإنجليز يسمون الثوار السودانيين بالعرب ، وحسبنا مثالاً على ذلك ما ورد بالبرقية الأخيرة التي أرسلها « هيكس باشا » في الثالث من أكتوبر سنة ١٨٨٣ قبيل هزيمته ومصرعه في كردفان ، إذ يقول فيها : « لم أعثر بعد على العرب » . ولو كنا وحدنا القائلين بما كان يشعر به السواد الأعظم من المصريين من عطف على الثوار السودانيين ، لكان يؤخذ علينا — للتشكيك في قولنا — أننا لم نكن من المعاصرين ، وأننا قد نكون متأثرين اليوم بوشائج الأخوة العربية القائمة والسياسة المشتركة والمصالح المتبادلة . ولكن هناك غيرنا شهود كثيرون . ونحن نترك هنا الكلمة في هذا الشأن ، لواحد من الأجانب المعاصرين لذلك الزمان وهو المستشار المالى الإنجليزى في عهد الاحتلال « السير أوكلاند كولفن » فقد ذكر في كتابه « تكوين مصر الحديثة The Making of Modern Egypt » في صدد كلامه عن هذه الحقبة

ما فحواه أنه كانت تصدر وقتئذ في القاهرة جريدة فرنسية باسم « البسفور » ، وأنها كانت دائبة على نشر أنباء ملفقة في جانب السودان ، في الوقت الذى كان فيه السودان ثائراً على الحكومة المصرية التى يتبعها ، وكان الاعتقاد السائد أن الكثيرين من المصريين يعطفون على هذه الثورة . وهذا القول من أحد المعاصرين الانجليز فى مصر مؤيد لاعتقادنا الجازم بأن الفتى حافظ إبراهيم كان — كسائر هؤلاء المصريين الكثيرين — يخالجه ذلك العطف على السودانيين الثائرين الذين يحرزون النصر على القادة الإنجليز المكروهين لا محالة عند المصريين بحكم سلطانهم على الحكومة المصرية واحتلالهم أرض الوطن المصرى نفسه .

ب – هزيمة أخرى

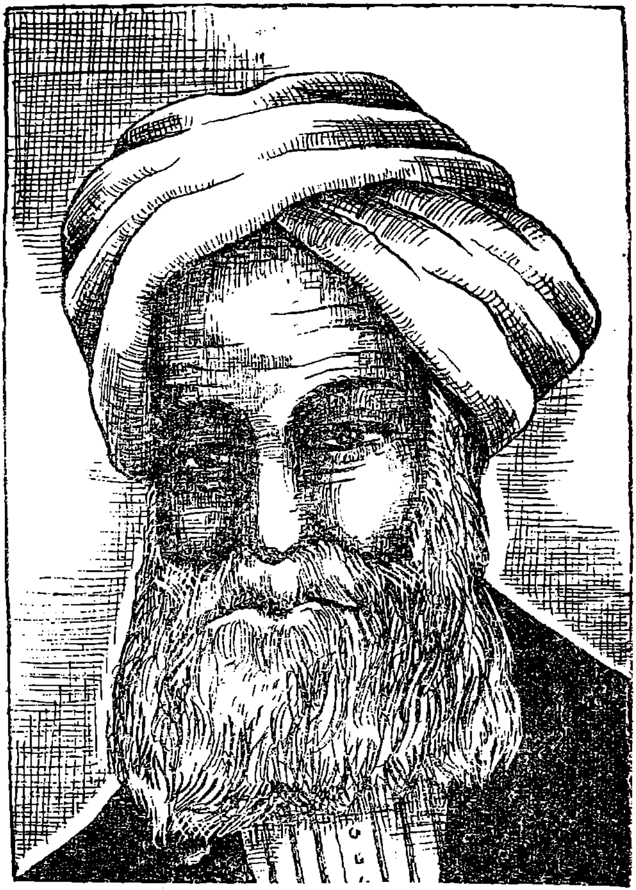
بقيادة إنجليزى آخر في السودان الشرقي

من الأقوال المأثورة قولهم : « إن المصائب لا تأتى فرادى » ، ولاشك أن هذا القول يصح على ما كان يجرى من الأمور أيام حافظ في السودان .

في شهر أغسطس ١٨٨٣ تواترت الأنباء بتوقع الفتنة ووقوع الاضطراب في السودان الشرقي ، ثم صار معروفاً بعدها أن هذه الحركة الثورية ؛ على رأسها رجل من قبيلة « هدندوه » في ناحية سواكن ، اسمه عثمان دقنه ، وأنه موفد من المهدى منذ ١٥ من يونيه لاستنهاض القبائل في شرق السودان للثورة . ولم يمض إلا القليل حتى استجابت سائر القبائل لدعوته ؛ وعينه المهدى أميراً من أمرائه .

وفي ١٦ من أكتوبر كانت قوة مصرية من ١٦٠ جندياً في طريقهم من سواكن –ميناء البحر المشهور– إلى « سِنْكات » لتعزيز حاميتها ، فدهمتهم في بعض الشعاب الضيقة بالقرب من « سنكات » جماعة تبلغ عدتها ١٥٠ من رجال القبائل الثائرة فأتت عليهم تقتيلاً ، ولم ينج إلا خمسة وعشرون . وكان هذا الانتصار مشجعاً لانضواء عدد من رجال القبائل يتزايد كل يوم تحت إمرة الأمير عثمان دقنه .

وهنا ترك عثمان دقنه أمر حصار « سنكات » لمن ذكرناهم من الثائرين ، وتقدم جنوباً مع جماعات غيرهم للاستيلاء على طوكر التى تبعد ستين ميلاً عن « ترنكيتات » الميناء الآخر الصغير . فأبحرت حملة قوامها ٥٥٠ جندياً من ميناء سواكن إلى ميناء ترنكيتات ، ومنها أخذوا طريقهم إلى طوكر وبعد مسيرة طويلة تعرضت لهم جماعة دونهم عدداً من الثوار ، واخترقت صفوفهم ، فاختل نظامهم واستولى عليهم الفزع ، وحاول بعضهم الفرار ، فأوقع بهم العدو ، وكثر قتلاهم ومنهم القنصل البريطانى في سواكن .



قائد الثوار فى السودان الشرقى

عثمان دقنه

وفي ديسمبر سارت حملة من سواكن تبلغ عدتها الألف ، وكانت وجهتها بلدة « تمانيب » أو « تمانيه » على مسيرة ثلاث ساعات من سواكن ، وتقع بينها وسنكات . وكانت « تمانيب » معسكراً للثوار ، فاما انتصف النهار واشتدت الهاجرة ، كان جنود الحملة يخترقون شعباً من الشعاب الضيقة ، فدهمهم من الثوار جماعة يبلغ عددها ثلاثة أضعافهم فتكاثرت عليهم وأعملت القتل فيهم ؛ فلم ينج من القتل إلا ثلاثة وخمسون ولوا الأدبار .

وهكذا أصبحت «سنكات» و «طوكر» محاصرتين ، فأوشكت المئونة على النفاد ، وكاد التسليم يكون أمراً مقضياً عليهما ، والهلاك مصير حاميتهما ؛

وحيال هذا الموقف الخطر والمصير المنتظر ، لم يبق للسلطات المسيطرة في مصر مندوحة من إيفاد نجدة لتدارك الحال دون إمهال .

وكالمعتاد رأت هذه السلطات أن يكون قائد الحملة من القادة الإنجليز المعروفين ، وأن يكون كبار ضباطها من الإنجليز أيضاً . ولما كان الاختيار قد وقع على حكمدار الشرطة في مصر الجنرال « ڤالنتين باكر » ، فقد اختار لها من الضباط وصف الضباط من مرءوسيه في الشرطة. وكان الاعتقاد السائد أن الجنرال باكر هو وحده الجدير بأن يقود الحملة إلى النصر ، والفراغ بعدها من الأمر كله في شرق السودان .

ومنذ الحادى عشر من سبتمبر بدأت الحملة تتوافد على سواكن ، وكانت قد أرسلت لحمايتها كذلك بعض البوارج البريطانية بإمرة « الأميرالاى السير هويت » ، كما زيد على الحملة فيلق سودانى جهزه « الزبير باشا » وأرسله للحاق بها من طريق السويس ، ثم أعقب الفيلق بغيره . وفوق ذلك كله جمعوا للحملة تعزيزات من مناطق « بربر » و« الصومال » ، كما أرسلت من القاهرة فرقة من الشرطة ومعهم عدد لايقل عن ٢٠٠ باشى بوزوق تتألف منهم كوكبة من الفرسان . وهكذا اجتمعت تحت قيادة الجنرال الإنجليزى «باكر باشا» حملة تبلغ عدتها نحو ٤٠٠٠ مقاتل، وكان من أسلحتهم مدافع كروب وغيرها من قاذفات القذائف .



الزبير باشا

الشخصية السودانية المرشحه لتهدئة الخواطر فى السودان

ولم يحل أول فبراير سنة ١٨٨٤ حتى كانت هذه القوات والمعدات قد وصلت إلى سواكن فترك « باكر » فيها قوة لحمايتها ، وغادرها جنوباً إلى ميناء « ترنكيتات » ومعه سائر الجيش البالغ ٣٧٤٦ مقاتلاً . وفي الرابع من فبراير تقدم بهم لملاقاة العدو ورفع الحصار عن طوكر . وكان الطريق تحفه هنا وهناك بقاع من الأجَم والأدغال تتخللها دوحات السنط الشائكة . وكانت الأدغال والأجَم تتكاثف مع التوغل في المسير . وبعد قليل انطلقت بعض الرصاصات ولاحت طلائع العدو ، وبعد مناوشات بينها وبين مقدمة الحملة اختفت . ثم عاد غيرها للظهور ، فهاجمتها الطليعة وعلى أثر عودتها خرجت من الأدغال جموع ضخمة مسلحة بالرماح انقضت على مقدمة الحملة فتراجعت لتنضم إلى سائر الجيش فتبعها العدو . وإذا بأفواج أخَر تطلق بنادقها على مقدمة الجيش و جناحيه . وعلى بغتة أقبلت حشوده منحدرة من التلال كثيفة متدافعة ، وكان ظاهراً من تحركاتها محاولة الاستدارة بالجيش ، يعززها الكمين بعد الكمين يخرج من الغابات صائحاً صياحه المفزع . وسرعان ما أخذ يتحقق للعدو تطويق الجيش كله . وعندها بلغ الفزع من الجيش أشد مبالغه ، واستولى على سائر جنده الاضطراب ، واختلط الراكب بالراجل منهم ، فشُلت حركتهم وضعفت مقاومتهم ، فأوقع بهم العدو وأثخن فيهم حتى أفنى منهم ٢٣٧٣ مقاتلاً من بينهم بعض الضباط الإنجليز ، وغنم ستة مدافع و ٣٠٠٠ بندقية ونصف مليون طلقة . وأدبرت فلول الجيش ، وأدبر معهم قائدهم الجنرال « باكر » إلى « سواكن » .

ولم تمض أيام حتى سلمت حامية « طوكر » ، وكان تسليمها في الثالث عشر من فبراير ، وكان وصول الفلول الهاربة إلى سواكن في اليوم نفسه ، وكانوا لا يكاد يصدق أحد منهم أنه نجا برأسه .

وأما ما كان من حامية « سِنْكات » فقد أبدى رئيس حاميتها المصرى شجاعة نادرة ، وفي ذلك يقول القاضي الإنجليزى « شارلس رويل Charles Royle » : « لقد بلغ من معاناة « سنكات » وشدة ضنكها من حصار

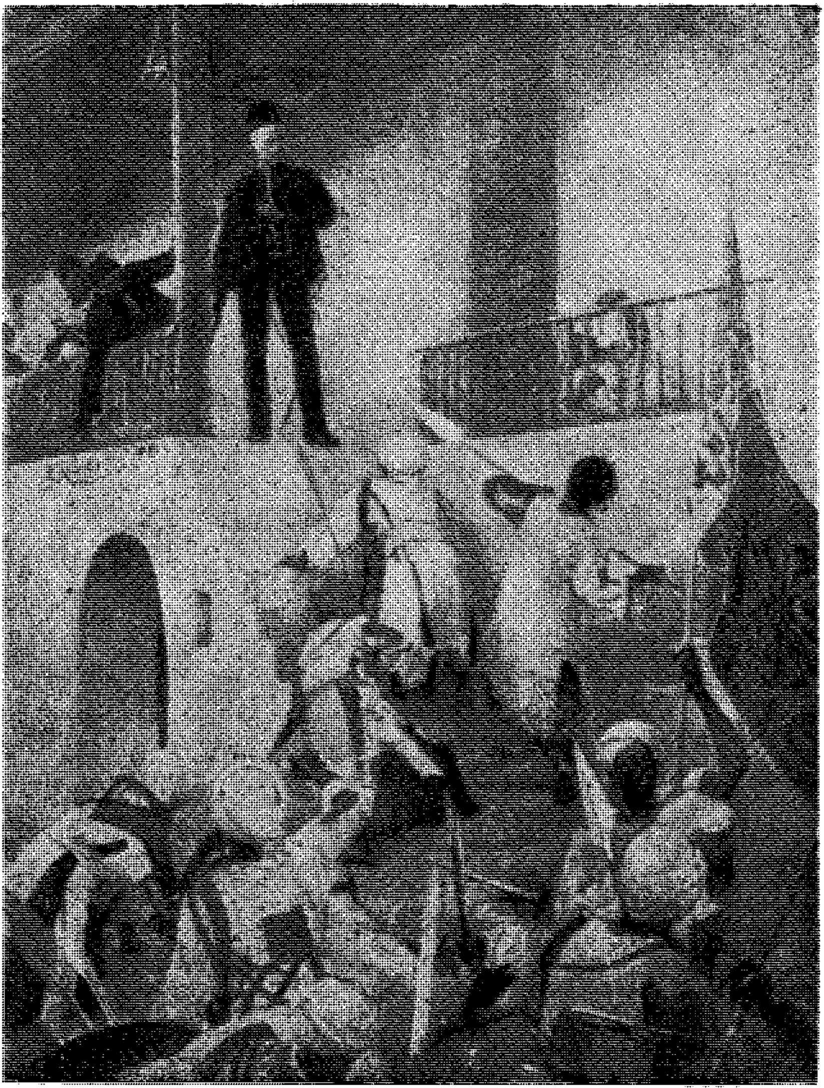
عثمان دقنه لها ، أن أكل أهلها الجمال ، ومن بعدها القطط والكلاب ، ولكن رئيس الحامية « توفيق أفندى » أبى التسليم وآثر عليه الموت الكريم ، فقد خرج مع حاميته وعددهم ٤٥٠ كلهم منهوكو القوى جائعون ، فانقضوا على الثوار الذين يعترضون طريقهم وهم عدد غير قليل ، ثم تكاثر العدو عليهم فصمدوا له حتى لاقوا الموت جميعاً إلا نفراً يعد على الأصابع . وقد ظل توفيق يقاتل العدو حتى نفدت آخر رصاصة معه ، فاستل سيفه للدفاع عن نفسه ، إلى أن كان ختام القتال موته في موقفه ميتة الأبطال .

وبدهي أن يلتمس النقاد الإنجليز لمواطنهم « الجنرال باكر » مختلف الأعذار ، ولكن الكثيرين من النقاد الحربيين – كما يقرر القاضي الإنجليزى « تشارلس رويل » – أخذوا على « الجنرال باكر » اتجاهه في المعركة إلى تكوين مربع واحد من جيش يتكون مع ٣٠٠٠ مقاتل ، على حين أنه لو عمد إلى تأليف ثلاثة مربعات مثلاً ، لصمد واحد على الأقل إذا اختلت الصفوف الأخرى من المفاجأة ، يضاف إلى ذلك ما كان من خلطه الجند المصريين والسودانيين والترك خلطاً ينعدم معه التفاهم والتعاون والتضامن. ويزيد بعض النقاد الحربيين في المقابلة بين مصير حملة « باكر » هذه ، وحملة « هيكس باشا » قبلها ، أن الفضل إنما يرجع إلى العدو نفسه في نجاة من نجا برأسه في حملة « باكر » يوم أدبرث وأدبر معها قائدها إلى « سواكن » ، فلو أن العدو استمر في مطاردة جنود « باكر » في أثناء هربهم بضعة أميال أخرى لأفناهم وقطع دابرهم وأتى على آخرهم حتى قائدهم ، كما وقع لهكس باشا وجيشه من قبلهم .

جـ - مبعوث الإنجليز «غوردون»

ومذبحة الخرطوم

كان لم يمض شهر وبعض شهر على تقلد المعتمد البريطاني الجديد «إفلين بارنج» - الذى نتعجل هنا تعريفه باسم «كرومر» - سلطاته العظمى في مصر ، حتى كانت الهزيمة العظمى في السودان على يدى مواطنه «هيكس باشا» من جراء طمعه في الرياسة ، وتطلعه للقيادة ، وعناده في موقفه بدافع من صلفه وغروره على عادة الإنجليز ، مع إضافة عوج تفكيره وسوء تدبيره . وكان على المعتمد البريطاني الخطير أن يبلغ حكومته أخبار الهزيمة ويعقب عليها بالرأى الذى تمليه خبرته ، فإذا كل ما هداه إليه تفكيره وأسعفه به تدبيره من رأى مبتكر ، هو ترك السودان للثوار وتخلى مصر عنه . وقد اعترف «كرومر» بذلك في كتابه «مصر الحديثة» بقوله : «إنى أعد نفسى مسئولاً عن ابتكار سياسة إخلاء السودان ، وعلى غلادستون تقع تبعة الموافقة على هذه السياسة» . وقد عارض رأيه ناظر النظار شريف باشا ، ولما رأى إصرار إنجلترا على الأخذ به استقال في ٧ من يناير سنة ١٨٨٤ بخطاب مشهور . فعرضت النظارة على «نوبار باشا» فقبلها في ٨ من يناير على أساس القرار الإنجليزى ، وهو تخلى مصر عن السودان ، مع الاحتفاظ بميناء سواكن . وقد احتجت مصر كلها على ذلك ، وكان في مقدمة من رفع الصوت بالاحتجاج في الصحف صحيفة «الأهرام» . ومن أجل إخلاء السودان ، عرضت إنجلترا على مصر خدمات «الجنرال غوردون» ، الذى عرفه السودان في عهد الخديوى إسماعيل الذى عينه مديراً لإقاليم خط الاستواء من ١٩ من فبراير سنة ١٨٧٤ حتى استقال من منصبه عام ١٨٧٦ ، ثم أعاد تعيينه حكمداراً عاماً على جميع الأقاليم السودانية المصرية في فبراير سنة ١٨٧٧ ، بناء على توصية الحكومة



مصرع غوردون حاكم السودان العام فى الخرطوم على أيدي الدراويش

البريطانية التي كانت ظاهرة الميل إليه لتعضيده في السودان حركة المبشرين . وقد بقي « غوردون » في هذا المنصب حتى استقال في أواخر عام ١٨٧٩ بعد شهر من عزل الخديو إسماعيل . وفي هذه الفترة وقّع الخديو إسماعيل مع إنجلترا اتفاقية أغسطس سنة ١٨٧٧ بإلغاء الرقيق ومنع التجارة فيه ، وجددت هذه الاتفاقية في السنة التالية . وتكبد الخديوى نفقات جسيمة في سبيل تنفيذ هاتين المعاهدتين . وها هى ذى انجلترا تعرض الآن إعادة استخدام « غوردون » حاكماً عاماً للسودان لتنظيم إخلائه من المصريين ، وقد رفضت مصر ذلك وكانت حجتها أن حركة المهدى في السودان تقوم على دعائم دينية فلا يصلح في علاجها إيفاد مسيحي . ولكن الحكومة المصرية لم يسعها حيال إصرار الإنجليز التمادى في الرفض ، فصدر القرار بتعيين « غوردون » وأبلغته إنجلترا أن يقدم نفسه على الفور إلى المعتمد البريطانى في مصر . فكان قدومه في ٢٤ من يناير سنة ١٨٨٤ ، وتم لقاؤه للمعتمد البريطانى ، ووضعت التعليمات وسلمت إليه الفرامانات والمنشورات . ولم يغيب عن « غوردون » وجه الحكمة في وجهة النظر المصرية ، فأضمر وجوب الانتفاع في مهمته في السودان بحاكم مسلم عظيم من حكام السودان الأسبقين وهو « الزبير باشا » ، ولما كان رجال « غوردون » سبق أن قتلوا ولده ، فقد طلب « غوردون » وساطة المعتمد البريطاني للجمع بينه والزبير وإصلاح ذات البين ، فكان اجتماعهما في يوم ٦ من يناير . وفي اليوم نفسه ارتحل « غوردون » ووكيله « الكولونيل استيوارت » من مصر إلى الخرطوم . فكان وصولهما إليها في ٨ من فبراير . وما كاد غوردون يصل إلى الخرطوم في ١٨ من فبراير سنة ١٨٨٤ ، حتى أرسل في طلب الزبير باشا ، وقد تبين له أنه كان وحده محط الآمال عند السودانيين . ولكن الرأى العام البريطاني كان معارضاً لذلك ، لنفوره من الزبير لأنه تاجر قديم من كبار التجار في الرقيق . وهذا الموقف من الإنجليز يناقض نفسه بنفسه ، لأن إخلاء السودان وتركه لحكم المهدى يحمل معنى التسليم بعودة تجارة الرقيق للربوع السودانية ، سواء حضر « الزبير » أو لم يحضر . وما زال « غوردون » يلح

في طلب الزبير باشا دون جدوى ، فقد استقر رأى الحكومة الإنجليزية نهائياً على عدم الموافقة على إيفاده .

وكان غوردون مع ما اشتهر عند قومه من طيبته وتقواه ، لا يخلو من المكر وسعة الحيلة في شئون دنياه ، فلم يفته وهو في « كروسكو » على أبواب السودان أن يرسل إلى المهدى كتاباً ومعه هدية من ثياب ، وكان فحوى الكتاب أن حكومة جلالة الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا قد عينت « غوردون » حكمداراً للسودان ووافقت الحكومة الخديوية على ذلك ، وأن « غوردون » بهذه الصفة يعترف بالمهدى سلطاناً على السودان الغربى كله وملكاً مطلقاً على كردفان ودارفور ، وأنه يرغب في توثيق العلاقات بين سلطنة المهدى وبينه وإعادة المواصلات ووقف إراقة الدماء ، كما أرسل « غوردون » في الوقت نفسه تلغرافاً إلى حكمدارية السودان بالخرطوم باستقبال رسل المهدى حين يصلون بإطلاق المدافع وإقامة الزينات . ولما نزل غوردون في سراى الحكمدارية بالخرطوم أعلن في خطبته قراءة فرمان توليته هذه التصريحات :

« لقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تاماً ، وفُوّض إلىّ الحكم المطلق . وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتى ، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته ، على شرط ألا يمد يده لغيره . هذا وقد ألغيت جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ ، وقد تجاوزت أيضاً عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات ، وأمرت بإطلاق سراح جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم ، وعزمت منذ الآن على ألا يكون أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين ، حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه . وقد عينتُ عوض الكريم أبو سن(١) مديراً للخرطوم ، ولى الأمل

(١) هو زعيم قبائل الشكرية وكان مواليا للحكومة المصرية

بأن العلائق ستفتح بيني وبين سلطان الغرب « المهدى » وثيقة العرى . وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وإتلافها وسحب الجنود ، لتلتفتوا إلى عمران بلادكم ، وحرث أراضيكم ، وإنماء تجارتكم . ومني عليكم السلام » .

ثم استقبل « غوردون » العلماء فأبلغوه أن إتلاف الحصون نكبة محققة ، لأن المهدى لن يلتفت إلى ماقاله من كلام . فعدل « غوردون » عن تخريب الحصون .

ولقد جاء رد المهدى المؤرخ أول جمادى سنة ١٣٠١ (١٠ من مارس سنة ١٨٨٤) مؤيداً سوء ظنهم : فقد تعالى المهدى على ما جاء في كتاب « غوردون » من أنه عينه سلطاناً على كردفان ، ودعا « غوردون » إلى الإسلام والتسليم ، وإلا فإن حزب الله واصل إليه ومزيل له : وأرسل المهدى هدية لقاء التي تلقاها مع كتاب « غوردون » ، وكانت الهدية على حد قوله ، كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات ، طلباً لعالي الدرجات . والهدية جبة مرقعة ورداء ، وسراويل ، وعمامة ، وكلها من الدمور ، وطاقية من الخوص ، وحزام وسبحة . فلما قرأ غوردون الخطاب ورأى الهدية غضب ، وركلها بقدميه ، قائلاً بالإنجليزية « جوديم » ثم سلم للرسل رده على المهدى وفيه يقول :

« إنني أدعوك إلى السلم ، وأنت تدعوني إلى الحرب . وأدعوك إلى حقن الدماء ، وأنت لا تميل إلا إلى سفكها . فأقول لك الآن ، لابد من قهرك وكبح جماح طغيانك . ومهما يكن عندك من الأتباع ، فلا بد أن ترضخ صاغراً أو تهلك حيال القوتين : قوة الحكومة الخديوية والدولة الإنجليزية » .

وكان الشغل الشاغل لغوردون بعدها ، مخابرة السلطات الإنجليزية في مصر ولندرة تلغرافياً لإرسال مدد إليه ، من الجنود الإنجليزية أو الهندية و الأتراك ، فقد كان لا يخفى عدم ارتياحه للجند المصريين. كما أنه لم يلبث

أن ضم إليهم في تعصبه عليهم الباشي بوزوق الأتراك. وظل « غوردون » بالخرطوم يعد ما يستطاع للدفاع عن المدينة ، وهو يمنى نفسه بقرب وصول نجدة من حكومته ، إذ لم يكن خافياً عليه عدم ميل أهل السودان للانضمام إليه ، لغلبة اعتقادهم في المهدى منذ هزيمة « هيكس باشا » ، وحرصهم بدافع هذه العقيدة على الجهاد في سبيل الله والمهدى . وهكذا امتدت الثورة إلى أواسط السودان ، واقترب مشايخ القبائل بجموعهم من الخرطوم وكان زعيم قبائل الشكرية « عوض الكريم أبوسن » قد اعتذر من عدم تولى مديريتها . ومن ثمة كان كل من هؤلاء طامعاً في أن تكون مديرية الخرطوم له على يد المهدى .

ولقد بدرت بادرة أمل لدى « غوردون » وهو يرى زيادة النيل حول الخرطوم في موسم الفيضان في عام ١٨٨٤ ، لأنه يفعم الخندق بمائه ، كما أنه يسمح باستعمال ما لدى « غوردون » من البواخر النيلية المدرعة المسلحة بالمدافع في تغطية جنود الحامية فى تقدمها إذا خرجت لمهاجمة المحاصرين. ولم يكن « الجنرال غوردون باشا » لتفوته هذه الفرصة ، وخاصة أن لديه بطلها المصرى «محمد على» الذى كان يلقبه «الباشا المناضل». وقدخرج محمد على في ٢٩ من أغسطس ١٨٨٤ بفرقة كبيرة مجهزة ، متجهاً إلى حيث يجتمع المحاصِرون جنوبى الخرطوم من ناحية النيل الأزرق . فلما وصل إلى بلدة جريف لقى الدراويش وعلى رأسهم الشيخ عبد القادر فهزمهم وغنم ١٦٠٠ بندقية وعدداً لا يحصى من السيوف والحراب . ولم ينتظر « غوردون » عودة الظافر بل خرج في باخرة لاستقباله وهنأه في حرارة ورقاه إلى رتبة « جنرال » . وفي اليوم التالى أجلى الجنرال « محمد على » الأعداء عن جميع المثلث الواقع جنوبى الخرطوم من « جريف » على النيل الأزرق إلى « كالاكالا » على النيل الأبيض . وفي اليوم الثالث خرج محمد على للقتال ، وكانت وجهته هذه المرة إلى الشمال ، حيث لاقي عند « حلفايا » قائداً من قواد الدراويش المعروفين وهو شيخ الأبيض ، فانتصر عليه انتصاراً باهراً ، وأجلى ضفتى النيل من الأعداء حتى شندى شمالاً ، وحُملت منها الحنطة والعجول والمسلى وكل أنواع المأكل إلى الخرطوم حيث صار بيعها لأهل

الخرطوم الذين كانوا يشكون من قلة الزاد وارتفاع الأسعار ، فكاد يجن جنونهم من الغبطة والسرور . بيد أن هذه الانتصارات التي جلبت السرور ، كان منها دخول الزهو والاستهتار على القائد المغوار . فقد اتجه «محمد على» للمرة الثانية قبلي الخرطوم ومضى موغلاً ، فإذا به يلتقي للمرة الثانية خصمه شيخ الأبيض ومعه أمير آخر من أمراء الدراويش هو الشيخ مداوى وقد انضمت قوتهما ضده ، فهاجمهما ، في ٤ من سبتمبر فانهزما وتراجعا في الداخل بعيداً عن النهر ، فتبعهما وقد جن الليل ، فأخذاه على غرة في الظلام فحارب محمد على وجنده ببسالة نادرة ، وأبى — وقد أصبح جنرالا — أن يتقهقر خطوة واحدة ، ولم يزل يحارب حتى تمزق جسده وقتل هو وثمانمائة معه ، وهم نصف الفرقة ، فضلاً على خسارة ألف بندقية . فكانت هذه النكبة في البطل المصرى المناضل أكبر ضربة أصابت حامية الخرطوم في حصارها الطويل .

وفي السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٤ وفي أثناء حصار الخرطوم سقطت في يد المهدى مدينة بربر وهى طريق المواصلات الباقي الوحيد الذى كان يصل الخرطوم بالعالم الخارجي .

وقد كان « كتشنر » وقتئذ يعمل ضابطاً للمخابرات ، لما كان معهوداً فيه من سعة الحيلة والمضاء ، فضلاً على معرفته اللغة العربية قراءة وكتابة ، ومن ثمة كان عليه أن يكون وثيق الاتصال بمختلف القبائل المنتشرين بين النيل والبحر الأحمر ، فلا غرو يجيد اللغة العربية ، ولا غرو يعرف الذين يداخلهم ويتعامل معهم . وقد اكتسب « كتشنر » مودة العرب البشاريين ، كما ألف من العبابدة والفجارة سلسلة من المراكز الأمامية من الصحراء إلى البحر .

وهكذا كان « كتشنر » يسعى سعيه المتواصل لتيسير الوسيلة لإنقاذ « غوردون » منذ إبريل ١٨٨٤ بمخابرة قبائل العربان العبابدة والبشارية والكبابيش وغيرهم ، ولكن الشهور مضت تلو الشهور قبل أن تعزم الحكومة الإنجليزية في ٥ من أغسطس على إيفاد حملة إنجليزية للنجدة ، وهى الحملة التي تقرر في ٢٦ من أغسطس أن يكون على رأسها الجنرال « ولسلى »

الذى يحمل لقب « لورد القاهرة » منذ دخوله العاصمة المصرية على رأس جيش الاحتلال عقب الثورة العرابية . وقد وافقت الحكومة الإنجليزية نزولاً على رأيه أن تتخذ الحملة طريق النيل من القاهرة مخترقة الجنادل والشلالات إلى الخرطوم ، بدلاً من طريق السويس ـ سواكن ، ومنها برّا إلى بربر فالخرطوم .

ولا يسعنا ـ إذا ذكرنا ما كانت تحمله أسلاك البرق كل يوم طوال الشهور العدة من البرقيات المرسلة من « غوردون » إلى « كرومر » المعتمد البريطانى في القاهرة مكررة طلب النجدة ـ إلا أن نذكر ما ورد في إحداها من سخرية في قوله :

« تسألنى عن السبب والقصد من بقائى في الخرطوم ؟ إنى باق في الخرطوم لأن الثوار العرب يحبسوننا فيها ولا يتركوننا نخرج منها » .

وفي برقية أخرى :

« لا يزعجنى إلا هذا التلكؤ ، حتى ينقضى الوقت وتضيع الفرصة » .

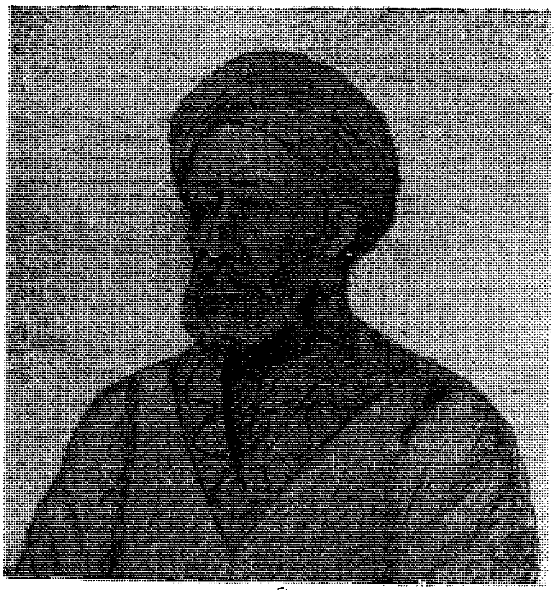
ولقد صدق « غوردون » حسُّه ولم يخدعه حدسه ، فقد انقضى الوقت وضاعت الفرصة فعلاً . فها هو ذا المهدى في عاصمته الأبيض في آخر شهر الصيام يصدر أمره إلى أقدر قواده عبد الرحمن النجومى ـ ومعه أخوه حسن وغيره من الأمراء ـ بالزحف على رأس قوة لا تقل عن مائة ألف مقاتل ، فرسانها عشرة آلاف ، وحملة البنادق عشرة آلاف ، والباقون من حملة الحراب . وكان الجيش مزوداً بمدفع كروب وستة مدافع جبلية كان قد غنمها الثوار من حملة « هيكس » المنكوبة . وفي الوقت نفسه أذاع المهدى على جميع قبائل السودان شرقيها وغربيها في الصحارى والبلدان دعوته للانضواء تحت علم الجهاد ، والمبادرة إلى الزحف للاشتراك في حصار الخرطوم واعداً إياهم أجزل الثواب وحسن المآب ،

ولمن تخلف شر العقاب في نفسه وفي ماله . فامتثلت القبائل كلها أمره ، وتدفقوا أفواجاً ، وبدأ الزحف الكبير ، وقد أوفي عدد المجاهدين في حملته على نصف مليون . وجاز هذا الجيش الهائل من شتى القبائل كردفان ، وسار في محاذاة النيل الأبيض ، وعندما اقترب القائد من الخرطوم أرسل مع رسولين في التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨٤ كتاباً يدعو فيه « غوردون » للتسليم ومعه جبة الدراويش على سبيل الهدية ، وكانت هذه هي عاداتهم المرعية . وكان جواب « غوردون » الرفض كما تعودوا ذلك منه . وفي هذا اليوم (التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨٤) وقد أخذ المحاصرون يضيقون الخناق على الخرطوم ، كان « اللورد ولسلي » قائد حملة الإنقاذ المقرر إيفادها لإنقاذ « غوردون » قد وصل بصحبة « كرومر » إلى القاهرة لتسلم مقاليد مهمته ، وبعدها بدأ السباق نحو الخرطوم بين اللورد « ولسلي » والمهدى ، ذلك السباق الذى يتقرر فيه الموت أو الحياة لغوردون .

وفي اليوم الثاني من محرم سنة ١٣٠١ (٢٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٤) أرسل المهدى كتاباً إلى غوردون ينذره : « إننا على مسيرة يوم من أم درمان » .

وفي اليوم التالى وصل المهدى إلى بلدة أم سعيد قبلى أم درمان حيث كانت ثمة جموع من المقاتلة الدراويش يحاصرون أم درمان ، على حين كانت الجموع الأخرى فى شمالى الخرطوم بقيادة شيخ الأبيض ، وكذلك قبلى الخرطوم حيث كان على الميمنة القائد أبو جرجه ، أما الميسرة فكان عليها القائد الكبير عبد الرحمن ولد النجومي الذى كان معتبراً عندهم « سيف المهدية » ، مثل « سيف الإسلام » خالد بن الوليد فى الفتوح الكبرى على عهد النبي عليه السلام وخلفائه الراشدين .

ولم يزل المهدى منذ وصوله إلى ضواحى الخرطوم يعرض على « غوردون » شتى العروض للتسليم و « غوردون » يطاوله . وكانت الخرطوم فى أزمة شديدة فى الزاد والمئونة حتى أدت هذه الحال إلى تفشى المجاعة ، إلا أن « غوردون » كان ينام ويستيقظ وهو يحلم بوشك قدوم



خليفة المهدي عبد الله التعايشي

حملة الإنقاذ ، فلا غرو يسخر من طلب التسليم . ولكنه حاول أن يدفع عن نفسه القتل إذا وقع أسيراً بقوله في إحدى رسائله ، إنه إذا وقع أسيراً فإن حكومته تفديه بعشرين ألف جنيه ذهب . فكان رد المهدى عليه : « أنت إذا قبلت نصحنا ؛ فبها ونعمت ، وإلا إن أردت عند أسرك أن تجتمع على الإنجليز ، فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم » .

ورأى المهدى أن يبدأ بأم درمان . وكان على جيش الدراويش عملاق سودانى اسمه حمدان أبو أنجر ، وعلى حامية أم درمان من المصريين محمد فرج الله الذى أحسن الدفاع عنها حتى كان من ذلك أن عدل الثوار عن أخذها عنوة إلى تشديد الحصار عليها .

ولم تلبث أم درمان أن نفدت فيها الأقوات ، ولم يكن لدى « غوردون » ما يمدها به لنفاد الزاد من الخرطوم نفسها فضلاً عن أن الحصار قطع كل مواصلة بينهما وهما على ضفتى النيل متقابلتان . فلم يسع « غوردون » إلا أن يشير على فرج الله بالتسليم ، فسلمت أم درمان في ٥ من يناير سنة ١٨٨٥ .

ولما كان المهدى قد اتصل بعلمه أن حملة الإنقاذ الإنجليزية على مسيرة أيام عند بلدة « المتنة » وأنه قد وقعت بينها وبين قواته معركة في « أبوقليع » (ويقال لها أيضاً أبوطليع) التى هلك فيها الكثيرون من رجاله ، وأن الحملة في طريقها إلى بلدة القبة ، فقد سارع إلى دعوة أمرائه في العشرين من يناير للتشاور ، وأبلغهم أنه حظى بالحضرة فأوحت إليه (كالنبى عليه السلام) بالهجرة إلى الأبيض . وكادت تتفق الآراء على ذلك لولا رأى قال به أحدهم وهو الهجوم على الخرطوم أولاً ، فإذا لم يفلح الهجوم كانت الهجرة فالطريق إلى الأبيض مفتوح والهجرة ميسورة كل حين . وكان « غوردون » ومعه قناصل الدول ينتظرون وهم على سطح السراى بالنظارات المعظمة إلى كثرة من يجتازون النهر من الدراويش لاحقين بمعسكر النجومى حيث يحتشدون كأنه يوم الحشر في صعيد واحد ، مما يدل على أن المهدى غير بعيد في أم درمان ، وأنه ما قدم بشخصه إلا لأمر عظيم .

وفي يوم الأحد ٢٥ من يونيه ، جاء الخبر بأن بواخر الحملة الإنجليزية غادرت صباح أمس فقط بلدة القبة . فعقد الخليفة مجلسه مرة أخرى ، فاستقر الرأى على أن يكون الهجوم صباح الغد ، وبعث المهدى من يذيع في جموعه حول الخرطوم أنه حظى بالحضرة فأوحت إليه أن الله جعل أرواح حامية الخرطوم كلها في قبضته . وفي المساء اجتاز المهدى في زورق ومعه أمراؤه الثلاثة : عبد الله التعايشي ، وعلى ولد حلو ، ومحمد شريف إلى الضفة الشرقية قبلي الخرطوم ، حيث احتشدت الألوف المؤلفة من المقاتلة . فقصد الخليفة إلى معسكر عبد الرحمن ولد النجومي فعرض الجيش ورتبه وخطب فيه يحضهم على الجهاد ، ويعد من يستشهدون بالجنة وطيباتها ، وقد حرص قبل الختام أن يوصيهم هذه الوصية في شأن « غوردون » وهي ألا يتعرض أحد منهم لحياة « غوردون » بسوء . والسر في ذلك أن المهدى كان على حد قوله لأمرائه يريد أن يفتدى به أسيراً آخر ، وهو أحمد عرابي ، لما كان من ثورته في مصر على حكم الأتراك وتدخل الإنجليز .

وفي الثلاثاء ٢٧ من يونيه في منتصف الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم ، زحف الدراويش بجموعهم الغفيرة تحت قيادة النجومي ، تتقدمهم طلائع من حملة البنادق ثم جميع المقاتلة بالسيوف ، ومن ورائهم سائر حملة البنادق ، وفي المؤخرة وعلى جانبيها الفرسان . وكانت الأوامر تقضي بأن يكون الزحف في سكون لا يسمع فيه حتى وقع الأقدام . وقد ساعد على ذلك أن الأرض كانت ميثاء ناعمة ، ومعظم المقاتلة حفاة ، وقد كان الدخول إلى المدينة في موضع انحسر عنه الماء في الخندق المحيط بها ، فانقض الدراويش على الحامية وكانت مؤلفة من الأورطة المصرية والأورطتين الثانية والثالثة السودانيتين والأتراك والباشي بوزوق . ولم تأت الساعة الخامسة حتى كانت الخرطوم في أيدى الدراويش فأسرع الشيخ محمد نبوى والجمع الذى معه إلى سراى الحكمدارية ، حيث خرج إليهم « غوردون » وقد لبس كسوة التشريفة الصغرى متقلداً سيفه ووضع على رأسه كوفية من الحرير معقودة بالعقال . وسألهم « غوردون » وهو على سلم السراى « أين محمد

أحمد المهدى ؟ »» فأجابوه بالطعن بالحراب وكان محمد نبوى أول طاعن ثم جذبوه من رجله على السلم وجزوا رأسه وحملوها إلى المهدى .

وكان بمدينة الخرطوم نحوعشرين الف نسمة كانوا ينتظرون ترحيلهم على يد حملة الإنقاذ الإنجليزية التي طال إرجاء إرسالها ، وها هم أولاء لما أوشكت الحملة أخيراً على الوصول ، كان سيف الدراويش قد سبق إليهم . وقداستمرت مذبحتهم ست ساعات ، ولم يرفع عنهم السيف حتى أصدر الخليفة الأمر بالكف عن القتل بعد أن بلغ عدد من قتلوا نحوالأربعة والعشرين ألف رجل . كما لقي حتفه في هذه المذبحة العامة عدد من الأطفال والنساء . أما من بقين من النساء على قيد الحياة من الحسان ومن لايزلن في مقتبل العمر فضلاً عن العذارى ؛ فقد ساقوهن سوق الأنعام إلى حيث يُعْرَضْن ليتقاسمهن المنتصرون سبايا لهم ، ومن بقين بعد الاختيار فإنهن أصبحن نصيب عامة الجند . أما العجائز فقد صرفوهن هائمات في أسمالهن ، يتضورن جوعاً ويعشن على الفتات التي تلقى إليهن إن قابلهن محسن متصدق .

وعلى مثال ما جرى في الخرطوم ، ذَبَح أنصار المهدية الآلاف من أفراد الحاميات المصرية والموظفين والتجار المصريين في سائر أنحاء السودان مع تعذيب من يشتبه في أن لديهم بعض المال للإقرار بمخابئه . كما سبيت الفتيات العذارى ، وتعدى بعض الثوار إلى بقرهم بطون الحبالى ، وبلغ قسوتهم أنهم كانوا يتبارون في قذف الأطفال في الهواء ليتلقوهم على أسنة الرماح . وأوجز ما يقال في تعليل هذه القسوة العارمة من بعض الثوار هو أن أتباع المهدى كانوا ينظرون إلى من لا يؤمن بدعوة المهدى ، وإن يكن مسلماً، على أنه من الكفار . أما المهدى فإنه على الرغم من هذا قد أظهر استنكاره لهذا الإسراف في التقتيل والتنكيل .

أما الحملة الإنجليزية القادمة لإنقاذ « غوردون » فقد أشرفت على الخرطوم في ٢٨ من يناير سنة ١٨٨٥ بعد فوات الأوان ، فوجدت دار الحكومة قد تهدمت ، والراية المصرية قد اختفت ، و« غوردون » الذى كان وفودهم لإنقاذه في عداد الهالكين .



أمير من أمراء الدراويش في لباسهم المعتاد وهو مرقعة الزاهدين

واستقر الأمر بعدها للمهدى .، فجعل عاصمته أمدرمان ، وقام بسك النقود وشرع في جمع الزكاة والعشور . ودخلت أقطار السودان — عدا مديرية خط الاستواء — في طاعته حتى توفاه الله في ٩ من رمضان سنة ١٣٠٢ (٢١ من يونية سنة ١٨٨٥) ودفن في الحجرة التى فارق فيها الحياة ، وعلى هذه الحجرة أقيمت قبة صار الناس يحجون إليها للتبرك ، وكان المهدى قبل وفاته قد استخلف الفقيه عبد الله التعايشى فصار « الخليفة » الحاكم بأمره في السودان :

هذه الهزائم المتكررة والفظائع المنكرة كانت أخبارها تتوارد على « كرومر » المعتمد البريطانى ممثل دولة الإحتلال في القاهرة فيطيرها — مشفوعة في معظم الأحيان برأيه — إلى لندن : ولم تكن البيانات كلها بهذه التفاصيل التى جمعها بعد ذلك المحققون الرسميون وغير الرسميين ، واعتمد على تحقيقاتهم المؤرخون في بحوثهم المستفيضة التى استغرقت عدة سنين ، ولكنها كانت رسائل تحملها البواخر النيلية أوبرقيات عاجلة تنقلها أسلاك التلغراف التى كان يتعرض لقطعها الثوار ، كلما اقتربوا في زحفهم واقتربت معهم الخاتمة وحق الدمار :

أما الوزارة المصرية والخديوى نفسه ، فكانوا آخر من يعرف ، وإن علموا فلاتدخل في علمهم دقائق الأسرار ، بل يكون إلمامهم بالأخبار العامة التى هى في الغالب الأعم مجملة في كلمة أوكلمتين مؤداهما وقوع نكبة طامة من قبيل ما سبق :

أما عند انقطاع أسلاك التلغراف فكانت تصل إلى القاهرة من الجنوب ، بعض الرسائل مع النجابة المكلفين ، ومن ورائها الشائعات يتناقلها العربان من البدو الرحل في تنقلاتهم على ظهر الهجين في الصحراء الشرقية . وقد كان من انقطاع سبل المواصلات في الختام أن تأخر نبأ سقوط الخرطوم ، فلم يصل في حينه إلى مصر والعالم ، ويقال إن القاهرة لم تعلم به إلا بعد شهر من وقوعه : وفي جميع الأحوال ، كانت الشائعات المتناقلة تحكى مالا

يتعلق به الخيال من الفظائع والأهوال التي تنخلع لها القلوب وتقشعر الأبدان ، فتشتد النقمة ويزداد السخط في مصر على من كان السبب في هذا كله . ومَن ذا يكون السبب غير السادة الذين استولوا على السلطة العليا في مصر وأخذوا أزمة القيادة كلها في أيديهم : الإنجليز ؟

فلا غرو إذا اشتدت في قلب الفتى حافظ إبراهيم كراهتهم واستفحلت النقمة عليهم ، واستعرت مراجل الغيظ منهم والمقت لهم ، شأنه في ذلك شأن سائر المصريين الذين كانوا يتعزون بعض الشيء عن فجائعهم في مواطنيهم وذوى قرابتهم ، ممن كانوا تجاراً أو موظفين أو ضباطاً أو جنوداً في الحاميات المصرية في السودان ، بالتشفي والتنديد بالقادة البريطان ، بما أصابهم على يد المهدى من الهزيمة والهوان ، وإن كان تشفياً لا يرد على مصر ما فقدت وهو عظيم ، ولا يعيد الحياة لمن ثكلت في أبنائها وهم يعدون بالألوف لا بالمئين .

في طنطا

حافظ وتكوينة الأدبى

كان مُقام حافظ في القاهرة رهناً ببقاء خاله فيها ، إذ كان هو ووالدته الأرملة يعيشان في كنفه ، ولكن خاله محمد أفندى نيازى المهندس لم يلبث أن تغير بعد سنوات مقر عمله إذ صدر الأمر بنقله إلى طنطا ، فلم يكن بد من انتقالهما معه .

وكان سفر حافظ ووالدته الأرملة إلى طنطا سنة ١٨٨٧ كما هو المرجح عندنا مما كتبه الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار – وكان طالباً بالمعهد الأحمدى – عن لقائه حافظاً في طنطا في أبريل سنة ١٨٨٨ ، بعد أن صارت له فيها شهرة في الشعر .

قال الأستاذ النجـــار :

«في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأحمدى بطنطا ، وقد سافرت في أيام العطلة إلى بلدنا « القرشية » ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر « محمد حافظ إبراهيم » . ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذى كان نُهمة نفسى حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر ، وحضور نادرة ، وكان دأبنا من رمضان تلك السنة أن نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم نلبث في سمر ممتع ومطارحة للشعر ، ومذاكرة في نوادر الأدب ، وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض ، إلى أن يأتى وقت السحور ، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا



السردار كتشنر باشا
قائد الحملة المصرية الإنجليزية فى السودان والحاكم العام

فيه إلى انبثاق الفجر ، فنؤديه ، ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة إلى قرب بلدة قحافة ، ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع ، فيذهب كل واحد منا إلى بيته ، ثم نعود إلى مثل ذلك في الغد إذا جن الليل » .

ويمضى صديق الصبا فيروى من نوادر هذه الجماعة من أدباء الشباب ، وما بدر منهم في أواخر رمضان من ذلك العام ، عن حسن قصد التماساً لترويح الخواطر ونزهة النواظر :

« ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفي أواخره بصرنا ببشروش جميل الصورة في حديقة مدرسة الفرير ، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه ، فكان المنظر جميلاً . فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال ، ولكن جماعة الفرير ظنوا تعمد ذلك لإقلاق راحتهم . فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس ، وأسرعنا الخطا حتى أتينا إلى مدرسة الفرير والظلام لم يقوض خيامه ، وما إن تقدم واحد منا لتحريك الباب حتى هب جماعة من الفلاحين قد أكمنهم جماعة الفرير للقبض علينا ، فعلقت حبائلهم بمحمد حافظ إبراهيم شاعر النيل ومحمد حلمى الجميزى أفندى ، أما أنا والشيخ محمد إبراهيم البيومى فأسلمنا أرجلنا للريح ، ولما أمنا الطالب ، وقفنا ننتظر أخوينا ، إلى أن فضحنا النهار ولم يبق للانتظار فائدة ، فذهبنا بحسرة ما بعدها حسرة وكان السيد محمد إبراهيم صلاح قد تخلف عن الذهاب معنا في هذه المرة .

« ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان ، ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك ، وقد اتفقت مع السيد محمد إبراهيم صلاح والشيخ محمد إبراهيم البيومى ، على أن يكتبا إلى بما يتم من أمر حافظ ومحمد أفندى حلمى ، وأن يلحنا لى لحناً أعرفه ، وذهبت وأنا على أحر من الجمر ، وفي اليوم الثانى من أيام العيد وافتنى تذكرة بوستة من محمد حافظ ابراهيم بما تم :

« وذلك أنه لم يرتفع النهار حتى ذاع الخبر ، وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا ، وعلم كل من نيازى أفندى مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ محمود الجميزى شقيق حلمى أفندى ، فذهبا إلى

جماعة الفرير وكلما هم في هذا الشأن فرضوا بإطلاقهما ، وكانوا قد سلموهما إلى الضبطية ، بشرط أن يعودا إلى المدرسة ويستسمحاهم ، ففعلا وانتهى الأمر بإطلاقهما » .

ولقد ظهر للجماعة في ذلك الحين من آيات حافظ في قوة الحافظة وسرعتها اللاقطة ، أنه كان يسمع الفقيه في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالقراءة التي قرأ بها الفقيه .

ومن المؤكد أن حافظ كان وهو في طنطا قد انقطع عن المدارس ، وأنه لم يكن يرتضى لنفسه أن يدخل في خدمة الحكومة في وظيفة من الوظائف الصغيرة أو يمتهن عملا أياً كان ليدرّ عليه بعض المال مهما كان يسيراً ، فلقد كان الفتى وحيد أمه الأرملة وكان عيشه مكفولاً في كنف خاله .

ولاشك عندنا في أن خاله محمد أفندى نيازى المهندس ، كان ممن يقرءون الكتب ويقتنونها ، كما أنه لا شك عندنا في أن حافظ كانت تمتد يده في حداثته منذ تجاوز الحادية عشرة من عمره إلى بعض ما كان يقرؤه خاله من الكتب وخاصةً القصص ، وأولها — كما قدمنا — « قصة عنترة ابن شداد » و « ألف ليلة وليلة » ، ويضاف بعد ذلك ما كان يقرؤه خاله من كتابات معاصره الصحفى الأديب الشاعر عبد الله النديم وأولها جميعا المجلة الأسبوعية الأدبية الهزلية التي كان يصدرها منذ ٦ من يونيه سنة ١٨٨١ باسم «التنكيت» فقد كان يقرؤها الخاصة والعامة لخفة روحها ولطف أسلوبها وسهولة لغتها ، وكان فيما يكتبه فيها للعامة يعدل عن الشعر إلى الزجل القريب من متناولهم المحبب إلى قلوبهم ، ومع ذلك فإنه كان في زجله يمزج بين العامية والفصحى . كذلك لانجد ما يدعو للشك في أن الفتى حافظ إبراهيم تدرَّج معها فواصل قراءتها بعد أن صارت لسان الحركة الثورية العرابية تحت اسم جريدة « الطائف » ابتدا من ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ولم تلبث« الطائف » أن اكتسبت منزلة جعلت الصحف

تنقل عنها وإن تكن أقدم منها مثل «الأهرام» و«المحروسة» وغيرهما ، وصارت تُكتب كلها باللغة الفصحى وحدها ، وكان مجلس شورى النواب الذى انعقد أول انعقاده في ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ قد تعرض لأزمة شديدة بسبب ما كان من مطالبة الرقابة الثنائية الأجنبية القائمة على شئون البلاد المالية بعدم حق المجلس في بحث الميزانية باعتبارها من اختصاص الرقابة ، وما كان من وقوف جريدة «الطائف» تناضل مع المجلس دفاعاً شديداً موفقاً حفظه المجلس لها ، حتى إذا تم له الاحتفاظ بحقه أرسل رئيسه محمد باشا سلطان بكتاب في الخامس من مارس سنة ١٨٨٢ يطلب إلى ناظر الداخلية تكليف إدارة المطبوعات بأن تطلب من الإدارات الحكومية الاشتراك في جريدة «الطائف» ليكون موظفوها على اتصال بمجرى الأحداث ، فكان من شأن ذلك أن كانت «الطائف» لا محالة مما يقرؤه في جملة الموظفين محمد أفندى نيازى المهندس خال حافظ وبالتالى حافظ نفسه .

ويظهر تأثر حافظ بأسلوب عبد الله النديم منذ ظهور جريدته الأولى «التنكيت والتبكيت» في اتجاه تفكيره إلى الاجتماعيات في مستأنف حياته الأدبية. ومن الشواهد على ما كان من تأثره بأسلوب تعبيره أنه حين استشعر — بعد بلوغه مبالغ الرجال — أن مقامه بلاعمل في بيت خاله قد بدأ يثقل عليه ، واتفق أن خاله أغلظ له القول مرة في شأن من شئون البيت وزجره ، فاخذته العزة وعافت نفسه أن يعيش تحت هذا السقف يوماً آخر واعتزم أن يهجر البيت ، رأى من واجب الأدب واللياقة أن يترك لخاله إشعاراً فتوخى أن يكون ذلك الإشعار أشعاراً ، فجاءت على هذا النحو الذى يذكرنا روح عبد الله النديم في كتاباته التى من هذا القبيل . وهذا ما قاله حافظ في رسالته الصغيرة ، يخاطب خاله :

ثقُلَتْ عليك مئونتى   وأنا أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهبٌ   متوجهٌ في داهيه

ولقد تعمد حافظ أن يصطنع ما كان يصطنعه أستاذه النديم مع العامة ،



محارب سوداني من الفرسان

لأنه كان يعلم علم اليقين أن خاله سيتلو هذين البيتين على أمه ، فهما رسالة ولدها الذى اعتزم هجره وهجرها ، وقد كان حافظ حريصاً بطبيعة الحال على تفهمها للبيتين وتأثرها بهما ، حتى تلتمس له العذر ، إن لم تذكر له هذه النخوة بالفخر .

ومهما يكن من استفادة حافظ من مطالعاته في صحف القاهرة لما كان يكتبه عبد الله النديم في أثناء الثورة العرابية ، ثم ما كانت تدبجه أقلام جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده فيما كان يقع للفتى من الأعداد الصادرة عن باريس من مجلة العروة الوثقى بين ١٣ من مارس و ٧ من أكتوبر عام ١٨٨٤ ، فضلا عما كانت تنشره جريدة «الأهرام» في ذلك العام وبعده في شأن قضية السودان من انتقاد شديد لسياسة الإنجليز وضغطهم المتواصل على حكومة مصر لإخلاء السودان ، وغير ذلك مما كان ينشره البلغاء عن عيوب المجتمع ووجوه إصلاحه ... نقول مهما يكن من استفادة حافظ من هذه المقالات فانه بحكم ابتعاده الآن عن القاهرة قد انقطع عن الصحف وأمثالها ، واستبدل بها ما كان يقع تحت يده في طنطا من الكتب التى تضمه خزانة خاله : ولعلنا بعد ما رأيناه من ميل خاله إلى الشعر لا نستبعد أن يكون من المتذوقين لرقائق الأشعار عند العرب ، ومن أهل المشاركة في التفقه في اللغة ودراسة الأدب ، ونحن إذا كنا نقول هذا هنا على سبيل الحدس والتخمين ، فإن الذى سوف نورده من خبره بعد قليل فيه اليقين . وعلى كلتا الحالين ، نستطيع القول بأن المهندس محمد أفندى نيازى كانت له مكتبة لا تخلو من بعض المصنفات في الأدب ، وأنه من المرجح أن تحتوى فيما تحتويه على كتاب في الشعر حديث الظهور ، وقتئذ ، وهو كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى الأزهرى أستاذ العلوم العربية في مدرسة دار العلوم ، وهو من جزءين كان صدورهما عام ١٢٨٩ و ١٢٩٦ هـ (١٨٧٢–١٨٧٩ م) جامعاً بين دفتيه طائفة صالحة من أجود الشعر العربى القديم في مختلف صوره مضافاً إليه قصائد لحامل لواء الشعر في زمنه ، رجل السيف والقلم محمود سامى البارودى . للتنويه بها ، وبيان ما على كبير الشعراء المحدثين في فرائد شعره من الدَّيْن للشعراء

الأقدمين أمثال أبي نواس والشريف الرضى وأبي فراس الحمدانى والنابغة الذبيانى الذين عارضهم في الوزن والقافية وفي الطابع العربى ، فأحب الشيخ الأزهرى أستاذه في الشعر أن يشير إلى ذلك ؛ إذ كان الشيخ لا محالة يدين لهم أكثر من أى محدث غيرهم بالقداسة والتعظيم . وأكبر الظن عندنا أن حافظ منذ أن وقع في يده هذا الكتاب ، انكب عليه يعب في مناهله منصرفاً إليه بكل جوارحه ، وأنه قد اكتسب من مطالعته وإعادة النظر فيه ومراجعته ماقويت به ملكة الحفظ عنده أضعافاً ، حتى صار من أسرع الناس حفظاً وأثبتهم حافظة . وقد ساعده في العكوف على هذا الكتاب وغيره من مجاميع الأشعار ودواوين الشعر ما كان يلزم به نفسه في بيت خاله من الانفراد والوحدة لفرط شعوره بالوحشة والحزن المترتبين على اليتم ، فضلا عن فراغ يده من المال الذى يمد لصاحبه في أسباب اللهو . وفي هذه الوحدة كان عكوفه على مطالعة كتب الأدب والاستكثار من حفظ الأشعار ، ويشهد على ذلك ما ذكره الصديق الحميم في طنطا الشيخ النجار عنه إذ يقول : « كان حافظ إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع ، يبادر إلى قبل أن يسمعه إنسان آخر ، ويسمعنى ما أعجبه ، وكان لا يعجبه إلا كل مرقص مطرب » .

والذى لاشك فيه كذلك أن حافظ حين هبط عام ١٨٨٧ في طنطا ، كان في جعبته جملة لا بأس بها من أشعاره ، يُنشدها من انعقدت بينه وبينهم أواصر الصداقة من طلاب معهد طنطا الدينى ، وكان هؤلاء في إعجابهم بشعره ، يعجبون — ومنهم الشيخ النجار — لما في هذا الشعر من لوعة الأسى وبغض الحياة . فقد كان الشاعر لايكف وهو في ميعة صباه ، عن نداء الموت وتكرار دعوته ، متعجلا زورته ونزوله ساحته ، شديد الأسف على أن الله مد في عمره ، متمنيا أن يموت من فوره حتى يستريح مما يعانيه من الهم المقيم ، حين يوسد في قبره . ومما قاله الفتى حافظ في ذلك :

عجبتُ لعُمرى كيف مُدَّ وطالا		وما أثّرتْ فيه الهمومُ زوالا
وللموت ما لى قد أراه مباعداً		وجل مرادى أن أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها		ذليلا وكنت السيد المفضالا

فماذا يا ترى كانت هذه الهموم التى تركت في نفسه كل هذه الكلوم الدامية الداعية إلى إيثار الموت على الحياة ؟ وما هى تلك الذلة التى ضربها عليه الزمن بعد الكرامة والعزة ؟

أتراه يشير هنا إلى وطنه تلميحاً وهو محاذر أن يجهر بالقول تصريحاً ؟ أم هو يتحدث عن حياته الخاصة ، حياة اليتيم الذى مات عنه والده السرى الكريم ؟ .

إن ما أوجزنا ذكره من سيرة الشاعر ، وما أطلنا بيان أمره من حوادث عصره ، يسوغان مقالة من يقول إنه في إشارته إلى الهموم والذلة بعد العزة قد جمع بين الحالين : حاله وحال عصره ، في شعره الذى نظمه في صباه وحداثته ، كما هو الشأن بعد ذلك في شعره إبان نضجه وأيام كهولته .

ولقد كان من معاشرة حافظ أترابه من طلاب المعهد الأحمدى ، وطول مناظرته إياهم في الأدب ، ومطارحتهم الأشعار ، أن عرف في نفسه طلاقة اللسان وحسن البيان في الحوار ، وبراعة التأتى إلى ما يريد ، فاطمأن إلى صلاحه لمزاولة المحاماة .

وكانت المحاماة الأهلية وقتئذ حديثة الوجود ، وليس للمحاماة قانون مسنون ، ولا توجد شهادات حقوقية في طائفة المحامين . ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث ، فكان كل ذى قضية إذا جاء بشخص وقال إنى وكلته ، قبلته المحكمة محامياً عنه .

وكان في طنطا الكثير من المحامين ، فقصد أحدهم وعمل مدة في مكتبه ثم تحول إلى غيزه ثم إلى آخر من بعده . ولا غرابة أن نرى شاعرنا الشاب قد ضاق بالعمل في مكاتب المحامين ، الذين يرهقونه بالتردد في الصباح على المحاكم لاستيفاء الإجراءات ، وتكرار الطلبات بالتماس التأجيل وتقديم أسماء الشهود في القضايا التى سيتولى الدفاع عنها أستاذه

المحامى ، وقيامه هو بالدفاع أمام المحاكم الجزئية القريبة من طنطا في القضايا التى يحيلها الأستاذ عليه ، فإذا انتهى من طوافه على المحاكم كان عليه أن يواظب على الحضور بمكتب الأستاذ في المساء ، ليقوم عنه بمساومة العملاء في الأتعاب ، ومعظمهم من أهل الريف الأميين ، ولكى يعد للأستاذ أعمال الغد ، ويكتب له المسودات التى تعاد إليه بعد المراجعة ليعيد كتابتها في صياغتها النهائية ، فضلا عن استدعاء الأستاذ له في بعض الشئون الخاصة به . وبالجملة لم يكن له سبيل إلى الانصراف من المكتب حتى ينتهى الأستاذ من مقابلاته ومشاوراته ، وربما كان الأستاذ ممن يؤثرون السهر في المكتب على السهر في المقهى أو البيت . ولقد تستدعى مظاهر المهنة أن يتكلف الأستاذ أمام عملائه شيئاً من التعاظم عليه في الخطاب والمعاملة . وياليت الفتى بعد هذا كله يحصل من الأستاذ على ما يساوى سعيه وجهوده ؛ بل إنه ليكون سعيد الحظ إذا حصل آخر الشهر على ما به يسد رمقه ويحفظ عليه ماء وجهه . وحسبنا في تأييد زعمنا أن نذكر هذه الأبيات التى تركها شاعرنا للأستاذ محمد الشيمى المحامى حين ترك مكتبه بطنطا وهو أول عهده بمكاتب المحامين في ذلك الحين . قال شاعرنا :

جراب حظى قد أفرغته طمعاً ... بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا
فعاد لى وهو مملوء ، فقلت له ... مِمَّ ؟ فقال «من الحسرات واحربا»

وقد أسف الأستاذ الشيمى لانفصاله عنه ، وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل معه في مكتبه ، فلم يقبل .

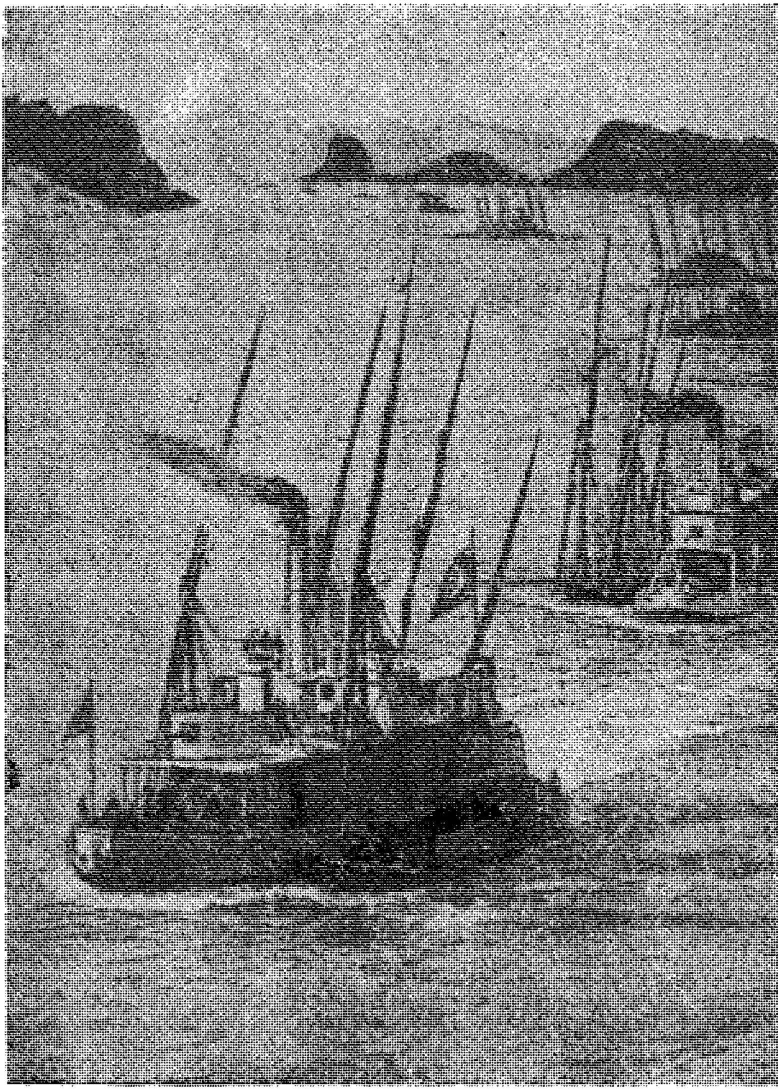
ولعل شاعرنا صار إلى حال خير من هذه الحال من الناحية النفسية على الأقل ، حين تحول إلى مكتب آخر في طنطا هو مكتب الأديب الأستاذ محمد أبو شادى ، لما كان يجمع بينهما من حب للأدب ، فكانا في ساعات الفراغ يتسامران فيتذاكران رسائل الأدب المأثورة ونوادر العرب المستملحة وأشعارهم المشهورة . ولكن ذلك لم يمنع من خروج شاعرنا من مكتبه . وبعدها عمل الشاعر مدة من الزمن مع الأستاذ عبد الكريم فهيم المحامى ، وكان مكتبه مجاوراً لمكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوى ، وكان الهلباوى يأنس

بحافظ ويسر بحديثه وأدبه ، وكان الفتى كثير التردد عليه . وأخيراً ضاق حافظ بمكاتب المحامين جميعاً ، وترك مهنتهم إلى غير رجعة .

وأكبر الظن أن هذه التجربة نبهت عند حافظ الاعتقاد السائد وقتئذ من اعتبار العمل الحر غير خليق بالاعتماد عليه : فاتجه أمله إلى العمل الحكومى لما له من الثبات والاستقرار ، وما هو مكفول فيه من ضمان الحقوق .

ولقد كان حافظ يعلم ولا ريب أن المدرسة الحربية – كما هو العهد بها حتى اليوم – هى الوحيدة التى يجتازها الطالب إلى مكانه في وظائف الجيش على الفور ، دون أن يبقى يوماً واحداً معلقاً في انتظار التعيين .

فهل سيأتى في القريب ، ذلك اليوم الذى نرى فيه شاعرنا الأديب الأريب ، السارح الفكر الرقيق القلب ، ضابطاً من رجال الحرب ؟



أسطول البواخر النيلية المسلحة في الحملة السودانية

الوطن فى خطر

الشاعر والحياة العسكرية

كان المهدى بعد انتصاره الحاسم في السودان قد أرسل من عاصمة دولته في أم درمان ، إلى سكان مصر حكاماً وتجاراً وعمداً وغيرهم من أهل هذه البلاد ، منشورات يبلغهم عزمه على غزو مصر ، كما بعث إلى خديوى مصر كتاباً بهذا المعنى . ولكن الله لم يمد في أجله ليتم ذلك على يده ، فأصبح أمر هذا الغزو في ذمة خليفته «عبد الله التعايشى» الذى استبد بالأمر من بعده . وكان أول هم الخليفة بعد مبايعته ، أن عزل بعض قواد سلفه ، وأخذ يجرد زميليه أيام المهدى ، وهما الخليفة شريف والخليفة ولد الحلو ، من سلطتهما ، وأقام أقاربه التعايشية في المناصب الكبرى ، وما إلى ذلك مما قوض ما كان سائداً أيام المهدى من الوفاق ، فحل مكانه الخلاف والشقاق ، وما وراءهما من عواقب وخيمة .

ولم يمض القليل على خلافة التعايشى حتى وجه اهتمامه إلى فتح مصر ، فكاتب رؤساء القبائل والعشائر في الصعيد يستنفرهم إلى معاضدته والاشتراك معه .

وكانت الجنود الإنجليزية المشتركة في حماية الحدود قد انسحبت ، واضطلع الجيش المصرى الجديد بقيادة سرداره جرنفيل باشا بهذا العبء وحده . وبدأت شراذم من قوات التعايشى في شمال السودان ، بالدخول في مناوشات لتمزيق شمل الحاميات المصرية قبلى وادى حلفا ، حيث خربوا السكة الحديدية بين عكاشة وسرس وعبكة في نوفمبر سنة ١٨٨٥ ، وعلى أثرها احتلوا سرس . وفي ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٠٦ (٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٨٨) عهد التعايشى مهمة غزو البلاد المصرية إلى قائد القوات ،

عبد الرحمن ولد النجومي المشهور ، وعقد عليه لواء جيش عرموم كبيز ليقود المؤمنين إلى مصر حتى يبلغ القاهرة فيرفع الراية المهدية على قلعتها ، وحدد لذلك صيف عام ١٨٨٩ . وفي رمضان عام ١٣٠٦ ه تقدم قائد الدراويش عبد الله النجومي بجيش يبلغ نحو ١٥٠٠٠ مقاتل بالبنادق والحراب ومعهم أربعة عشر مدفعاً ، فأخذوا في الزحف حتى كشفوا وادى حلفا ثم تجاوزوها حتى بلغوا قبالة البلينا جنوبى هيكل أبو سنبل . واحتشدت لمواجهتهم القوات المصرية بقيادة السردار جرنفيل باشا شمالى حلفا ، من أسوان إلى توشكى ، وكان من رؤسائها بعض الضباط الإنجليز ، منهم : « كتشنر » و « ونجت » . ونشبت المعركة بين الجيشين في ١٣ من أغسطس عند توشكى (بين كورسكو وحلفا) ، فانتصر الجيش المصرى ولم ينج من جيش الدراويش إلا ٣٠٠ وكان من القتلى قائدهم الأكبر عبد الله النجومى . وقد أظهرت هذه الواقعة بأجلى بيان مقدرة المصريين ضباطاً وجنوداً وحسن بلائهم في القتال .

وكانت المناوشات التى بدأت على الحدود في أواخر ١٨٨٥ بمثابة النذير باقتراب الخطر فشرعت مصر في أخذ الأهبة والاستعداد لمواجهة العدو ، وقد شمل هذا الاستعداد أن أعيد في عام ١٨٨٧ تنظيم المدرسة الحربية التى كان ناظرها اللواء « لارمى باشا » الفرنسى ، فجُعلت الدراسة فيها نوعين : دروساً مشتركة لجميع التلاميذ ، ودروساً للتخصص على حسب الأقسام ، مع زيادة عدد من يقبلون في المدرسة إلى بضعة وتسعين . وبمناسبة هذا التنظيم — أو بحجته — عين إلى جانب ناظرها الفرنسى قومندان إنجليزى ، ثم أضيف إلى القومندان الإنجليزى في سنة ١٨٨٩ معلم أول إنجليزى . وكان من أغراض هذه التعيينات تجريد الناظر الفرنسى من سلطته ، إذ كانت التعليمات الصادرة من السردار تقضى بجعل إدارة المدرسة من اختصاص القومندان ، كما تقضى بأن يكون وضع البرامج من اختصاص المعلم الأول . وفي ظل هذا النظام أخذت الزيادة تطرد عاماً بعد عام في عدد من يُسمح لهم بدخول المدرسة الحربية ، وظاهر من كلام

حافظ فيما بعد ، في كتابه ليالي سطيح أن زيادة الكم كان على حساب الكيف . وفي ذلك يقول حافظ على لسان بعض شخصياته :

« وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية . ولولم أكن متخرجاً في المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال . ولكنى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجهل شخص ينادى فوق هامته لا تسأل الربع ، ما في الربع من أحد

ولكن ، انىّ لحافظ علمُ ذلك في صباه وقبل التجربة ؟ ان كل ما يعلمه وقتئذ هو أن الوطن فى خطر .

ولا شك في أن المدرسة الحربية كانت تنشر في الصحف أنواع الدعاية من حيث التجاوز عن شرط السن والمؤهلات في إعلانها عن موعد تقديم الطلبات لدخولها ، يضاف إلى ذلك ما هو معلوم من تعيين جميع الحربيين على الفور في وظائف دائمة في نظارتى الحربية والداخلية . فلا غرو أمام كل هذه التسهيلات الجديدة ، فضلا عن الإغراء بضمان الرزق الموفور ، والأمل في الترقي السريع ، أن نرى شاعرنا الشاب حافظ ابراهيم في الظروف التى كان يعانيها تساوره فكرة طارئة عليه هى اللحاق بالمدرسة الحربية .

بيد أننا لا بد أن نضيف إلى دواعى الإغراء عند حافظ بدخول المدرسة الحربية ، تعلقه وإعجابه بشخصية محمود سامى البارودى باشا الذى جمع بين السيف والقلم . فإن حافظ ولاشك قد قرأ في كتاب « الوسيلة الأدبية » قصيدتى البارودى في وصف الحرب التى اشترك فيها ضد أهل جزيرة إقريطش المعروفة الآن بجزيرة كريت ، حين خرجوا عن طاعة الدولة العلية سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ثم قصيدته في الحرب الأخرى بين الدولة العلية وروسيا ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) ، ثم قول المؤلف الشيخ حسين المرصفى في تقديمه للقصيدتين : « وقد باشر هذا الأمير الحرب مرتين بصدق وشهامة وعلو همة ، حتى أن الناس كانوا يتعجبون — كما أخبرنى من حضره في تلك المواطن — من خشونة بأسه ، على ترف نشأته ولطف حسه » ولقد كان من جمع البارودى بين السيف والقلم أن صار مأموراً للضبطية في



باخرة نيلية حربية فى الأسطول المصري يشدها الجنود المصريون لاجتياز الشلال الثاني

عهد إسماعيل ، ثم ناظراً للأوقاف في عهد توفيق في نظارة رياض باشا الأولى في ١١ من سبتمبر ١٨٧٩ ، ثم ناظراً للأوقاف والجهادية معاً ، وأخيراً ناظر النظار من ٤ فبراير إلى ٢٦ من مايو سنة ١٨٨٢ جامعاً أعلى الرتب في دولة الحكم ودولة الأدب . وإذا كان البارودى قد نفى بعد ذلك على أثر الثورة العرابية ، فإن وجود هذه الشخصية النموذجية في المنفى يومئذ لم يكن مثبطاً لحافظ ، فقد كان هذا المنقلب راجعاً إلى دواع أخر ليس من المحتم التعرض لها وتكرر وقوعها .

وهكذا صار دخول المدرسة الحربية عند حافظ منتهى ما يتمناه . وقد شاء له سوء حظه أن تحقق أمنيته ، فرحل إلى القاهرة وتقدم مع سائر المتقدمين إلى العرض أمام الممتحنين . وما نظن الممتحنين ترددوا في قبوله ، أو كان بينهم أدنى الخلاف في صلاحه . فقد كان حافظ وافي النماء ، طويل القامة ، عظيم الهامة ، وكان وقتئذ في عنفوان الشباب ، قوى البنية ، وثيق التركيب ، عريض المنكبين ، غليظ الألواح ، متين العضل ، فلا عجب أن بدا لهم من رجال الصراع ومساعير الحرب ، فقرروا باجتماع الرأى قبوله في المدفعية . ولو علموا الغيب لانكشف لهم أن صاحبهم الماثل أمامهم لم يكتب له وهوالمتخرج في المدرسة الحربية أن يشهد في حياته معركة حربية واحدة . لقد ظل حافظ نزوعا بطبعه ومنصرفاً بقلبه وجوارحه إلى فنون السلم من تعلق بالجمال وحب للقراءة وممارسة للأدب .

وفي أعقاب رحيل حافظ إلى القاهرة ودخوله المدرسة الحربية ، حدث ما أدى إلى مقاضاة خاله المهندس محمد أفندى نيازى أمام محكمة طنطا الأهلية ، وصدر الحكم عليه بالحبس سنتين . فانفطر قلب حافظ له ولمصير أمه ، وتعاظمته النكبة في خاله ، فعمد إلى نظم قصيدة رفعها للخديوى توفيق يعرض فيها وصف حاله ويستعطفه على خاله ، ومصير عياله من بعده ، وليس لهم من عائل غيره . وقد شاء القدر أن تحوز قصيدة الضابط التلميذ قبولا عند الخديوى توفيق ، فأصدر عفوه عن خاله . ولايقف الراوى ، وهو الشيخ عبد الوهاب النجار ، معاصرحافظ في طنطا والطالب وقتئذ في المعهد الأحمدى – عند هذا الخبر ، بل يذكر أن العفو

عن خال حافظ أعقبه أن عين مدرساً خاصاً للأمراء أحمد سيف الدين ومحمد إبراهيم وشويكار هانم ، ولما انتهى عهد التدريس لهم بقى المدرس على عادته يستولى على مرتبه حتى وفاته .

وفي أثناء ذلك ، كان حافظ في القاهرة قد أتم دراسته في المدرسة الحربية وتخرج في أواخر عهد الخديوى توفيق عام ١٨٩١ ، وكانت تعيينه في وزارة الحربية « ملازماً ثانياً » من ١٣ فبراير سنة ١٨٩١ إلى ٣١ يوليه سنة ١٨٩٣ أى في أوائل عهد الخديوى عباس الثانى ، ثم كانت ترقيته «ملازماً أول» في أول أغسطس سنة ١٨٩٣ ، واستمر في وزارة الحربية حتى ٦ مايو سنة ١٨٩٤ .

وكان الخديوى توفيق قبل وفاته ، قد بُذلت لديه المساعى في أواخر عام ١٨٨٨ للسماح بعودة الشيخ محمد عبده من منفاه إلى الديار المصرية ، فعاد إلى مصر وعين قاضيا بالمحاكم الأهلية في بنها وفي الزقازيق ، وأخيراً في القاهرة بمحكمة عابدين ، وبعدها قاضياً بمحكمة الاستئناف . وأكبر الظن عندنا أن الضابط الأديب الشاعر حافظ إبراهيم كان قد بدأ منذ أوائل عام ١٨٩٣ اتصاله به وشهوده لمجلسه ، وعرض أشعاره عليه ، والإفادة من إرشاداته وتوجيهه ، فيما هو في حقيقة الأمر مؤهل له ، وهو الاشتغال بالأدب ونظم الشعر ، لولا ما كان عليه من قصور اليد وقلة الرزق وضيق الحال .

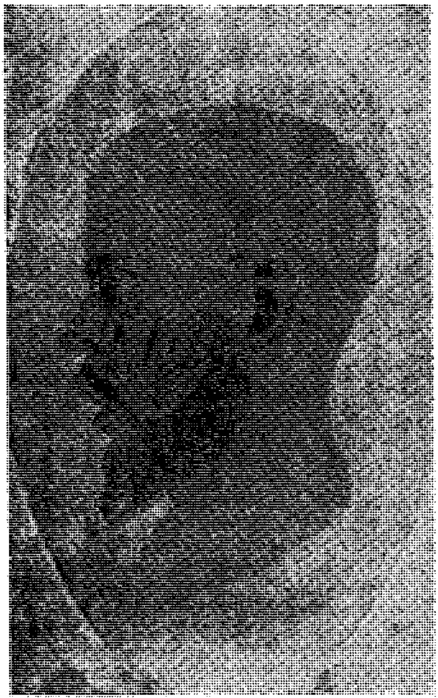
وقد كان سردار الجيش المصرى وقتذاك « فرنسيس جرنفيل » ، ثم خلفه على الجيش « هربرت كتشنر » في ١٢ من إبريل سنة ١٨٩٢ ، فلم يمض عليه في منصب السردار عامان وبضعة أيام ، حتى كان حافظ إبراهيم ضابط المدفعية قد أبعد عن الحربية إلى الداخلية ملاحظ بوليس لمركز بنى سويف من ٧ مايو سنة ١٨٩٤ لغاية ٢٣ مارس سنة ١٨٩٥ ، ثم معاون بوليس في مركز الإبراهيمية من ٢٤ مارس سنة ١٨٩٥ لغاية ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٥ . وأخيراً أحيل حافظ إبراهيم إلى الاستيداع حيث خفض مرتبه في الاستيداع إلى أربعة جنيهات في الشهر ، فعادت به الحال إلى ما كان يعانيه قبلُ من شظف العيش .

حافظ فى الحملة المصرية الانجليزية

الى السودان

كان محمد حافظ إبراهيم منذ الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٨٩٥ في الاستيداع يعانى شظف العيش بالمرتب الذى يُجرَى عليه وهو أربعة جنيهات في الشهر ، ومر الشهر بعد الشهر وهو قعيد بيته ، حتى فوجئ في القاهرة بين عشية وضحاها بخبر مثير ، ولم يكن وجه الإثارة فيه عدم توقعه أو غرابته ، بل كانت إثارته في سرعة حلول ساعته قبل المقدر لها ؛ لما كان من انصراف الحكومة المصرية وقتئذ إلى مشروع عظيم من مشاريع الرى كانت تدخر له المال ، وهو إقامة خزان عظيم على النيل عند أسوان. أما استرجاع السودان فقد كان التفكير فيه يعتبر — كما قلنا — سابقاً للأوان ، وإن كان متوقعاً منذ أن أرسل ملك الحبشة «منليك» منشوراً للدول في إبريل سنة ١٨٩١ يخبرهم فيه عزمه على فتح السودان ، مما أثار في ذلك الحين مخاوف إنجلترا ، ثم زاد هذه المخاوف تسابق الدول الأوروبية في التهام ما تصل إليه يدها من أطراف السودان بعد الذى كان من تخلى مصر عنه ، نزولاً على إرادة الإنجليز وتصميمهم منذ أعوام .

وبعد انقضاء أكثر من عشرة أعوام على التخلى عن السودان ، إذا برقية عاجلة من الحكومة البريطانية ترد على القاهرة يوم ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ في منتصف الليل موجهة إلى « كتشنر » السردار الإنجليزى بالجيش المصرى . فبادروا الى أركان حربه « الكولونيل روندل Rundle » الذى كان مستغرقاً في النوم حتى اضطروا إلى حصب نافذته بالحجارة لإيقاظه ، ولكنه لم يؤت الشجاعة لا هو ولا غيره على إيقاظ السردار وإبلاغه . فبقى السردار غير عالم بفحوى البرقية حتى الصباح . وكانت البرقية تحمل أمراً للسردار الإنجليزى للجيش المصرى بتسيير حملة على وجه الاستعجال لإعادة فتح السودان . ومما هو



القائد السوداني الكبير عبد الرحمن النجومي

جدير بالتنبيه إليه أن هذه البرقية وردت على أثر كارثة الطليان في « عدوه » من جراء الهزيمة الساحقة المخزية التى أنزلها بهم الأحباش منذ اثنى عشر يوماً فكانت بمثابة ناقوس الخطر الذى ينذر بوشك سد الطريق دون أى تدخل أجنبي – ومن قبيله التدخل الإنجليزى الاستعمارى – في القارة السوداء .

وقبل أن يطلع الصباح كانت الأوامر قد صدرت لقائد قوة الحدود في وادى حلفا الكولونيل « هنتر Hunter » بالزحف لاحتلال عكاشة قبلي وادى حلفا تمهيداً للاستيلاء على دنقلة عاصمة المديرية التى تحمل هذا الاسم . ولم يصل قرار الوزارة الإنجليزية إلى رئيس وزراء مصر إلا بعد ظهر ١٣ مارس ، ولم يصل لمسامع الخديو إلا مساء ذلك اليوم .

وصدرت الأوامر بحشد كل ما يمكن حشده على الفور من فرق الجيش ، واستدعاء كل من في الاستيداع من الضباط ، وترحيل الجميع إلى وادى حلفا للاشتراك في الحملة الزاحفة . وكان محمد حافظ إبراهيم من ضباط الاستيداع الذين استدعتهم وزارة الحربية ، ولكنها – لسبب لا نعرفه ، وإن كان الذى نرجحه أنه كان غير مرضى عنه ، وربما غير مُطْمأنٍّ إليه – لم تلحقه بالجيش المقاتل الذى كان معظم ضباطه من الإنجليز ، بل كان إلحاقه بإدارة التعيينات في ١٨ مارس سنة ١٨٩٦ ، وكانت التعيينات في إدارة الجيش تحت رياسة الميرالاى رجروس بك والقائمقام دراك بك والبكباشى بلنت .

وغادر « السردار كتشنر باشا » القاهرة في يوم الأحد الثانى والعشرين من مارس ، ومعه « الماجور ونجت » مدير المخابرات و« سلاتين باشا » قاصدين إلى أسوان ، ومنها إلى وادى حلفا وفي اليوم نفسه سافرت في قطارين الأورطة الأولى الإنجليزية من آلاى شمال ستافورد شاير ، وقد بلغ عدد من سمح الكشف الطبي بسفرهم ٩١٤ باستبعاد عشرة في الماية منهم ، كما بادرت بالسفر مختلف الأورط المصرية إلى أعالى النيل في أقصى ما يستطاع من السرعة . ولما كانت خطوط السكة الحديدية من القاهرة تنتهى عند البلينا في أقصى مديرية جرجا ، فقد صار نقل معظم الجنود والعتاد والزاد

على بواخر شركة كوك التى استولت عليها الحكومة ، بعد أن تجردت من زينتها وما كان فيها من أسباب الراحة والترف . وقد بلغ عدد من نقلتهم تلك البواخر في المدة بين ٢١ و٢٦ من مارس مالا يقل عن ٤٥٠٠٠ وكان لا محالة من بينهم ضائعاً في زحمتهم الملازم الأول حافظ إبراهيم ، فضلا على ٧٥٠ رأساً من الحيوان وكميات ضخمة من المئونة . وكان يقوم على مستودعات المئونة فصيلة من حرس « كونوت Connaught » مركزها في الشلال ، وهي - كما ذكرنا - نهاية الخط الحديدى وبداية السفر النيلي بالبواخر. وما كادت الباخرة التى أقلت حافظ إبراهيم والحشود التى معه تبلغ أسوان ، حتى أنزلت ما عليها من الرجال والأثقال ، ليحملها قطار السكة الحديدية إلى بلدة الشلال القائمة عند النيل على رأس الشلال الأول ، حيث نقلتهم البواخر إلى وادى حلفا .

وكان الجيش المصرى موكولاً امره إلى السردار كتشنر منذ ١٢ من إبريل سنة ١٨٩٢ . وكانت الحملة المصرية الموجهة إلى السودان والمعروفة في أول أمرها بحملة دنقلة تتألف من نحو ١٨٠٠٠ ، ويمكن تفصيلها على الوجه الآتى : آلاى من السوارى عدده ١٢٥٣ ، وآلاى من الطوبجية يشمل ٩٥٣ جندياً ، و١٨ مدفعاً ، وآلاى من الهجانة المصرية والسودانية عدده ٦١٨ رجلاً ثم ثلاث عشرة أورط بيادة ، منها ثمان أورط مصرية ، وهى التى ألفت بعد تسريح الجيش المصرى على أثر هزيمة عرابى ، وكان تأليفها من أبناء الفلاحين المصريين المجندين مدة الخدمة العسكرية الإلزامية ، وخمس أورط من السودانيين السود الذين تقدموا للخدمة العسكرية مدى الحياة . وكانت أورط المصريين الفلاحين من رقم (١) إلى رقم (٤) ضباطها إنجليز من رتبة كولونيل أوماجور ، وأما التى أرقامها من (٥) إلى (٨) فكان ضباطها مصريين . وكانت الأورطة السودانية من رقم (٩) إلى (١٣) ضباطها إنجليز . وأخيراً أورط الاحتياطى يقوم عليها ضباط مصريون وإنجليز . وبالجملة لم يكن يربو عدد الضباط الإنجليز على الثمانين ، وإذا انضم اليهم الوافدون في مهمات خاصة بلغ هذا العدد إلى المائة والعشرين .

ولاشك في أن الإدارة العامة لهذا الجيش ، الموكولة إلى كتشنر في حرب كهذه ضد أولئك الدراويش أنفسهم الذين سبق لهم الانتصار ، وفي الأقطار السودانية نفسها التى يبلغ بعد شقتها عن القاهرة عشرات المئات من الأميال فيها الكثير من الصحارى المقفرة والفيافي القاحلة فضلاً على الغابات والأدغال ، هى ولا شك إدارة شاقة غير يسيرة تلقى على كاهل صاحبها عبئاً ثقيلاً من المهام الجسام والتبعات الخطيرة . ولا يخفى أن إدارة الجيش العامة التى يتولاها كتشنر كانت يندرج تحتها فيمايندرج من الفروع ، إدارة التعيينات التى كان من ضباطها الموظفين صاحبنا حافظ إبراهيم . ومن ثمة يمكن القول إن كتشنر كان لا محالة كثير الاحتكاك بهؤلاء الضباط في بداية الحملة حيث يجرى إعداد العدة لحشد ما يلزم من العمال والمساعدين في عمليات التفريغ والشحن لمهمات الجيش وأصناف التموين ، في وادى حلفا :

ولما كان كتشنر من الضباط المهندسين ، وقد خبر بنفسه في المعارك التى اشترك فيها تحت قيادة السردارالسابق السير جرنفيل ، مبلغ الحاجة إلى التغلب على مصاعب المواصلات في الحروب السودانية ، نظراً لتباعد أقطارها وشاسع فضائها وقحولة قفارها وخطر أدغالها ، مع ما كان عليه الدراويش من السرعة المدهشة في تحركاتهم والشجاعة النادرة في قتالهم . فهو لم يكن مؤمناً بتلك الحملات من الفرق الهندية أو الإنجليزية التى يحاط إيفادها بالضجة والصخب والتى تطارد العدو كما يفعل الصيادون في الصحارى والغابات ثم تعود أدراجها لتعاود المطاردة بعد شهور . وإنما كان همه — على خلاف ذلك — هو أن ينظم ضد الدراويش حرباً بطيئة متئدة ، ولكنها شديدة متصلة ، وأن يكون كل اعتماده فيها على الموارد المصرية ، وأن ينهج منهج الرومان في مد الطرقات ليكون على اتصال مستمر بقاعدة التحركات ، ليضمن وصول المئونة والذخيرة والمواد الطبية والأمداد العسكرية :

فلا عجب إذن أن رأينا همه الأول منصرفاً إلى بناء السكك الحديدية على طول النيل في اتجاه الخرطوم . ولقد كانت هذه الفكرة متسلطة على كتشنر حتى كأنما كان يتمثل له على الدوام خيال مصرع غوردون في الخرطوم من جراء تأخر الحملة الموفدة لإنقاذه لسوء المواصلات . فهذا هوكتشنر ، لم يكد يصل إلى وادى حلفا ، حتى أمر بتأليف فرقة لأنشاء السكك الحديدية ، وجمع كل من استطاع جمعه من الفلاحين للقيام بما يلزم من العمل اليدوى والجهد البدنى ، حتى بلغت عدتهم بضع مئات ، وكان لا بد من تعليمهم وضع العوارض الخشبية ووصل القضبان بالمسامير الكبار «الصواميل» .

ولم يقنع كتشنر بكل هؤلاء ، بل عمد إلى تكليف فرق من عساكر الجيش المصريين للمعاونة في الأعمال اللازمة للسكك الحديدية ، فكانوا على ذلك أكبر معين . ومن شهود العيان على ذلك حافظ إبراهيم الذى كان وقتئذ مع الحملة في وادى حلفا وما يقع قبليها ، مثل عكاشة وما يليها : فقد أشار حافظ في « ليالى سطيح » إلى عظم هذا العون الذى اضطلع به الجند المصريون وما تحملوه في سبيله من المشاق قائلا :

« لقدلبثتُ في الجيش مع من فيه بضع سنين ، فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سخروا لبناء الأهرام وإقامة البرابى . وما باتت الإنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان ، كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الإنجليز ، نعم ؛ ولا لاقى جيش الإسكندر في فتوحاته ولا جيش نابليون في غزواته بعض مالاقته هذه الفئة المصرية في الأقطار السودانية . فلو حاول الإنجليز وصل الكرة الأرضية بإحدى الكواكب السيارات بمد السكك الحديدية ، لما وجدوا من يصابرهم على هذا العمل غير ذلك الجيش ».

وكان من المناظر التى اعتاد أن يراها الراءون ، منظرالسردار على ظهر جمل يتابع العمل في مد هذه السكك الحديدية من وادى حلفا إلى عكاشة ،

وهى الطريق المؤدية إلى دنقلة التى كانت هدف الحملة ، وأولى المراحل في استرجاع السودان .

وما من شك فى أن حافظ إبراهيم كان ممن تكرر على ناظرهم منظر السردار ، وهو راكب على ظهر الجمل ، يراقب مد هذه الخطوط الحديدية ، فإن شاعرنا مؤلف «ليالى سطيح» لم يفته وهو يعدد أوصاف كتشنر أن يقول : «وواصلُ أعصاب الفيافي والقفار بأعصاب المدائن والأمصار» .



قائد الدراويش الأمير محمود أسيراً وفى رجليه القيود

في وادى حلفا

لا أحسبنا في حاجة إلى القول بأن «حافظ» قد لاقي العنت والويل منذ اللحظة الأولى التي استقل فيها القطار من القاهرة ، فقد كانت عرباته مكتظة بالأكداس المكدسة من الجنود المسافرين . ولعل القطار قد تحرك في ساعة متأخرة من المساء فقضى حافظ الليلة يحاول النوم بين غطيط من حوله وشخيرهم ، ولما أصبح الصباح انتهز وقفة القطار عند محطة من المحطات ليغسل وجهه من الخرطوم القائم على الرصيف لملء خزان القاطرة كغيره من المسافرين ، ثم استأنف القطار المسير حتى بلغ « البلينا » بعد رحلة لاتقل مدتها عن العشرين ساعة . وكانت تنتظرهم في « البلينا » بواخر نيلية من ذات الدواليب الدائرة بالبخار في جانبها ، وتجر كل باخرة خلفها مركباً تشحن فيه العجول والمئونة والذخيرة وسائر المخزونات من المهمات ، وهذه البواخر النيلية كان لابد أن تحمل من الجنود المسافرين أضعاف ما كانت تحمله وقت السلم من السياح المترفين . ولما كان النيل وقتئذ منخفضاً . فقد كان مساعدو القبطان « الريس » يسبرون أعماقه كل حين . وقد شاهد حافظ بعد يومين أو ثلاثة من سفره في النيل معبد الأقصر قريباً من الشاطىء . ولو أنه كان في هذا السفر غير مُعْجل لكان ولا شك ماضياً إلى الكرنك لمشاهدة معبد آمون مستوحياً قصيدة في الآثار يصف فيها قاعة الأعمدة بأنها تبدو بما فيها من العُمُد التي تزيد على المائة والثلاثين كأنها غابة شجراء من الصخر . وقد يطيب له كذلك أن يزور الشاطىء الغربي حيث مقابر الملوك وتمثالا ممنون . ولكن حافظ لم يكن هنا في نزهة ترفيهية ليرى هذه الآثار وما يليها على طول النيل ، بل كان ومن معه مدعوين على استعجال إلى حيث تنتظرهم الأعمال المنوطة بهم في الحملة العسكرية ، وأخيراً بعد

أسبوع من قيامهم من القاهرة ، بلغت بهم الباخرة أسوان ، على رأس الشلال الأول الذى تعترض جنادله الملاحة في النيل .

وهنا أنزلت الباخرة من عليها من الضباط والجنود ، وتم تفريغ المركب المقطورة الملحقة بها من شحنتها . وقام بهذه الشحنة قطار من قطر السكة الضيقة ألحقت به عربات لنقل البضائع ، بينما سار الجنود والضباط على البر في محاذاة النهر أربع ساعات من أسوان إلى بلدة الشلال المشرفة على جزيرة « فيلة الصغيرة » وقد انحسر النيل عنها فتراءى معبدها الجميل .

وفي بلدة الشلال ، استقل الجنود والضباط ومعهم حافظ بواخر نيلية أخرى ، دواليبها الدائرة بالبخار في المؤخرة ، وعلى كل من جانبيها صندل كبير ذو طابقين مشدود إليها ، وقد جعل الصندلان للجنود وباطنهما للمخزونات ، وخصصت الباخرة نفسها للضباط والأمتعة. فلما استقر كل شيء في موضعه وأخذ الركاب أماكنهم ، تحركت الباخرة وعلى جانبيها الصندلان في النيل - وقد اتسع مجراه وتعكر بالطين ماؤه - مخترقة النوبة القاحلة الشاسعة ، مارة بالدر ، ثم قفار كورسكو على رأس طريق للقوافل ، ثم من بعدها تراءت واجهة معبد أبي سنبل بتماثيله الأربعة الجسام ، وفي وسطها الباب المؤدى إلى المعبد الغائر تحت الأرض . وأخيراً في اليوم العاشر للرحلة ألقت الباخرة مراسيها في وادى حلفا ، وهى الحد الآخر الفاصل بين مصر والسودان .

وكانت حلفا في هذا الأسبوع الأول من أبريل عام ١٨٩٦ محط الرحال ، لما يرد عليها كل يوم من القوات المصرية والإنجليزية من المشاة والفرسان والمدفعية فضلا على عتاد الذخيرة ومختزن الزاد والمئونة .

وهنا نزل حافظ إبراهيم وقد نالت منه مشاق الرحلة وكانت بلدة وادى حلفا مكونة في الواقع من قريتين : التوفيقية ، وحلفا ، والقادم على وادى حلفا يطالعه أول مايطالعه مئذنة بيضاء هى مئذنة جامع التوفيقية ، وهذه

القرية هى الوحيدة في النوبة التى فيها بعض حوانيت ومتاجر ، ومعظم الحوانيت في الشارع الرئيسى أصحابها من الأروام . أما قرية حلفا فهى تتألف من بيوت صغار كالأكواخ من الطين يبلغ عددها نحو العشرين ، وسط خمائل كثيفة من النخيل ، وبضعة فدادين من نبات الحلفا الذى أعار اسمه للإقليم كله . وتقع الخطوط المخصصة للقوات فيما بين القريتين : الحلفا والتوفيقية ، وتبلغ مسيرتها عشر دقائق . والشوارع هنا أرضها رمل كأرض الصحراء سواء بسواء ، وليس في وادى حلفا وسائل نقل ذات عجلات ، وكل مافيها للركوب هو الحمير والهجان في بعض الأحيان . وفيما عدا المستشفى لايوجد مبنى يرتفع إلى أكثر من طابق أو نوافذ تزهو بألواح الزجاج ، وكل ماهنالك هو الرّواق المستطيل المظلل حول كل مجموعة من المبانى . وكانت وادى حلفا كلها في ذلك الوقت عبارة عن معسكر كبير ، مبنى من الطين ، تدور حوله الأسوار وتقوم الطوابى عند أطرافها المشرفة على النيل . والمبنى الرئيسى في هذا المعسكر هو مبنى القيادة العليا المطل على النيل ، وهو مركز السردار كتشنر ومكاتبه وأركان حربه ، وقسم المخابرات الذى يديره الماجور ونجت ، مع مكتب سلاطين باشا ومساعده الأول . وفيما يلى محطة السكة الحديدية تقوم الورش وهى لا تكاد تخلو يوماً من قطار في حاجة إلى إصلاح .

وكانت حلفا في تلك الأيام تشبه خلية نحل هائلة ، من كثرة الساعين ذهاباً وإياباً بين البواخر النيلية وقطارات السكة الحديدية ، حاملين الذخائر والمؤن . وكان الغالب على هذه الشحن غرارات القمح ، وقطع القضبان وأجزاء القطارات يحملها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من المساجين أو الجنود أنفسهم . وكان مشهد المصريين وهم يعملون تحت الشمس المحرقة مما يملأ النفس بالإعجاب والثقة . ومما يذكر عن حلفا كذلك أنها كانت المركز الرئيسى لفرق الهجانة المصرية والسودانية فقد كانت فرق الهجانة تبذل لقسم النقل أكبر العون .

أما الحياة فكانت قاسية جداً على الذين لم يتعودوا شدة الحرارة ، وخاصة في الصيف فلم يكن أحد يطيقها بين الساعة العاشرة قبل الظهر والخامسة بعده حيث كانت الأرض رمضاء ، والهواء مثل ألسنة اللهب . وإذا ذكرنا بيوت الطين وجب علينا أن نذكر أن غرفها كانت أرضها تراباً ، وأن نوافذها لم تعرف قط زجاجاً ، وكان يترتب على ذلك وجوب اختيار أحد الأمرين : إما فتح النوافذ والتعرض لمهابّ الريح الساخنة الرملية ، أو إغلاقها وإشعال مصباح البترول واحتمال حرارته ودخانه . أما أثاث البيت فكان لايتعدى السرير وهو لا يعدو ما هو معروف بالعنجريب . وكان هنالك كالأثاث في البيت كل أصناف الحشرات والهوام من الخنافس والعقارب فضلاً على الفيران .

هنا عانى حافظ إبراهيم حياته التى شكا منها في رسائله إلى إخوانه وندمانه في القاهرة وهى لا محالة رسائل كثيرة ، وإن لم يصل إلينا منها إلا القليل الذى احتفل بتنميقه . فقد كان حافظ كلما انفسح له فراغ الوقت تحرّى أن تكون رسائله في الشكوى شعراً كانت أو نثراً مفرغة في القالب الفنى والرونق الطلى .

ويا ليت الأمر وقف بصاحبنا حافظ عند هذه الحياة المنزلية التعسة الشقية في وادى حلفا أو بينها وبين عكاشة في قبليها ، بل زاد على ذلك أن كان العمل مرهقاً متصلاً يشق عليه ، ولا يدع له وقتاً لراحة بدنه ، واستجمام ذهنه والترويح عن نفسه .

حافظ و كتشنر

هنا قبلى وادى حلفا ، كان محمد حافظ إبراهيم ، الملازم الأول في إدارة التعيينات الخاصة بالجيش المصرى ، وسط دوامة لاقبل له بها ، لكثرة من كانوا يعينون في أعمال التفريغ والشحن ، ومد السكة الحديدية تحت اشراف المهندسين «نيكور بك Nicour » والكابتن «جيروار Girouard » ، والكثير من الأعمال الأخر ، وهي جميعاً بالغة الأهمية عند كتشنر ، وتجرى تحت ملاحظته وقيد مراقبته الشخصية .

وحسبنا كي نعرف مبلغ ما كان عليه كتشنر من الغطرسة والتكبر ، أن نرجع إلى ماقبل الحملة بعامين اثنين حيث وقع في وادى حلفا نفسها بين كتشنر سردار الجيش المصرى وبين خديوى مصر عباس حلمى ماشتهر وقتئذ باسم «حادث الحدود» .

فقد بدا للخديوى في أثناء ثورة المهدى في السودان ، أن يقوم بزيارة رسمية لمديريات الوجه القبلى من أدنى الصعيد إلى أعلاه حتى الحدود . وفي مساء ٩ من يناير سنة ١٨٩٤ استقل الخديوى يخته الخاص في حفل من حاشيته وفي معيته محمد ماهر باشا وكيل الحربية ، وتتابعت زياراته للمديريات حتى بلغت الرحلة نهايتها عند الحدود في وادى حلفا ، وكانت في ذلك الحين أيضا مركز احتشاد الجيش المصرى . فكان الاستقبال العسكرى الرسمى المعتاد وعلى رأس المستقبلين كتشنر باشا . وفي أثناء استعراض الخديوى للجيش ، أبدى بعض الملاحظات على الأورطة الثانية بمسمع من ضباطها من الإنجليز . فشق ذلك على كتشنر وتعاظمه ، وأبلغ الخديوى أن الضباط الإنجليز متذمرون ، وأنهم يعدون ما حصل إهانة لهم ، وأنهم عازمون على الاستقالة ، وأنه من ناحيته لايسعه إلا عرض الأمر على قائد جيش الاحتلال

والمعتمد البريطاني في مصر . فلما أفهمه الخديو أنه صاحب الحق في إبداء ما يراه من الملاحظات على الجيش المصرى ، وأنه لا وجه لهؤلاء الضباط في الاحتجاج لأنهم ليسوا في خدمته غير ضباط مصريين ، أجابه كتشنر في ثورة غضبه أنه لايقبل من الخديو ملاحظات لاحق له في إبدائها . ولم يقف النقاش عند هذا الحد فإن الخديو حين نبهه إلى أنه القائد الأعلى لجيشه ، قال كتشنر إنه لايعرف له هذه الصفة ، ثم أعرض عنه وأدار له ظهره وافترق الاثنان دون تبادل السلام . وانصرف الخديو مغضباً إلى بخته ، وأبلغ أنه يحس بوعكة وأنه غير حاضر المأدبة العسكرية الرسمية التى أقامها السردار احتفالاً به . أما كتشنر فأبلغ الحادث إلى اللورد كرومر ذلك المساء نفسه في برقية عاجلة . فانتهز كرومر الفرصة للتهويل في أمرها ، وأبلغها إلى لندن على الفور . فوردت التعليمات من لندن إلى كرومر بتبليغ مذكرة إلى رئيس الوزارة رياض باشا مفادها مطالبة الخديو بتقديم الترضية الرسمية للضباط الإنجليز بالثناء على الجيش وضباطه ، قبل وصوله إلى العاصمة أو تقديم تنازله عن العرش . وقد رضخ الخديو عباس ، فأرسل عند وصول ركابه إلى الفيوم خطاباً بتاريخ ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٤ موجهاً إلى السردار في وادى حلفا ، مردداً هذا المعنى في جملته وتفصيله ، على سبيل الاعتذار .

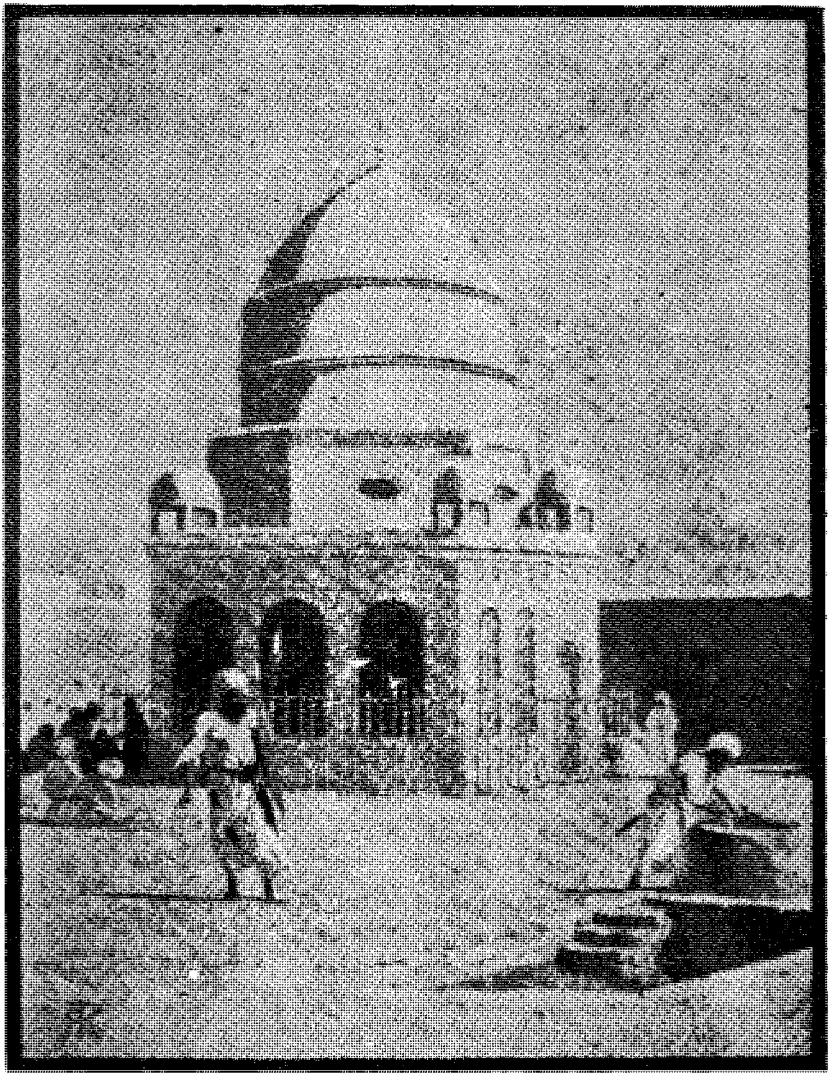
ولما كان ما ذكرناه عن كتشنر يمكن حمله على المعنى السياسى الذى تتوخى السلطة البريطانية توكيده في مصر ، فإننا نسوق شهادة أركان حربه الإنجليزى إدوارد سيسل Eduard Cecil في هذه الحملة نفسها ؛ وهى حملة النيل كما يدعونها . لقد جاء فيما كتبه اللورد إدوارد سيسل في مذكراته عن أيام خدمته في مصر « The Leisure of an Egyptian official » إشارة إلى حادث الحدود إذ يقول : «كان لقائى كتشنر للمرة الثانية في لندن عقب الحادث الذى وجه فيه الخديوى عباس الإهانة له . وقد كان كتشنر يردد في لهجة الجاد وهو يهز رأسه هذا التعليق عليها : « شقاوة غلام » . فلما لقيته بعد سنوات ، وذكرت له كراهتى للخديوى ، بدا كأنه ينكر على ذلك ، فالخديو لم يكن عنده بالشيء الذى له شأن حتى يكرهه .

ونحن نذكر هذا عن كتشنر بمناسبة ماكنا بسبيل روايته عن تعاظمه وغطرسته ، وهى غطرسة كان يظهرها حتى في علاقاته مع رؤسائه الإنجليز ، ولو كانوا في دست الوزارة . ولكننا نؤثر هنا إيراد الشواهد على نوع علاقته مع مرءوسيه خاصة لنلقى الضوء على ماكان من علاقته بمؤلفنا الضابط حافظ إبراهيم ، وقد اخترنا أن يكون شاهدنا على ذلك أحد مرءوسيه من الإنجليز أنفسهم . وليكن هـــذا المرءوس « إدوارد سيسل » نفسه ، أيام كان أركان حربه في الحملة المصرية الإنجليزية على السودان ، قال :

« لقد جمعنى العمل بالسردار كتشنر أيام الحملة ، ولا أحسبنى أصْدُق في قولى إذا قلت إننى أحببته وقتئذ . ذلك أنه كان وقتئذ أكثر جفوة وجلافة وأقل تمدناً وتهذيباً في طباعه وشمائله منه في مستأنف أيامه . فقد كان من ديدنه أن يكون قليل الاعتبار لأى إنسان كائناً من كان . ثم هو بعيد عن الملاينة سريع إلى المصادمة ، خشن الطباع غير مصقول الحواشى ، به نزوع إلى انتهار من حوله والصخب عليهم والاستبداد بهم ، كما يفعل بعض الرجال مع زوجاتهم . وإذا كان منطوياً على غلٍّ صَبّ على من حوله جام غضبه تنفيساً عن صدره ، ثم هو كثيراً ما يقيم الساعات الطوال صامتاً عابساً . وبالجملة هو رئيسٌ يلقى منه المرءوس أنواع التنغيص » .

هذا هو كتشنر مع مرءوسه الإنجليزى ، فما بالك به إن كان المرءوس ذلك المصرى حافظ إبراهيم ، بما جبل عليه من الخروج على النظام وقلة الصبر على العمل المتصل ، وإيثار مجالس السمر يفنى فيها لياليه حتى السحر ، ينادم الخلان من أهل الظرف والأدب ، يتذاكرون نوادر الأخبار ويتطارحون فرائد الأشعار ، فلا يأوون إلى دورهم حتى تؤذن الأطيار على منابر الأشجار .

والراجح عندنا أن ما وقع من الإضطهاد على حافظ ابراهيم من كتشنر ، إنما كانت هنا بدايته ، بسبب بادرة بدرت من كتشنر المتشدد المستبد ، وهو المعروف بكثرة بوادره ، أو من أجل تقصير تكرر من حافظ ، وهو



ضريح المهدى فى أم درمان
قبل قذفه بالمدافع بأمر كتشنر

المعروف على الدوام بعدم إحتفائه بالنظام وقلة مراعاته لحسن الهندام ، ويضاف إلى ذلك ماابتلى به حافظ من سوء علاقته برئيس فرقته رفعت بك الذى كان يكرهه ويسىء الشهادة بحقه في كل ما يحبّره من تقارير عنه ، وكان حافظ يقابل ذلك منه بنظم الأراجيز يتضاحك به فيها ، ويتناوله بالسخر ، ويتخذه ملهى وعرضة استهزاء ، ومن ذلك قوله :

تراه إذ ينفخ في المزمـــار تحسبه في رتبـــة السردار
يجتنب العـــاقل والنبـيه ويعشق الجـــاهل والسفيه

ولم يكن من شأن هذه الأهاجى إلا استفزاز رئيسه رفعت بك إلى مضاعفة مساعيه غير الحميدة في زيادة الوقيعة به عند السردار ، حتى أصبح منطوياً له على الكثير من سوء التقدير ، فكتب على أحد التقارير المقدمة في حق حافظ إبراهيم كلمته المشهورة « لا يُرفت ولا يُرقي » ، وهى كلمة يفهم منها أن رئيس حافظ المباشر كان قد اقترح فصله من الخدمة . ولقد كان حافظ يخشى ألا يقف الأمر عند حرمانه من الترقية ، ويتوجس مع استمرار السعاية أن يبطش به هذا الجبار العنيد ، أو على الأقل يطوح به إلى أبعد البعيد ، في هذه الفيافي البيد .

رسالة استغاثة من السودان

إلى الشيخ الإمام محمد عبده

كان الشيخ محمد عبده قد اشترك - كما هو معلوم - في الثورة العرابية حين تحولت من حركة عسكرية لمطالب خاصة إلى هبّة شعبية ذات أهداف وطنيةعامة ، فكان ما كان في أواخر سنة ١٨٨٢ من الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج الديار المصرية ، إلى البلد الذى يختاره كغيره من المدنيين ، ولكن الشيخ محمد عبده مكث في المنفى ثلاث سنوات أخر باختياره، لأن تهمته كانت الفتوى بوصفه من رجال الدين بخلع الخديوى توفيق، وقد خشى العودة والذى أفتى بخلعه قائم على العرش ، وخاصة أنه حين زار لندن في بداية صيف سنة ١٨٨٤ بدعوة من صديقه العاطف على الحركة العرابية « ولفرد بلنت » وسأله هنالك مُكاتب « البول ميل جازيت » عن رأيه في الخديوى توفيق لم يلذ بالصمت أو يصطنع التلميح ، بل أدلى برأيه الصريح عن الخديوى توفيق وعن الإنجليز فقال :

« إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهّد لدخولكم بلادنا. ورجلٌ مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم ، ربما غفرنا ذنبه . إننا لانريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

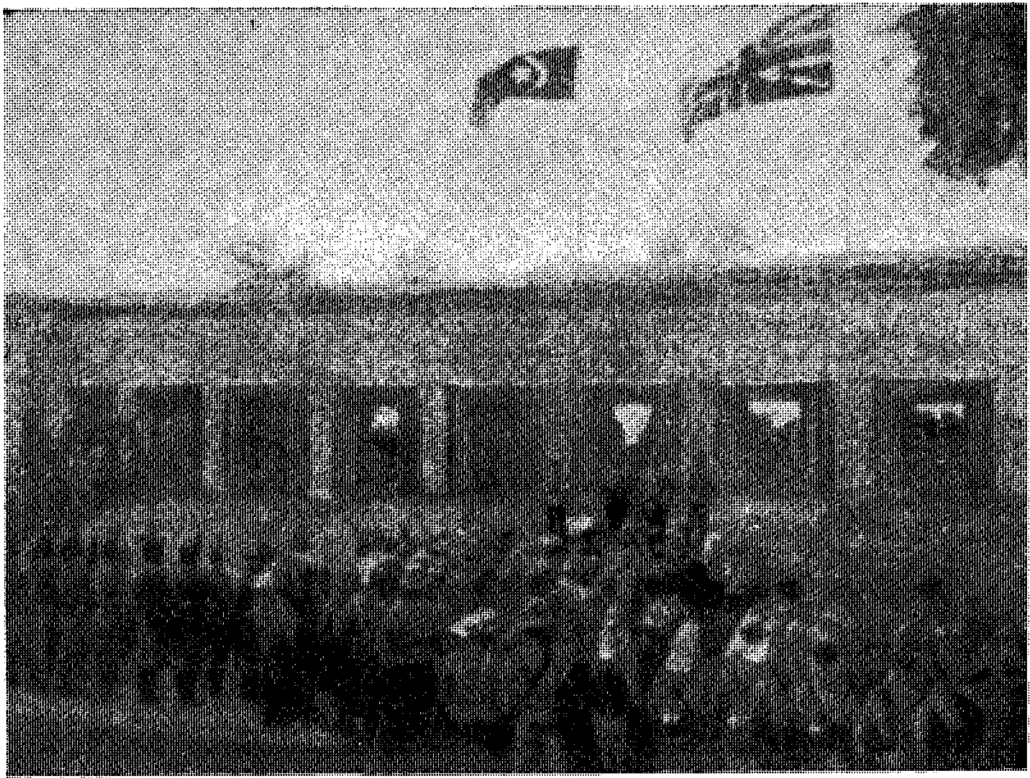
وفي عام ١٨٨٨ والشيخ في منفاه الاختيارى في بيروت ، تحركت عليه السعاية لدى السلطان عبد الحميد . فكره السلطان طول إقامة الشيخ في البلاد الشامية التابعة للسلطنة العثمانية . فسعى الغازى مختار باشا لدى السلطات البريطانية لعودته إلى مصر . واتفق أن كانت إحدى الأميرات في مصر وهى الأميرة نازلى فاضل التى يحضر منتداها سعد زغلول وغيره من أهل الثقافة

العالية من المصريين ، قد سمعت ثناءهم على الشيخ محمد عبده ، ولما كانت حسنة الصلة ، مقبولة الرجاء عند كرومر فقد سعت لديه في الشفاعة لعودته عند الخديوى توفيق ، فلم يجرؤ الخديوى على رد شفاعة المعتمد البريطانى .ا وعاد الشيخ أخيراً إلى وطنه . ومنذ ذلك الحين وَقَرَ في الأذهان أن للشيخ محمد عبده لا محالة منزلة عند الإنجليز . والواقع أن الشيخ محمد عبده قد اكتسب صداقتهم على الرغم من عداوته لهم ، لأنه كان بعد تجربته للثورة العرابية قد اتجه رأيه إلى أن الإصلاح الأخلاقي والتربية القومية يجب أن يكون لهما السبق حتى تقوم عليهما النهضة السياسية ، وهذا معناه أن الشيخ محمد عبده كان من المعتدلين . والواقع أن هذا كان طبعه الفطرى ، وقد غلب عليه بعد أن فارقه جمال الدين الأفغانى .

فلا غرابة إذن إن رأينا حافظ إبراهيم في محنته مع كتشنر ينصرف ذهنه إلى الاستشفاع بالأستاذ الشيخ محمد عبده ، الذى علا وقتئذ نجمه وبلغ في وظائف الدولة إلى تعيينه مستشاراً في القضاء الأعلى بمحكمة الاستئناف وعضواً بمجلس إدارة الأزهر . وها هو ذا حافظ يكتب إليه من السودان ثم يعاود الكتابة إليه ملتمساً وساطته عند الإنجليز وحسن مسعاه لديهم لنقله إلى القاهرة بعيداً عن العمل في السودان تحت السلطة المباشرة لذلك السردار الجبار :

والقارىء سيأخذه العجب ولا شك من هذا النموذج الذى سنورده من رسائله للأستاذ الشفيع ، لمبالغة المستشفع في اصطناع النثر الفنى . وقد بلغ من احتفاله بديباجته في عرض شكايته أن أصبحت رسائله أشبه ما يكون برسالة ابن زيدون المشهورة . ولقد دعاه إلى هذه المعاناة ما يعلمه في الشيخ محمد عبده من تذوقه لفنون الأدب وسعة علمه بوجوه البلاغة والبيان ، كما يعلم ذلك كل من قرأ للأستاذ شرحه نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان . وفي هذه الرسالة يكرر حافظ التماسه من أستاذه أن يسعى في نقله من السودان إلى القاهرة مستنجزاً وعداً سبق له بذلك :

وهذه هى الرسالة ننشرها بنصها ، مصداقاً لما ذكرنا من أن حافظ



كتشنر يرفع العلمين المصري والإنجليزي على سراي الحاكم العام في الخرطوم

ينحو فيها منحى الرسائل المشهورة لأعلام المنشئين ، من الاحتفال باللفظ وتكلف السجع ، ومن كثرة الإشارات والتضميمات التى تدل على سعة إحاطتهم بفنون الأدب وتاريخ العجم والعرب :

« كتابي إلى سيدى ، وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل ، ومن تيهى به فوق النثرة والإكليل ، وقد تعجلت السرور ، وتسلفت الحبور ، و قطعت ما بيني و بين النوائب

وبشرت أهلي بالذى قد سمعته فما محنتى إلا ليالٍ قلائلُ
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئة فليس لنا من دهرنا ما ننازل

وجمعت فيه بين ثقة الزبيدى بالصمصامة ، والحارث بالنعامة ، فلم أقل ما قال الهذلى لصاحبه حين نسي وعده ، وحجب رفده :

يا دار عاتكة التى أتغزل

بل أناديه نداء الأخيذة في عمّورية ، شجاعَ الدولة العباسية ، وأمدّ صوتى بذكر إحسانه مدّ المؤذن صوته في أذانه ، وأعتمد عليه في البعد والقرب ، اعتماد الملاح على نجمة القطب .

وقال أصيحابي وقد هالني النوى وهالهم أمرى : متى أنت قافلُ ؟
فقلت : إذا شاء الإمام فأوبتى قريب ، وربعى بالسعادة آهل

(وهأنا) متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة ، وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لى سيدى نظرةً ترفعني من ذات الصَّدْع ، إلى ذات الرَّجْع ، وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها ، ورد الوفي الأمانات إلى أهلها .

فإن شاء فالقرب الذى قد رجوته وإن شاء فالعز الذى أنا آمل
وإلا فإني قاف (روْبة) لم أزل بقيد النوى حتى تغول الغوائل

فلقد حللت السودان حلول الكليم في التابوت ، والمغاضب في جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة ، لا بل حلول الوزير

في تنور العذاب والكافر في موقف يوم الحساب ، بين نارين : نار القيظ ونار الغيظ .

فناديت باسم الشيخ والقيظ جمرهُ يذيب دماغ الضب والعقل ذاهل
فصرت كأنى بين روض ومنهل تدب الصبا فيه وتشدو البلابل

واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمين ، وقَصُرت يد الجديدين ، عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد ، فلقد نما ضِبٌّ ضغنه على ، وبدرت بوادر السوء منه إلىّ ، فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم ، وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم ، كلما نضج منها أديم تجدد أديم . وأمسيت ومُلك آمالى إلى الزوال أسرع من أثر الشهاب في السماء ، ودولة صبرى إلى الاضمحلال أحث من حباب الماء ، فنظرت في وجوه تلك العباد ، وإنى لفارس العين والفؤاد ، فلم تقف فراستى على غير بابك .

وإنى أهديك سلاماً لو امتزج بالسحاب ، واختلط منه باللعاب ، لأصبحتْ تتهادى بقَطره الأكاسرة ، وأمست تدخر منه الرهبان في الأديرة ، ولأغَنى ذات الحجاب عن الغالية والملاب ، ولا بدع إذا جاد السيد بالرد فقد يرى وجه المليك في المرآة ، وخيال القمر في الأضاة ، وإن حال حائل دون أمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأس من غدك ، فأنت خير ما تكون حين لاتظن نفس بنفس خيراً ، والسلام » .

تلك هى رسالة حافظ ، يتجسم فيها ما كان عليه من الغيظ والاضطراب وتوجس الشر على نفسه من قائد الحملة العام السردار كتشنر العنيد الجبار ، على حد وصف حافظ له في رسالته .

واعتقادنا أن الأستاذ الشيخ محمد عبده — مع صدق رغبته في مساعدة حافظ — كانت الفرصة أمامه غير سانحة ، والملابسات غير مواتية ، للتدخل بين الرئيس الأعلى ومرءوسه في مثل هذه الساعات الحاسمة . ومع ذلك فنحن لا نستبعد أن يكون الأستاذ الإمام قد خاطب كرومر في شأن عودة حافظ ، ولكننا نستبعد التدخل من جانب كرومر عند كتشنر ،

لما كان معلوماً عن كتشنر من صلابته وعناده، وانحصار اهتمامه في تحقيق مراده ، دون التفات إلى ما يصيب خلائق الله وعباده .

وكان كتشنر قد وجه منشوراً إلى أهل السودان يعدد مساوىء حكم الخليفة التعايشي ومظالمه فيهم، ومنها استئثاره بأموالهم ، وانتهاكه حُرَمهم ، وتقتيله أشرافهم . ويدعو المنشور في ختامه أهل السودان إلى الانضواء إلى الجيوش المظفرة القادمة تحت قيادته من القاهرة .

السكة الحديدية والقطار

هما الشغل الشاغل للسردار

كان كتشنر طوال الحملة المصرية الإنجليزية التى يقودها في السودان ، صارفاً همه الأكبر إلى مد السكك الحديدية ، حرصاً منه على خطوط الاتصال بين قواعده العسكرية وجبهة القتال ، لضمان تدفق الذخيرة والمئونة ومدد الرجال .

وقد بلغ من تعويل كتشنر على السكة الحديدية واعتماده على القطار ، أنه حين بدأ الخط الحديدى من وادى حلفا لم ينتظر بلوغه عكاشة ، بل كان كلما تم إنشاء جزء منه ، تقدم معه الجيش حتى تم الاحتشاد في عكاشه . ولم يمض وقت يسير ، حتى كانت فناطيس الماء وأكداس المئونة محمولة للمرة الأولى بالقطار من وادى حلفا إلى عكاشة ، حيث كانت تنتظرها حشود يبلغ عددها نحو الثلاثة آلاف من الجند ، لتسد به جوعها وتروى عطشها . وكانت أوامر كتشنر المشددة كفيلة بأن يكون مع المئونة والماء المنقولين بالقطار مزيد من القضبان والعوارض لمواصلة العمل في مد الخط الحديدى وتسيير القطار إلى الهدف المقصود بلوغه وهو دنقلة قبل حلول الشتاء .

ولقد استمر مد السكة الحديدية جنوباً حتى بلغت بلدة كوشة ، في ٥ من يوليه سنة ١٨٩٦ ، فأصبحت بدورها مركزاً لاحتشاد الحملة في آخر مراحلها للانقضاض على دنقلة .

ويقال إن جواسيس الدراويش كانوا يحملون إلى أهالى السودان حتى الخرطوم أنباء عجيبة عن هذا القطار الحديدى ، أو على حد ما يتخيلون ذلك « التنين » أو الثعبان العظيم الذى أتى به الإنجليز معهم ، ينفث الدخان

والنار ، متوغلاً في بلادهم ليل نهار ، متوعداً إياهم بالويل والثبور ، وسوء المصير .

ولقد حل في الواقع بهم ما ألاح به النذير في زعمهم ، من الويل والثبور وسوء المصير ، ولم يسلم من ذلك الإنجليز والمصريون أنفسهم : فقد انتشرت الكوليرا في مصر ذاتها ، وانتشرت حتى بلغت المركز الحربي الأول في أسوان ، ثم اختفت الكوليرا منها لتظهر في وادى حلفا في حالة وبائية ذريعة ، كان من ضحاياها الكثيرون ومنهم بعض أفراد فرقة « نورث سترافورد شاير » الإنجليزية ، ولم يكن في الإمكان معالجة الحالة في وادى حلفا ، لما كان من استحالة عزلها ، لأنها الطريق الذى تمر به الفرق العسكرية والمؤن إلى ميدان القتال : ولقد حمل بعض هؤلاء معهم الوباء إلى مركز التجمع في بلدة كوشة نفسها في ١٥ من يولية حتى اقتضى الأمر نقل المعسكر من جوار النيل إلى مسافة ألفى ياردة في الصحراء ، وقد أسفر هذا الإجراء الأخير عن قطع دابر الكوليرا بعد أن هلك منها خلق كثير .

وتهيأت الحملة للتحرك ، وصاحبها في النيل أسطول صغير من أربع بواخر مدرعة وثلاث غير مدرعة . ثم سبق الأسطول الصغير إلى دنقلة بحراً ، وأدركته الحملة براً . وبدأ الهجوم على دنقلة في منتصف الساعة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٦ وكانت الليلة مقمرة . وفي الساعة السابعة مساء تقدمت جموع الدراويش ، فتقدم المصريون إلى لقائهم مبادرين ، ولكن الدراويش تراجعوا ، وتكرر هذا الكرّ والفرّ منهم ، مما يدل على ما داخلهم من وهن العزيمة والتخاذل والتردد ، ولم يكن ذلك معهوداً فيهم من قبل . وأخيراً في منتصف الساعة العاشرة مساء ، تقدمت الحملة البرية حتى واجهت معسكر الدراويش في شمال المدينة فإذا هم يرون العلم المصرى يخفق على دار المديرية . ذلك أن السودانيين الذين تتألف منهم حاميتها المرابطة فيها ، قد سبقوا إلى التسليم لرجال الأسطول المصريين ، فلم يبق أمام جنود الحملة البرية إلامطاردة المقاتلة العرب من قبائل البقارة والجعليين . وقد أبدى البقارة خاصة بعض المقاومة لتغطية انسحاب

الفلول الهاربين قاصدين إلى ناحية الخرطوم . وما أصبح يوم ٢٤ من سبتمبر حتى كانت مدينة دنقلة أو على الأصح خرائبها وأطلالها مقفرة من أهلها ، كما غادر الدراويش المديرية كلها .

واحتفل السردار بهذا النصر المبين في دار المديرية في دنقلة ، وتلقى التهنئة من الخديوى عباس الثانى ، ومُنح النيشان العثمانى العالى من الطبقة الأولى . وكان من الحاضرين في هذا الاحتفال من أعضاء الحملة المصريين إبراهيم فتحى (باشا) قومندان الأورطة السابعة ، والملازم حسين بدر (باشا) واعتبرت حملة دنقلة منتهية في الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ بعد أن حققت الغرض وبلغت الغاية بفضل حكمة السردار في مد الخطوط الحديدية وتسيير القطار .

الشاعر الطريد على سواحل البحر الأحمر

بين سواكن وطوكر

هو ذا السردار ، قائد الحملة العنيد الجبار ، قد وفي بوعيده ، وأنفذ في حافظ تهديده ، وأمر بنقله بعيداً عن الحملة التي يقودها بنفسه وسط السودان .

وهذا هو الضابط الشاعر « حافظ » قد أصبح طريداً مبعداً إلى شرقي السودان ، حيث ظل كالمنفى على شواطئ البحر الأحمر مدة سنتين كاملتين ، أكثرها في سواكن .

والبحر الأحمر — كما هو معلوم — ليس من البحار المحببة إلى الناس ، سواء إلى الأغراب النازلين على ساحليه المتقاربين بشعابهما الصخرية المرجانية ، أو إلى المسافرين ركاباً كانوا أو ملاحين وهم في جملتهم يعدون بالألوف تعبر البواخر بهم عُبابه المِلْح الأجاج من كثرة تبخر مائه . وهذه الكراهة لهذا البحر الذى يعرفه الأقدمون باسم « القلزم Calysm » لا ترجع إلى عواصف وأعاصير كالتى تهب في المحيط الهندى أو المحيط الهادى ، وإنما سببها ذلك الحر الشديد الذى لا تطاق شدته متصاعداً مثل نار الجحيم من هذا الأخدود المستطيل المحصور بين أرض رملية رمضاء محرقة ، وجبال بركانية جرداء شاهقة .

على هذا البحر ، يقع ميناء « سواكن » وقد كان أكبر موانى النوبة وأكثرها حركة ، وكان مجاز ذوى التقى والورع من المسلمين في أقطار السودان تعبر بهم المراكب إلى ميناء جدة في الساحل المقابل ، حيث تنقلهم القوافل للحج إلى مكة المكرمة ، وفي الوقت نفسه كانت ترفأ إلى سواكن مراكب القادمين من جدة إلى السودان .

وسواكن كانت كذلك مركزاً هاماً للنخاسة والاتجار بالعبيد وتصديرهم ، قبل توقيع الاتفاقية على منع الرقيق عام ١٨٧٧ .

وتتألف سواكن من قسمين : قسم على الساحل وهو المسمى « القيف » ثم القسم الآخر وهو سواكن الحقيقية ، ويقوم على جزيرة رملها قاحل ماحل لا ينبت ، وبيوتها من الصخر المرجانى الأبيض ومعظمها يتهدم ولا يثبت . وتكثر بينها المقاهى حتى يكاد المقهى يكون كالدرة فاصلةً بين كل بيتين من هذه البيوت المبنية من الحجارة المرجانية .

وأهل سواكن من البجاه السودان ، من الجنس الحامى . وتزعم أحاديث الأقدمين أن كلمة « سواكن » أصلها « سواء الجن » وذلك أنه في سالف الزمان ، أودع الأحباش في هذه الجزيرة أربعين عذراء ، فأغواهن الجن ، فولدن أربعين فتاة كان لهن من عبقرىّ الحسن أوْفى نصيب ، من فتنة الصورة وبراعة التكوين ، فتزوجهن من جاورهن من العرب ، فاجتمع في نسلهن الخبث الشيطانى والجمال الحبشي . ومن هؤلاء أهل سواكن البجاه المشهورون حتّى اليوم بجمال الأجسام ، ومنهم العبابدة سكان الصحراء الشرقية بمصر وجنوبها ، وفي شرقي النوبة حتّى ساحل البحر الأحمر البشاريون والهدندوه وبنو عامر ، ورجال هذه القبائل قلما تخلو من ذكرهم حادثة من أحداث السودان الشرقي في أثناء حياة حافظ وكتشنر .

ولا شك في أن حافظ قد اتصلت أسباب المعرفة بينه وبين بعض الأفراد من هذه القبائل وخاصة البجاه ممن يجمعون إلى معرفة لغتهم معرفة اللغة العربية بحكم ما كان من تجارتهم مع جدة . ومن هؤلاء لا نشك في أن شاعرنا حافظ قد سمع بعض الأحداث الأخيرة التى جرت في هذه الناحية المزدحمة وقتئذ بالأحداث الخطيرة مع كونها من الأطراف الصحراوية النائية .

فلقد عرف ساحل البحر الأحمر فيمن عرف في أيام الحملة المصرية الإنجليزية إلى السودان شخصية فريدة عجيبة . وهذه الشخصية هى « عثمان دقنة » الذى قدم على هذا الساحل في الأسبوع الأول من شهر إبريل

عام ١٨٩٦ في ثلثمائة من فرسان الخيل ، وسبعين من الهجانة أو فرسان الجمال ، وألفين ومائة من المشاة . وأخذ منذ ذلك الحين في تهديد سواكن والمراكز الأخر المتطرفة .

وكانت سواكن يحميها من الغارة عليها كونها جزيرة ، ولكنها كانت تعتمد في معاشها على الجزء المكمل لها على البر ، وهو سواكن البرية ، وهذه كانت قوية التحصين يحيط بها سور وخندق ، وتحميها إحدى عشرة طابية قائمة في أركانها ، متتابعة كالسلك المنظوم .

أما المراكز القريبة من سواكن وعلى مسافة من الساحل ، فهى في الشمال قريباً من البحر « هندوب » وبعيداً عنه « تامبوك » وفي كل منهما ما يكفي أربعة أشهر من الزاد والذخائر . وتمتاز الأخيرة من الناحية الحربية بأنها لاتستطيع مهاجمتها قوة غير قوات المدفعية ، فهى قائمة على صخرة عالية منيعة ، ويتألف معقلها من مخزن وحصن من كتل الخشب وبرج للمراقبة يكشف ماحوله إلى مدى بعيد يبلغ أميالاً عديدة ، ثم هى على رأس الطريق المؤدية إلى بربر ، كما أنها تتحكم في آبار الماء عند سفح الصخرة . وهنالك عدا هذين بلدة « سنكات » جنوبي سواكن ، بعيدة عن الساحل ، وهى في واد ناضر الخضرة ، ويتخذها السَّراة من تجار سواكن مصيفاً حين تشتد حرارة الصيف في ساحل البحر .

أما « طوكر » فهى واقعة في أقصى الجنوب من سواكن على مسافة من الساحل ، في الطريق من البحر إلى كسلا ؛ وهى في سهل خصب يرويه خور بركة الذى يتفرع إلى قنوات للرى عديدة ، ويبلغ من خصوبة التربة في طوكر أنها في مواسم البذر والحصاد يجتمع في حقولها نحو العشرين ألف عامل وفلاح . وقلعة طوكر محصنة بثلاثة خطوط من الاستحكامات ، مزودة بمدفعين « كروب » ومدفع « جاتلنج » ، فضلاً على مقادير كبيرة من المئونة والذخيرة . وكانت طوكر وقت ابتداء الحملة على السودان تحميها الأورطة العاشرة السودانية التابعة للقوات المصرية . وأقرب الموانى ، إلى طوكر ، ميناء « ترنكيتات » ، وتقوم بلدة « الطيب » بينها وبين طوكر .

وقد كانت هذه الموانى البحرية والمراكز الداخلية جميعها على صغرها ميداناً لمعارك حامية الوطيس كان لها خطرها بين القوات المصرية الإنجليزية ، وعثمان دقنه ورجاله من قبيلة هدندوة وغيرها ، فضلاً على العربان في موقفهم المتذبذب المتنقل بين المعسكرين آناً بعد آن ، وقد ظلت هذه المعارك دائرة دون انقطاع منذ سنة ١٨٨٣ أو قبلها .

وما من شك في أن حافظ إبراهيم قد سمع في أثناء إقامته في سواكن من المقاتلة القدامى أطرافاً من المعارك حولها ، وفي الأطراف النائية عنها في جنوبها وشمالها ، ولا نحسب أن أديباً مثله قرأ في الأدب العربي مقامات بديع الزمان والحريرى فضلاً على روائع القصص الشعبي مثل سيف بن ذى يزن وعنترة وأبو زيد الهلالى ، يفوته الاستماع إلى قصة بطل عصرى من أبطال سواكن وهو الثائر عثمان دقنة ، ذلك المغوار الماكر .

وهكذا علم حافظ فيما علم ، أن عثمان دقنة أصله من أكراد ديار بكر ، وكان أحد أسلافه قدم منذ قرون مع جيوش السلطان سليم الأول عند فتحه مصر ، ثم أقام في ميناء سواكن ، واختلط بقبائل الهدندوة ، وكان منهم قبيلة الدقناوى التى اتصل وإياها بالمصاهرة ، فكان من ثمارها عثمان دقنة الذى ولد في سواكن ونشأ بها ، وتعاطى وأخوه التجارة التى كانت تمارسها الأسرة وهى العاج وريش النعام وغيرها ، ثم ما هو أكثر من ذلك استدراراً للربح وهى النخاسة أى الاتجار بالرقيق ، وكانت تجارته رائجة بين السودان والحجاز ، فلما أن صارت تجارة الرقيق ممنوعة منذ أغسطس سنة ١٨٧٧ بمقتضى اتفاقية الرقيق الإنجليزية المصرية ، ساءت حالة عثمان دقنة المالية وخاصة بعد أن سجن هو وأخوه مرة في جده بسبب اتجارهما في الرقيق بعد صدور القرار بتحريمها . واتفق وقتئذ أن بلغت (دقنة) الدعوة المهدية الثائرة على بدع المدنية الأجنبية ، فلم يتوان عن اعتناقها ، والتعصب لها حتى النهاية . وكان يعرف لغات الهدندوة والبجة ، كما يعرف العربية قراءة وكتابة . وكان معروفاً بالشهامة والشجاعة والمهابة ، فلا

عجب – في إبان الدعوة المهدية ، والتوسع في نشرها بعد انتصارها – أن يعهد إليه المهدى بالدعوة لها ما بين البحر الأحمر ونهر عطبرة ، أى في موطنه وسائر السودان الشرقي . فقام عثمان بما عهد إليه حق القيام مستنفراً أهل هذه الأقطار للثورة والمبادرة للانضمام إلى جموع الأنصار تحت الراية المهدية . وفي أواخر سنة ١٨٨٣ حمّله المهدى إلى أهل هذه البلاد منشوراً يتضمن تعيينه من قبله أميراً فأوفد عثمان دقنة أخاه رسولاً عنه لهداية أهل كسلا ، وتولى هو بنفسه بلاد الساحل ، متخذاً معسكره الرئيسى في بلدة « تماى » التى صارت معقله المشهور ، وهى على مرتفع من الأرض في سفحه جداول ، ما بين سواكن وسنكات . وكذلك كان له معسكر في تل هشيم على بعد سبعة أميال من سواكن ، ومعسكر ثالث عند طوكر . وقد كان من نجاح مساعيه الثورية أن أرسلت الحكومة من القاهرة في آخر نوفمبر سنة ١٨٨٣ حملة باكر باشا حكمدار البوليس التى سبق لنا ذكرها ، فأفناها عن آخرها .

ولكن الذى كان يهتم له حافظ اهتماماً لا يعدله اهتمام ، هو أخبار عثمان دقنة مع كتشنر الذى كان منذ أغسطس سنة ١٨٨٦ محافظاً لسواكن ، لعله يجد في تضاعيفها ما يشفى غل قلبه الموتور فيما وقع لهذا المتعجرف المغرور . وإننا لنرى بعين الخيال « حافظا » يستمع ، وهو معلق الأنفاس ، كيف كانت هزيمة كتشنر أمام عثمان دقنة في هندوب شمال سواكن ، ثم نلمح كالبرق ومضات التشفى في عينه حين يصف الراوى كيف أصيب كتشنر في أثناء التقهقر إصابة شديدة في وجهه برصاصة استقرت بعدها في عضلة من عضلات عنقه ، حتى جعلته الإصابة عاجزاً عن القتال لتغطية الانسحاب ، وأخرجته من عداد المقاتلين إلى عداد المصابين ، فتولى عنه ما بدأه من تنظيم حركة الانسحاب الكابتن « هيكمان » الذى خلفه على قيادة الفلول المنهزمين ، وكان من شدة الإصابة أن نقل كتشنر بعد يومين إلى القاهرة باعتباره من العسكريين الذين أصبحوا غير صالحين ،

وخلفه غيره على محافظة سواكن . ومن عجيب ما يروى أن الجراحين بذلوا كل مافي وسعهم من علم الجراحة وقتئذ لإخراج الرصاصة من عنقه فذهبت جهودهم سدى ، وبعد شهور في أثناء نوبة سعال أخذته ، انتقلت الرصاصة من مكمنها فأمكن إخراجها والتأم بعد أن الجرح قاسى منه أشد البرح طوال هذه المدة . ولقد ذكر حافظ عندها ، ذلك الحول الذى لحظه عند كتشنر في عينه اليسرى ، فتبادر على الفور إلى ذهنه أن ما ظنه حولاً إنما هو شلل بالعضلة العليا لعينه اليسرى من تلك الإصابة بالرصاصة في وجهه، يوم هزيمته وانكساره أمام عثمان دقنة ورجاله .

ولكن حافظ يعود بعد فترة إلى نفسه ، وإلى حاضر وقته ، فيذكر الواقع المؤلم بحقيقته المرة فهذا هو الكولونيل كتشنر الذى ترك سواكن جريحاً سطيحاً محمولاً إلى القاهرة في عداد العسكرين غير الصالحين ، قد أصبح بعدها كتشنر باشا سردار الجيش المصرى والقائد العام للحملة المصرية الإنجليزية لاسترجاع السودان ، على حين يجد حافظ نفسه كالمنفى متطوحاً على ساحل البحر الأحمر في سواكن ، أو على مسافة منه في ذلك القفر المسمى طوكر ، حيث كان يمشى على أديمهما الرملى وكأنما يمشى على بساط من الجمر ، وحيث تكاد شمس الهجير من فرط السعير تذيب الصخر ، وحيث الرياح السافيات تعفر الوجوه وتقذى العيون برملها ، وتسفع الخدود وتدبغ الجلود بحرها ، وحيث يترامى الأمل الخادع كالسراب اللامع .

في هذا المنفى اجتمع على الشاعر شعوره بالقهر ، وعذابه مما يصلاه من جحيم الحر ، واستيحاشه إلى النعيم في مصر ، بين خلان ليس كمثلهم خلان ، علاقة الأدب جمعتهم ، وقلادة الشعر نظمتهم ، لايأنسون بشىء أنس بعضهم بالبعض ، في مجالس مشرقة البهجة ، فائضة بالبشر يتنادمون فيها بأحاديث حلوة تفوق المدام في حلاوة النشوة . وقد كان من فرط وحشة شاعرنا حافظ إليهم أن اتصلت رسائله بهم ، ما بين السودان والقاهرة يشكو إليهم مُقامه في أقاصى السودان قفرها وحرها ، ويحن إلى مجالسه معهم

بالقاهرة حنيناً ولا كحنين أهل الجحيم إلى النعيم . ومن ذلك قصيدته إلى صديقه محمد بيرم رداً على خطاب له :

أثرتَ بنا من الشوق القديم وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمالاً وأرْقَصْنا لها فلك النعيم
وفتيان مساميح عليهم جلاليب من الذوق السليم
وظبي من بنى مصر غرير شهيّ اللفظ ذى خد مُشيم
ولحظ بابلى ذى انكسار كأن بطرْفه سيما اليتيم
سقانا في منادمة حديثاً نسينا عنده بنت الكروم
أُحنُّ لهم ودونهمُ فلاةٌ كأن فسيحَها صدرُ الحليم
كأن أديمها أحشاء صب قد التهبت من الوجد الأليم
كأن سرابها إذ لاح فيها خداع لاح في وجه اللئيم
وتمشى السافيات بها حيارى إذا نقل الهجير عن الجحيم
فمن لى أن أرى تلك المغانى وما فيها من الحسن القديم
نزحت عن الديار أروم رزقي وأضرب في المهامه والتخوم
وما غادرت في السودان قفراً فلم أصبغ بتربته أديمى
وها أنا بين أنياب المنايا وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندى قنعت بعيشتى قنع الظليم

ولكم خلا شاعرنا في هذا المنفى إلى نفسه ، يتأمل في أعماقها عمق بؤسه ، ولا يجد من يرجع عليه باللائمة غير نفسه ، فهو الذى جنى عليها هذه الجناية التماساً للرزق ، وتأميناً للمستقبل . ولقد تملك شاعرنا هذا الشعور حتى كان يردده فيما كان يكتبه إلى أصدقائه من منفاه :

رَميتُ بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب
وما حمّلتها إلا شقاء تقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى ، فدعى عتابى
ولولا أنهم وَأدُوا بيانى بلغْتُ بك المنى وشفيت مابى

سعيت ، وكم سعى قبلى أديب فآب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التّراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد مادبغت إهابى
وحتى قلم الإملاق ظفرى وحتّى حطم المقدار نابى

وينتقل شاعرنا من هذه الشكوى الأليمة إلى تذكر أرض مصر ، وقد استوحش اليها ، وحن إلى كل شيء فيها حتّى قطار السكة الحديدية ، فقد طال به المُقام في القطر السودانى الشرقي ، ولم يقع ناظره على قطار غاد رائح ، يحس في غدوه ورواحه أنه على صلة بالعالم الخارجى :

متى أنا بالغ يا «مصر» أرضاً أشم بترِبها ريح الملاب
رأيت «ابن النجار» على رباها يمر كأنه شرخ الشباب
كأن بجوفه أحشاء صب يؤجِّج نارها شوقُ الإياب
إذا مالاح ساءلنا الدياجى : أبرقُ الأرض ِ أم برق السحاب؟

وكان الأمر قد انتهى بحافظ إلى اليأس من شفاعة الشافعين له ، وكان عزاؤه أن يذكره على الأقل أصدقاؤه . ولكنه بدأ يحز في نفسه تشاغلهم عنه ، وتراخيهم مع تطاول الزمن في مراسلته ، وتقاعدهم عن بذل المعونة له وهم من أهل السعة والاقتدار ، فلا غرو يداخله الريب في مودتهم ويزايله اليقين حتّى في أخصائه المقربين ، فيهمُّ في سَوْرة غضبه منهم أن يصارحهم ، ويطوى صفحتهم ويقطع كل سبب بينه وبينهم ، ومن ذلك هذا الكتاب الذى أنفذه إلى أحدهم :

أخى والله قد مُلئ الوطاب وداخلنى بصحبتك ارتياب
رجوتك مرة وعتبت أخرى فلا أجدى الرجاء ولا العتاب
نبذت مودتى فاهنأ ببعدى فآخر عهدنا هذا الكتاب

ونحن نعهد حافظ ممن يحبون المخالطة والصحبة ، ولا يصبرون عن مجالسة الأدباء ومنادمة الظرفاء ، وها هم أولاء قد ترامت بينه وبينهم كل

هذه الصحارى الشاسعة ، وطالت عليهم غيبته حتى كاد يطوى النسيان عندهم مودته ، فانقطعت مع تطاول الأيام أسباب المكاتبة ، فلم يبق أمام حافظ في هذه الوحدة الموحشة ، إلا أن أكب وهو في المنفى على معالجة القراءة في الفرنسية للشاعر العظيم فيكتور هوجو ، وخاصة القصة الضخمة الكبيرة المشهورة التى كتبها في منفاه ونعنى بها «البؤساء» أو كما شاء المتنطسون من أعلام اللغة «البائسون» . ويدلنا على أن معاناة حافظ لهذه القراءة كانت شديدة ، قوله في بعض أحاديثه إنه أعاد قراءتها أكثر من عشرين مرة قبل أن يترجمها ، فضلاً عن قوله في صدر الجزء الأول من ترجمته وهو يتكلم عن التعريب :

«ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم وقد خار لى الله أن أعربه فاستعنته ، فأعاننى ، وسلخت اثنى عشر هلالاً في تعريب تلك الصفحات التى ترونها » .

والمتعارف عند قراء الفرنسية أن البؤساء في لغتها الأصلية ليس فيها من ناحية مبناها أو معناها صعوبة أو تعقيد أو إخفاء ، ولكنه ضعف حافظ في الفرنسية وعدم تضلعه فيها وتمكنه منها . ومن ثمة آثر حافظ أن تكون ترجمته لها تعريباً ، فهى لاتمت كثيراً إلى النص الفرنسى ولكنها في طبقته البلاغية من حيث الأسلوب العربى في ذاته ، دون النظر إلى مطابقة النقل للأصل ، ودون الالتفات إلى ما تحراه فيكتور هوجو في إبراز الاختلاف بين الشخصيات في أسلوبهم في الخطاب وصوغهم للعبارات . ومن أجل ذلك اكتفى بلغاء النقاد العرب عند كلامهم عن ترجمة حافظ للبؤساء أن يذكروا بجميل الثناء بلاغته وجمال أسلوبه ورصانة عبارته .

وأكبر الظن أن حافظ كان همه في ترجمته للبؤساء التنفيس عن وطأة إحساسه بما هو فيه من البؤس والعناء ، كما يدل على ذلك ما جاء في خطابه إلى الأستاذ الإمام محمد عبده في كلمة الإهداء :

« إنك موئل البائس ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب قد ألم بعيش البائسين

وحياة اليائسين وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب» .

وقد عاد حافظ إلى توكيد هذا المعنى في مقدمة الكتاب :

«هذا كتاب البؤساء ، وهو خيز ما أخرج للناس في هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو يائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه» .

وهكذا كانت ذكرى المنفى الذى ذاقه حافظ هنا تعاوده بعد عودته إلى القاهرة ، حيث أنجز تعريب ماعربه من البؤساء ، وهذه الذكرى — ذكرى المنفى — لا تزال عالقة بباله ، ماثلة في خياله .

كتشنر

في الطريق إلى الخرطوم

بينما كان شاعر النيل حافظ إبراهيم في شرقي السودان على ساحل البحر الأحمر ، كانت المعارك على ضفاف النيل الأعلى دائرة لاسترجاع ما بقي من السودان .

ذلك أنه بعد أن مضت فترة وجيزة على فتح دنقلة ، أعلنت الحكومة البريطانية في شهر فبراير سنة ١٨٩٧ أنه من الواجب على الحملة إتمام العمل الذى بدأته ، حتى تسترد مصر ما فقدته نزولاً على ما أملى عليها من رأى ، وخاصة أن هذا الواجب قد أصبح في الإمكان تحقيقه ، في هذه الساعة التى أشرف فيها حكم الخليفة في السودان على التداعى والانهيار .

ولم يكن أحد أسعد من كتشنر في هذه الساعة التى صدر إليه فيها الأمر بالزحف على الخرطوم . فقد سبق أن بذل كتشنر كل ما وسعه في خدمة البعثة التى كانت قد أوفدت لإنقاذ غوردون ولم يكن له بحال من الأحوال أدنى شأن في إخفاقها . وقد بلغ من أسفه وقتئذ أنه لما قُضى الأمر وأصبح الرأس الذى كان أعز رأس عند الشعب الإنجليزى مجزوراً ومعروضاً في معسكر المهدى . قدم استعفاءه من خدمة الجيش المصرى ، وعاد كسيف البال إلى بلاده . ونذكر عنه في أثناء سفره في الباخرة التى استقلها من بورسعيد إلى إنجلترا في رجوعه في صيف عام ١٨٨٥ أنه كان يُرى وهو على ظهر الباخرة في الحلة العادية للضباط المهندسين شديد العكوف على كتيب في يده ، وقد روى أحد الكتاب المسافرين على الباخرة التى سافر عليها كتشنر ، أنه كان يذرع ظهرها بخطواته حيناً ، ثم ينحط على مقعد القماش الممدود حينا آخر ، ولكنه كان في الحالين لا يكف عن القراءة ، ولم يكن هذا الكتيب

الذى كان يمعن النظر في قراءته مسترسلاً فيها متوافراً عليها ، الا كتاب حكايات باللغة العربية ، وأكبر الظن عندنا أنه كليلة ودمنة . وهذا الاهتمام بمواصلة دراسته للعربية مع مبارحته بلادها ، يشعر بأنه كان يحس في دخيلة نفسه أنه لابد عائد إليها .

فكيف لا يكون كتشنر اليوم سعيداً جد سعيد بالقرار الأخير؟ لقد شاءت المقادير له أن يكون السردار للجيش المصرى ، ثم القائد العام للحملة المصرية الإنجليزية على دنقله ، وهذه هى المقادير الآن تلقى إليه مقاليد الأمور للزحف على الخرطوم التى شهدت مصرع غوردون ، فأصبح متاحاً له الانتقام لمواطنه.

وبناء على قرار الحكومة الأخير ، بدأ السردار في استئناف خطته بعينها ، من التقدم في تؤدة خطوة خطوة ، ومد السكة الحديدية حيثما سار جيش الحملة ، جرياً على سياسته في تأمين خطوط اتصال جيشه بقواعده في أثناء تقدمه في زحفه . ولكن فى هذه المرة لم تكن الفكرة التى تسلطت عليه هى مد السكة الحديدية على شط النهر من نقطة النهاية في كرمة إلى أبى حمد ، بل كانت شيئاً جديداً آخر ، هو إنشاء سكة حديدية ضيقة ابتداء من وادى حلفا وهى نقطة الابتداء الأولى إلى أبى حمد ، عبر صحراء النوبة ، مارة بالآبار المعروفة بآبار مراد ، باعتبار هذا الطريق الذى يخترق الصحراء أقصر شقة وأقل نفقة . ولقد كان هناك اعتراض على هذه الفكرة ، ولكنه كعادته أصر على فكرته ، وما اتجهت اليه عزيمته . وقد تم إنشاء هذه السكة الحديدية الجديدة كسابقتها تحت إدارة مهندسه القدير الكابتن « جيروارد » وفي آخر شهر يوليه كانت السكة الحديدية قد امتدت إلى نحو منتصف الطريق الصحراوى ، وتوقفت بعيداً عن أبى حمد التى لاتزال في حوزة العدو ، لاتجاه الرأى إلى بدء الزحف من اتجاه آخر مضاد ، أى من ناحية «مروى» التى بلغتها الحملة في ٧ من يوليه سنة ١٨٩٧ . ولقد زحفت القوات من «مروى» بقيادة هنتر باشا إلى أبى حمد وهاجمت جيشاً من الدراويش يتألف من ١٥٠٠ وهزمتهم . واحتلت المدينة في السابع من أغسطس ، وقد وقع في الأسر كثير من الدراويش ومن بينهم الدرويش محمد زين قائدهم .

وجاء بعد «أبي حمد» دور «بربر» التي كان عليها الأمير الزاكي عثمان البقاري ، ولكنه أخلاها ورجاله الدراويش من غير قتال ، فدخلت في حوزة المصريين في ٦ من سبتمبر سنة ١٨٩٧ . وعلى أثر ذلك زحفت القوات على «الدامر» الواقعة على مقربة من ملتقى النيل بنهر عطبرة ، وكان قد التجأ إليها الدراويش المرتدون من بربر ، فلم تطل مقاومتهم وكان احتلالها في ٣١ من أغسطس ، فأقيمت فيها التحصينات واتخذتها الحملة مركزاً أمامياً للمعركة الهامة التالية . وقد روعى قبل حلول العام الجديد أن يتم امتداد السكة الحديدية الصحراوية من وادى حلفا إلى أبي حمد في ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٩٧ ، كما اتخذت الأهبة لمدها بعدها إلى بربر . وقبل نهاية العام ، وعلى وجه التحديد في ١٨ من ديسمبر استردت مصر «كسلا» من الطليان ، وباسترداد «بربر» و «كسلا» انفتح الطريق إلى شرقي السودان . فاطمأن حافظ عندها على نفسه ، وأكب على درسه للفرنسية ، ومطالعاته في قصة «البؤساء» لفكتور هيجو و «الليالى» لألفريد دى موسيه ، ليتعزى بالبؤس عند الأول واليأس عند الآخر عما اجتمع عليه من بؤسه ويأسه . ولكنه ولا ريب ، قد بدأ مع ذلك يداعبه الأمل بقرب الفرج ، فهذه هى البوادر تحمل البشائر بوشك انتهاء الحملة المصرية الإنجليزية من مهمتها ، وأصبحت الشفاعة له ميسورة على يد الأستاذ الإمام «محمد عبده» ليعود من طريق الخرطوم بعد فتحها إلى حيث كان بين الصحاب والندمان في العاصمة المصرية .



المصلح الثائر الكبير جمال الدين الأفغاني

فظائع الإنجليز في السودان

الفرق الإنجليزية تستعمل رصاص «دم دم»

في أوائل سنة ١٨٩٨ كانت الحملة الموجهة ضد خليفة المهدى «عبد الله التعايشى» مقبلة على خاتمتها الرهيبة ومعركتها الحاسمة الأخيرة. فأبرق كتشنر — وقد أصبح الآن «ميجور جنرال سير هربرت كتشنر» — برقية مستعجلة في طلب أمداد إنجليزية أُخَر. فأنفذ إليه السردار «السير فرنسيس جرنفيل» بعض أورط من جيش الاحتلال: أورطة من الإسكندرية وأورطتان من القاهرة. وعلى جناح السرعة وصلت هذه الأمداد إلى وادى حلفا في آخر يناير، وكان مقرراً أن تصل على أثرها أورطة إنجليزية من جزيرة مالطة. وقد أوفدت الحكومة البريطانية اللواء «جاتاكر Gatacre» ليتولى قيادة هذه الفرق من الجنود الإنجليز. وفي هذه الأثناء كانت محطة السكة الحديدية في بلدة «كرمة» يتوارد عليها بغير انقطاع كل من كان في الإمكان نقله من القوات المصرية المرابطة بين دنقلة ووادى حلفا. وكانت هذه القوات تنقل على الفور من محطة كرمة إلى حيث يقلها قطار السكة الحديدية إلى أبو حمد، ومنها إلى أبو ديس بسرعة خمسة وعشرين ميلاً في الساعة.

وكان الأمير الدرويش «محمود» قد أخذ يعبر النيل من «المتمة» إلى «شندى» للزحف على «بربر». وفي أثناء ذلك كانت الأورطة الإنجليزية قد وصلت بالسكة الحديدية من وادى حلفا إلى محطة أبو ديس، وكان الآلاى الإنجليزى الجديد مسلحاً ببنادق ذات مخزن للخرطوش من ماركة «لى متفورد Lee-Metford». وكانت هذه البنادق تمتاز ببعد مرماها، ولكن رصاصها كان قطره صغيراً بحيث لا يحدث فيمن يصيبهم إلا ثقوباً صغاراً، ومن ثمة كان من المشكوك

فيه أن تصد اندفاع الهجمات التى اشتهر بها الدراويش . ولكى يمكن تدارك هذا العيب ، عكف بعض رجال اللواء الإنجليزى على تجويف الرصاص من الطرف المدبب إلى عمق نصف بوصه ، وأجريت التجارب على القذائف ، فدلت على أنها – بفضل هذا التجويف – تنفجر كالشمسية عند الاصطدام بأى جسم ، فتحدث به ثقباً واسعاً يحقق الإصابة المطلوبة . ولم تلبث أن عمت هذه التجربة سائر الفرق الإنجليزية ، حتى تم إعداد مليون رصاصة من هذا القبيل ، لتستعملها الجنود الإنجليزية بقيادة الجنرال جاتاكر ، في معركتهم القادمة ضد الدراويش .

بهذا الرصاص الذى صار معروفا باسم « دم دم Dum Dum » وهو الذى استنكرت استعماله بعد ذلك سائر الأمم المتمدينة ، قابل جيش الجنرال جاتاكر تحت القيادة العليا للسردار كتشنر جيوش الدراويش بقيادة القائدين الأمير محمود وعثمان دقنه أمام عطبرة . وقد انجلت المعركة كما هو المنتظر عن اندحار الدراويش تاركين وراءهم ٣٠٠٠ قتيل و ٢٠٠٠ جريح ، لا يرجى لمعظمهم البرء من جراحهم ، وكان الأمير «محمود» قائدهم من الأسرى الذين بلغ عددهم الألفين . وإذا كان مايقرب من نصف جيش الدراويش قد نجوا بحياتهم ومنهم القائد الكردى الأصل عثمان دقنة المغوار المكار ، فإن الكثيرين منهم لن يعيدوا بعدها الكرة أمام هذا الذى واجهوه من المدافع الثقيلة والمدافع السريعة ، وبخاصة أمام ما يستعمله الإنجليز من رصاص «دم دم» الممزق الفتاك .

وقد كان الخليفة التعايشى يتلقى أنباء الهزائم واحدة بعد الأخرى ، رابط الجأش ، لايبدو عليه التخاذل والجزع ، وكان لايقبل العزاء في من ينعى إليه من الأنصار ، لأنهم قد استشهدوا ، وحقهم أن يحسدوا على سبقهم إلى جنة الأبرار . فلما انتهت موقعة عطبرة إلى ما انتهت إليه من الهزيمة المنكرة ، وعاد قائده عثمان دقنه بعد الاندحار إلى أم درمان عاصمة الخليفة ، سأله الخليفة سؤال من يتجاهل الأخبار :

«ما وراءك ، وكيف حال الأنصار ؟ » :

فأجابه على جارى العادة ، وإن جاء جوابه هذه المرة شديد الاختصار : « سيدى ، قُدْتَ الأنصار إلى الجنة » . ولم تكن هذه بالمرة الأولى التى يسمع فيها الخليفة أخبار الهزائم تصاغ على هذه الصورة ، ولكنه في هذه المرة لم يتمالك أن راجع قائده بما يحمل معنى التعريض به : «ولماذا لم تلحق بهم إلى الجنة ؟ »

ولكن عثمان دقنة في سعة مكره وسرعة بديهته لم يفته أن يقول في خشوع المؤمن :

«لم يأذن الله بعد ، ولعله سبحانه وتعالى ادخرنى لعمل مهم سأقوم به»

ثم لم يزد على هذا تاركاً للخليفة أن يدرك ما وراء هذا القول المختصر من الهول المنتظر :

والواقع أن المعركة التى دار عليها هذا الحوار بين الخليفة القاسى الجبار وقائده الكردى المغوار المكار ، كانت معركة حاسمة في كسرها جيش الأنصار شر كسرة ، ولكنها لم تكن بالمعركة الأخيرة القاضية :

سقوط عاصمة المهدي

وانتقام كتشنر لمواطنه غوردون

كان بعض المتفائلين من الإنجليز يذهب بهم الظن إلى أن الخليفة «عبد الله التعايشى» سيلقى سلاحه ويعلن التسليم ، بعد ماثبت له ثبوت اليقين ، أن آلة الحرب التى يواجهها لاقبل له بها ، ولاسبيل إلى قهرها . ولكن كتشنر لم يكن بالذى يحسن الظن ، فلم يلق إلى هؤلاء بالاً ، ومضى يتخذ الأهبة للزحف الأخير .

وكان كتشنر في ذلك على حق ، فإن «أم درمان» عاصمة المهدى كانت حتى اليوم كالحرم القدسى لم يمسسه أجنبى ، وما من أحد انتهك أسوارها ، ولا رصاصة خدشت طين جدارها . إنها قلب المهدية ، والكعبة التى يحج إليها الأنصار حجَّهم إلى أقدس مزار(١) ، إلى قبر المهدى القائم هنا في أم درمان رمزاً للثورة ، ومناراً يذكى حماسة الثوار ، فهيهات هيهات تسليمها للكفار ، إلا أن يستشهد دونها عشرات الألوف من المؤمنين الأبرار .

وكانت الأخبار قد تسربت إلى العاصمة بما قد تعرض له الأنصار من انكسار يتلوه انكسار ، والخليفة يشدهم إليه ويمنع انصرافهم عنه ، ويجبر ما تصدع من إيمانهم فيه ، بما يرويه من هبوط الوحى عليه ، وما يُكاشَف به في المنام من الرؤى والأحلام ، وفي هذا جميعه الوعد الحق بتعزيز جنده بجند من الملائكة . بيد أن التعايشى إلى جانب دعواه في الاتصالات العلوية والرؤى والمنامات ، كان يعتمد على ما تجهز به من تحصينات كان وراءها ٦٤٠٠٠٠ مقاتل . أما السردار فلم يدع — من جانبه هو الآخر — جهداً إلا بذله في توفير الرجال والذخيرة والمراكب الحربية ، وبالجملة تعهد

(١) كان الحج إلى الحرمين ممنوعاً فى دولة المهدى ، خوفاً علي تعاليمه من الضياع .

آلة الحرب وصقلها وتشحيمها ، وزيادة قطعها ، وسائر مايتصل بها في دقيقه وجليله ، حتى حار كاتبو سيرة كتشنر عند الكتابة عنه : أيكتبون سيرة رجلٍ قتال ، أم رجلٍ أعمال ؟

وكانت الحكومة البريطانية قد قررت في يولية إمداد السردار بآلاى كامل آخر ومعه الفرسان والمدفعية ، فضلا عن المهندسين والفرق الطبية ، بحيث بلغ عددهم ٧٥٠٠ ، كما زيدت القوات المصرية إلى ١٢٥٠٠ عدا ٢٥٠٠ من العربان الموالين من عرب العبابدة والجعليين والجميعات والمسلمية والشكرية والشايقية والبطاحين وغيرهم ، وعلى ذلك يمكن تقدير الحملة بنحو ٢٢٠٠٠ على أقل تقدير . وكانت الأمداد تصل بالسكة الحديدية حتى الشلال ، ثم تحملها البواخر إلى وادى حلفا ، ثم يكون نقلها بالسكة الحديدية من طريق أبو حمد إلى العطبرة .

وفي أغسطس تقدم كتشنر كعادته في خطىً ثابتة غير متعجلة ، بجيوشه المصرية والإنجليزية بمعداتها ، والمراكب الحربية تتقدم في النيل ، والعربان الموالية تسير براً في الشرق بحذائها حتى بلغوا «عجيجة» على ستة أميال شمالى أم درمان عاصمة المهدى . ولم يفت السردار أن يبعث إلى الخليفة في أغسطس كتاباً على سبيل الإنذار .

وفي أول سبتمبر عندما أصبحت الحملة المصرية الإنجليزية على مرمى النار ، ظهرت البوادر الدالة على وجود الدراويش ، وإذا بهم قد أقبلوا من المدينة حشوداً حاشدة لاتقل عن الخمسين ألفا وقد تزيد ، وتتابعت صفوفها في موكب هائل ، ثم وقفت وانتهى العرض وأخذت مواضعها . وكان السردار قد اختار لقواته موقعاً على ارتفاع قليل على مقربة من «تل كريرى» شمالاً ، وجبل ضرغام جنوباً ، ومن وراء هذا الموقع ينبسط النيل متسعاً عريضاً ، بحيث يكون المعسكر على شكل هلال يعتمد طرفاه على النيل تحت حماية المراكب الحربية. وقد تعمدت المراكب الحربية في ذلك اليوم أن تدور حول جزيرة «توتى» الصغيرة ، وتطلق بعض القنابل من مدافعها على قبة ضريح المهدى البيضاء ، في

وسط المدينة ، رغبة في تقويض الاعتقاد عند المهدية في سره القدسى وقوته الروحية .

وفي اليوم التالى وهوالثانى من سبتمبر ، في منتصف الساعة الرابعة صباحاً ارتفع نداء النفير في الفجر إيذاناً بتوقع الهجوم . وفي الساعة السادسة والدقيقة الأربعين ، سمع لجب الدراويش ، وعلى أثره لاحت راياتهم خضراً وسوداً وبيضاً وزرقاً ، وظهر تحتها حشد هائل يبدو من عدد الرايات أنه خمسة فيالق ، وسمعوا يكبرون : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتقدم أمراء الجيش وشيوخه ، واختال فرسان البقارة على ظهور الخيل أمام المشاة . وعندها أطلقت الحملة المصرية الإنجليزية نيران المدفعية ،وبدأت المعركة . ولم يقصر الدراويش في إطلاق مالديهم من مدافع كانوا غنموها في ثورتهم الأولى ، ولكنها كانت أقصر مدى من المدافع الحديثة التى يستعملها الإنجليز . كما أن استعمال الإنجليز رصاص «دم دم» الفتاك ، كان يفتك بالدراويش فتكاً ذريعاً . وكانت لهذا الرصاص ميزة أخرى ، وهى أنه لا دخان له ، فكانت الرؤية جلية لإصابة الرميّة . وكان الدراويش تتهاوى صفوفهم الأمامية ، فيحل محلها على الفورمن كانوا وراءها،وهكذا كانوا يتساقطون أكداسا على أكداس فوق ساحة الحرب التى أصبحت بيضاء بما يغطيها من صرعى الدراويش في بيض ثيابهم الملطخة بالدماء . وكان مشاتهم في قتالهم الفرسان الإنجليز يعمدون إلى إصابة عرقوب الفرس ، حتى إذا أكب الفرس طعنوا الفارس بحرابهم . وقد كان هجوم الدراويش أول الأمر منصباً كله على الفرق الإنجليزية . ولكن حر النار من المدافع الحديثة ورصاص «دم دم» ما لبث أن حوّلهم إلى القوات الأخر . وكان فرسان قبائل البقارة يهجمون بخيولهم المسرعة وسيوفهم المصلته أو حرابهم المشرعة ، ولا يتراجعون . فإذا توقف هجومهم لم يكن لذلك سبب إلا أنهم قد بادوا عن آخرهم .

لقد أبلى قادة الدراويش جميعاً بلاء حسنا ، ومع ذلك دارت الدائرة عليهم ، فقد كانت المعركة بين العلم الحديث والجهل القديم ، وفيما عدا ذلك ، لم يكن هنالك فارق بين المغلوب والغالب ، من حيث روح التضحية وحسن البلاء في القتال .

وانجلت هذه الوقعة الهائلة ، وعلى الرمال من صرعى الدراويش نحو من ١١٠٠٠ قتيل و ١٦٠٠٠ جريح أى نحو ٢٧٠٠٠ من مجموع جيش الخليفة وعدته ٥٢٠٠٠ أما الباقون فقد فروا هائمين على وجوههم ، حتى الخليفة التعايشى نفسه فر برأسه غير مفكر في الارتداد إلى داخل أسوار العاصمة والتحصن خلفها لمواصلة الدفاع .

وهكذا سجل التاريخ أنه في اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، بعد معركة دامت خمس ساعات ، سقطت الدولة المهدية في السودان .

وفي ذلك اليوم نفسه في الساعة الثانية بعد الظهر ، دخل كتشنر أم درمان أو على الأصح أطلال أم درمان ، ومعه أركان حربه ، وبعض فيالقه وممثلون للفيالق الأخر ، ومن وراء ظهره علم الخليفة الأسود ، وهنا أصدر كتشنر تعليماته في شأن قبر المهدى الذى حطمت القنابل بالأمس قبته العالية . فأمر بهدم القبر ، وإخراج رفات المهدى منه ، وإحراقها فيما عدا رأسها في موقد إحدى البواخر النيلية ، والإلقاء بالرماد في النيل . وأما الرأس فقد صنع الإنجليز به ما صنع الدراويش برأس غوردون ، إنها جزت ، وكما قضت تعليمات كتشنر أرسلت إلى متحف الأنثروبولوجى في لندن .

وبعد يومين ، وكان يوم الأحد الرابع من سبتمبر ، عبر كتشنر النيل إلى الخرطوم ، حيث توجه تواً إل ما بقى من سراى غوردون . فأقيمت أمام خرائبها المظللة بالنخيل صلاة دينية على روحه ، وكان القداس في الموضع نفسه الذى كان فيه مصرعه ، وشهد الصلاة ممثلون لمختلف فرق الحملة ، وقد تقدمهم أركان الحرب ، وأربع قساوسة من جميع الطوائف . وفي وسط الجميع كان كتشنر واقفاً في خشوع يشوبه شيء من الرضا

والقنوع ، لقد انتقم كتشنر لمواطنه غوردون . وعلى أثر إشارة من كتشنر ، خفقت راية فى أعلى هذا البيت المتهدم ، بيت حاكم السودان القديم ، لقد رفع العلم البريطاني ، ثم رفع من بعده العلم المصرى ، ومع رفع العلمين سمع عزف النشيدين الإنجليزى والمصرى . وهكذا كان إعلان الحكم الثنائى ، إعلانه على حقيقته من حيث الترتيب والتعقيب .

ولعل خير ما نذكره هنا ، هو هذه الأبيات التى قالها حافظ ، وهو يذكر ما أحسه حين طالعه العلمان الإنجليزى والمصرى في مدينة الخرطوم . إن الذى أحسه الشاعر نجده هنا محسوساً ملموساً ، في نغمة الأسى ذات الرنة المضاعفة ، في هذه الأبيات التى تقرن أسى الشاعر على مصر إلى أساه على السودان ، كما اقترن العلمان على سراى الحاكم العام في ذلك الأوان . ونحن قبل أن نورد الأبيات الحزينة الأليمة ، نحمد إلى الله أبطال عهدنا الحاضر ، على ما بذلوه من الجهد المؤيد الظافر ، الذى انتهى إلى تغير تلك الحال الموصوفة ، إلى الخاتمة السعيدة المعروفة ، التى تحقق بها في مصر والسودان زوال الاحتلال عنها ، وكمال الاستقلال لكل منهما ، وقيام الأخوة العربية الموثقة الأواصر بينهما(١) .

رويدك حتى يخفق العلمان ... وتنظر ما يجرى به الفتيان
فما مصر كالسودان لقمة جائع ... ولكنها مرهونة بأوان
أكبر ظنى أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان

(١) تحقق للسودان استقلاله فى أول يناير سنة ١٩٥٦ وانضم في ١٩ من يناير إلى الجامعة العربية .

الاستعمار الإنجليزي فى خطر

الفتنة المصرية السودانية في الخرطوم

تقدم بنا كيف تم انتصار الحملة المصرية بقيادة كتشنر على الدراويش في السودان ، بسقوط أم درمان عاصمة المهدية في الثانى من سبتمبر عام ١٨٩٨ ، وبعد يومين أى في الرابع منه كان دخول الخرطوم . ولما كان الخليفة عبد الله التعايشى قد اختفى بعد المعركة الأخيرة ، فقد استمرت مطاردته حتى ظفرت به في ٢٤ من نوفمبر حملة بقيادة السير رجينالد ونجت وكيل السردار عند بلدة « جديد » . فاستقبل الخليفة الموت — ومعه صحبه — بجنان ثابت حين أحس بالنهاية المحتومة . فقد مد الخليفة فروة على الأرض وجلس عليها ، ومن حوله جلس أمراؤه عن يمينه وشماله ، وهنا استقبلوا مصرعهم دون أن يجفلوا .

ولم يلبث السردار بعد ما أحرزه من انتصار أن استقل وأركان حربه البواخر النيلية من أم درمان في ٣ من أكتوبر إلى العطبرة ، ثم السكة الحديدية إلى حلفا ، ومن حلفا استقل باخرة نيلية إلى أسوان ، ثم السكة الحديدية إلى القاهرة حيث كان وصوله إليها في ٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، أى أن الرحلة لم تستغرق غير ثلاثة أيام ، وهى أقصر مدة عرفت إذ ذاك .

وأكبر الظن عندنا ، وقد انتهت عمليات القتال ، ووضعت الحرب أوزارها ، واستؤنفت المواصلات بين شرقي السودان ووسطه ، أنه في ذلك الأوان كان صدور الأمر بنقل حافظ — مع من نقلوا — من الأطراف النائية ، إلى الخرطوم في أوائل سنة ١٨٩٩ .

ولا نخال أن هذا النقل كانت تقوم أمامه أية صعوبة الآن ، إذ أنه من

غير المعقول أن يظل ما حدث ، في يوم من الأيام ، من غضب كتشنر عليه مذكوراً عند السردار الجبار ، في أثناء كل هذه الأحداث الجسام ، وبعد ما أحرزه من الانتصار واكتسب لنفسه من الفخار .

ولا شك أن حافظ وهو في الخرطوم ، قد بدأت نفسه تأنس إلى الحياة في السودان ، وكان على قول صديقه الأستاذ عبد العزيز البشرى يلازم في السودان الأستاذ العلامة الشيخ الخضرى ، وربما اتصل كذلك بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب وغيرهما ليأخذ منهم وينتفع بعلمهم وأدبهم ، كما كان يواصل الاجتماع بالزملاء من الضباط للحديث في شئونهم الخاصة والشئون العامة ، مع غير قليل من المفاكهة والمنادرة ، والخوض في الأدب وإنشاد ما يحضرهم من الأشعار ومنها ما ينشده حافظ لنفسه .

ولما كانت الحال لا تخلو من وجود بعض الوجوه الوسيمة بين شباب الضباط ، فإن الشاعر كان في بعض الأحيان يحيي هذه الوجوه ببعض الأبيات مثل قوله :

ومن عجب أن قلدوك مهندا ... وفي كل لحظ منك سيف مهند
إذا أنت قد جردته أو غمدته ... قتلت به واللحظ لا يتعمد

ومن هذا القبيل أيضاً هذه الأبيات ، وهو يعرض فيها بما كان من حرص الإنجليز على تحريم الرق في السودان مع احتلالهم لمصر .

ظبي الحمى بالله ما ضركا ... إذا رأينا في الكرى طيفكا
وما الذى تخشاه لو أنهم ... قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟
قد حرموا الرق ولكنهم ... ما حرموا رق الهوى عندكا
وأصبحت « مصر » مراحاً لهم ... وتلك أحشائى مراح لكا
ما كان سهلاً أن يروا نيلها ... لو أن في أسيافنا لحظكا

وقد كان من اشتهار حافظ بالأدب وطلاقة اللسان وحسن البيان عند الضباط بالسودان أنه كان إذا عقد مجلس عسكرى لمحاكمة أحد الضباط ،



عبد الله نديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها

انتخبه المتهمون للدفاع عنهم أمام هذا المجلس ، وهو عند القوم معروف باسم « محكمة الجيش » . وكانت هذه المحكمة تتألف من رئيس إنجليزى أومصرى بحسب الظروف ، وسبعة أعضاء من الضباط المصريين والإنجليز ، وإلى جانب هؤلاء عضو يسمى نائب الأحكام ، مهمته إرشاد المجلس إلى الموقف من الناحية القانونية المتبعة ، وهناك المدعى العمومى وهو ممثل الاتهام ، يقابله محامى المتهم الذى يتم اختياره بمعرفة المتهمين ، وقد كان لحافظ إبراهيم شرف اختيارهم له أكثر من مرة . ولقد روى حافظ إبراهيم للأستاذ طاهر الطناحى أن عدد القضايا العسكرية التى دافع عنها أمام محكمة الجيش تبلغ العشرين ، كان الحكم فيها كلها بالبراءة ، ما عدا قضية واحدة كانت التهمة المنسوبة فيها إلى المتهم هى القتل ، وقد اعترف المتهم بالتهمة مراراً فلم يبق من وسيلة لتبرئته .

ونحن إذا ذكرنا ما كان لحافظ قبل وفوده على السودان من مزاولة المحاماة فى طنطا بضع سنوات ، لم يداخلنا أدنى شك فيما يقوله حافظ عن نفسه فى حسن بلائه فى هذا الميدان ، فى أثناء وجوده فى السودان .

وقد حدث فى أواخر سنة ١٨٩٩ — فى أثناء وجود حافظ فى السودان — أن نشبت ثورة البوير على الإنجليز فى الترنسفال فى جنوب إفريقية ، فاستخفت الحكومة البريطانية بأمرها ، وظنت أن جنودها هنالك قادرون بين عشية وضحاها على سحقها . فإذا الإنجليز تتوالى عليهم الهزائم واحدة بعد أخرى .

وعلى أثر هذه الهزائم فى الترنسفال ، قررت الحكومة البريطانية أن توفد إليه قائداً من أقدر قوادها الذين أثبتوا حسن البلاء فى إخماد الثورة فى الهند . وهو اللورد روبرتس ، وأرسلت له بذلك برقية فى ١٨ من ديسمبر ١٨٩٩ . وقبل أن يسافر اللورد إلى ميدان الحرب فى الترنسفال أرسل إلى كتشنر يعرض عليه أن يعمل معه رئيساً لأركان حربه ، فلم يتردد كتشنر فى قبول الدعوة ، واستقل الباخرة من الخرطوم فى الحال . وفى

٢٣ من ديسمبر كان في الإسكندرية في طريقه للحاق بقائده الأعلى لمواجهة الأهوال معاً في حرب الترنسفال .

وقد خلفه وكيله السير ريجنالد ونجت سردارا للجيش المصرى ، وحاكماً عاماً على السودان .

وبينما كان السردار ونجت بالقاهرة ، وردت عليه برقية بقيام فتنة من بعض الفرق السودانية وضباطها . ولما كانت هذه البرقية وموضوع فحواها من الأمور التى لا تشير إليها المؤلفات العامة في التاريخ ، فقد عنينا بالرجوع إلى المذكرات التاريخية ورسائل التاريخ الخاص ، وفيما يلى ما تيسر لنا جمعه في هذا الشأن :

كان أول ما رجعنا إليه من المراجع ما كتبه الفرنسيون في تاريخ مصر الحديث ، بحكم العداء التقليدى بين السياسة الإنجليزية والفرنسية ، لما كان قائماً بين الدولتين من التنافس على النفوذ في الشرق . ولقد وقعنا على ما كنا ننشده عند المؤرخ الفرنسى ليون برهييه في كتابه « مصر بين عام ١٧٩٨ وعام ١٩٠٠ » فقد وردت فيه فقرة عن هذه الفتنة التى خنقت في مهدها ولم يطل أجلها ، وهذه ترجمتها :

« بعد انتصارات كهذه ، كان يمكن أن يبدو فتح السودان راسخ الأساس وطيد الأركان ، ولكن أحداثاً ليست في الحسبان ، أثارت المخاوف عند الساسة الإنجليز ، واستلزمت منهم اتخاذ المزيد من التدابير . لقد نشبت حرب الترنسفال ، فاضطرت الإنجليز إلى تخفيض جيش الاحتلال في مصر ، وحرمان السودان من فاتحها ذى الجبروت والسلطان ، فقد كان لزاماً على كتشنر أن يبادر إلى مدينة الكاب ، ليكون إلى جانب الفيلد مارشال روبرتس رئيساً لأركان حربه . فإذا خلفهُ حاكم السودان العام السردار ونجت يشتبك مع أورطة سودانية متمردة لم يطق بعض ضباطها وصف ضباطها صبراً على قيادة ضباطهم الإنجليز الذين كان معظمهم

دونهم سناً . وعند ما ظهرت بوادر العصيان صدرت الأوامر بتجريد أورطتين من السلاح وتسليمهم الذخيرة ، ولكن الجنود اقتحموا مخازنها واستردوها . فاستدعى الأمر تجريدهم من السلاح ثانية ، وكان من معقبات هذا البدء في التمرد الحكم بتنزيل رتبة البعض من الضباط ، وأن يستبدل بالحامية غيرها في فبراير سنة ١٩٠٠ » .

وبعد هذا تحولنا إلى المؤرخين الإنجليز الذين كتبوا تاريخ مصر في هذه الحقبة فألفيناها خالية مما ننشده ، واتجه تفكيرنا على الفور إلى كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر ، وهو أوفي تقرير عن أحداث مصر وأحوالها في ذلك الأوان من وجهة نظر المعتمد البريطاني ، وما كان أشد عجبنا حين لم نجد فيه إشارة إلى هذه الفتنة ، كما لم يرد ذكر للخديوى عباس حلمي نفسه وهو الذى وقعت الفتنة في عهده . ولكن إغفال كرومر لذكر الخديوى في كتابه الكبير ، ألهمنا الاتجاه إلى كتابه الصغير الذى أفرده للكلام عن صاحبه اللدود « عباس الثانى » فوقعنا في ختامه على الضالة المنشودة ، وفيما يلي ترجمتها :

« عندما شبت الحرب في جنوبى إفريقيا ، استدعى الأمر عودة الكثيرين من خيرة الضباط البريطانيين الذين كانوا يتولون قيادة الفرق السودانية في الجيش المصرى ، المرابط في السودان ، إلى فرقهم الأصلية في الجيش البريطانى . ونظراً لبعض الملابسات التى لا حاجة بى إلى ذكر تفصيلاتها والتى ما كانت لتقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط المحنكون إلى السفر ، حدث أن عم استياء في الجيش ، وجاهرت فرقة من الفرق السودانية بالعصيان . وقد تواترت الإشاعة بأن الخديوى قال أقوالاً تجعل الثائرين يعتقدون أنه راض عنهم عاطف عليهم . على أن الثورة أخمدت دون إراقة دماء ، وحوكم عدد من زعماء الفتنة أمام المجالس العسكرية ، وحكم عليهم بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسلوا إلى القاهرة ليقضوها بها .

ولما حادثت الخديوى في هذه المسألة ، رأيت من المستحسن أن أتجاهل

ما كان يقال عن أنه ضالع مع المتمردين ، لأنه كان من المتعذر - وربما من المستحيل - إقامة الدليل القاطع عليه . واقتصرت في حديثي على وصف ما أظهره بعض جنوده من الخروج الخطير عن والانتقاض طاعته عليه والوقوف في وجهه ، واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم ، ويخاطبهم بكلمات اخترتها وعربتها له . فوجد الخديوى نفسه في مأزق حرج وموقف لا يدرى كيف يخرج منه ، لأن الرفض والقبول غير مستساغ عنده ، فهو إذا رفض يعرض نفسه للشبهة في أنه حرض على الثورة في جيشه ، كما فعل جده من قبله . وإذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم في مساعدة ذات شأن من جانبه ، وبذلك يفقد كثيراً من نفوذه السيء في الجيش . وفي آخر الأمر ، لم يكن من الخديوى - كما كنت أتوقع - إلا أن اختار الأمر الأخير » .

أما المراجع العربية ، فقد أحصينا فيما يلى ما وقعنا عليه فيها :

جاء في مذكرات أحمد شفيق :

« في ٢٨ من يناير سنة ١٩٠٠ ، حضر إلى السراى ونجت باشا ، فأبلغ الخديوى عزمه على السفر سريعاً إلى السودان نظراً لتمرد أورطتين في الجيش ، على أثر صدور أمر مكسويل باشا نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه ، فأبت الأورطتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من المساس بكرامتهما ودلالته على عدم الثقة بالجيش ، وأنه قد أطلقت بعض الطلقات النارية وجرح بعض الجنود ، وقبض على بعض الضباط ، وأودعوا السجن . وقد أوصى الخديوى ونجت باشا باستعمال اللين في معالجة المسألة ، لأن هذا التذمر وليد الشدة التى استعملت في عهد السردار السابق كتشنر باشا ، في أثناء حملة السودان ، مما أدى إلى إضمار الإحنة في نفوس رجال الجيش . وتواترت الإشاعات بعد ذلك ، وأخذ أنصار الاحتلال يهونون في الموضوع قائلين : إن سبب العصيان هو تحريض الضباط المصريين في الأورطتين لجنودهم على التمرد وعدم إطاعة الأوامر . وفي ١٠ من فبراير حضر للسراى

رئيس النظار مصطفى فهمى باشا في وزارته الثانية (١٢ نوفمبر ١٨٩٥ — ١٢ نوفمبر ١٩٠٨) لمباحثة الخديوى في الموضوع على أثر برقية وردت له من السردار بأنه يحقق مع بعض الضباط المصريين الذين يظن أن لهم يداً في الموضوع ، وأنه تم تسليم السلاح من بعض رجال الأورطتين بواسطة الضباط السودانيين منهما . وكانت المباحثات بين الخديوى ورئيس النظار تدور حول استصدار أمر عال من سموه باعتبار الضباط الذين تثبت عليهم التهمة عصاة متمردين مهددين لسلامة الجيش ، ليكون عقابهم شديداً رادعاً لغيرهم ، فأبى الخديوى عباس مع استشارة رجال معيته أن يافق على ذلك لأن كل البرقيات التى وردت له من السردار لم تلق على أى ضابط مثل هذه التهمة الكبرى ، وكل ما يؤخذ منها أن بعضهم خالف أوامر رؤسائه ؛ وهؤلاء يحاكمون فقط حسب القانون العسكرى ، وانتهى البحث بإرسال برقية للسردار فيها ما يلى :

أولاً : إظهار الأسف من أن حالة التمرد التى ظهرت من بعض عساكر الجيش لم تحسم نهائياً .

ثانياً : أن الجناب العالى أمل في سعادة السردار أن يستعمل نهاية الحكمة في تلافي المسألة ، والدقة الزائدة في تحقيقها ، حتى لا تلقى المسئولية إلا على المسئولين الحقيقيين .

ثالثاً : أن الضباط الذين تثبت مخالفتهم لأوامر رؤسائهم يحاكمون أمام مجلس عسكرى عام طبقاً للقوانين العسكرية .

رابعاً : أنه إذا اقتضت الحال نشر أمر الخديوى هذا على الضباط والعساكر لدعوتهم إلى الطاعة والسكينة ، فلا بأس من أن تقوم السردار بذلك .

وأعرب سموه في الختام عن أمله بألا يصل هذا الأمر إلى السردار حتى تكون المسألة قد انتهت بالحسنى ، وعادت العساكر إلى تمام الطاعة للرؤساء .

وفي ٢٤ من فبراير أرسل السردار برقية بقرار مجلس التأديب الذى شكل في الخرطوم لمحاكمة المتمردين ، فإذا هو يقضى بطرد بعض الضباط المصريين من الخدمة ، وإحالة آخرين إلى الاستيداع ، وعقاب بعض الأومباشية بالطرد وبعضهم بخصم جزء من راتبه أو تنزيله إلى رتبة أقل ، فوافق مجلس النظار على هذا القرار في جلسة ٥ مارس ، وأرسله للخديوى في أثناء رحلته في الصحراء الغربية فاعتمده .

وعلى أثر ذلك وردت إلى الخديوى رسالة من صحفى أجنبي في ١٥ من مارس يظن أنه ألمانى مقيم في مصر ومطلع على ما يجرى بها خفية وعلانية ، ولما قرأها سموه تألم مما جاء فيها من القذف ، ونورد هنا ترجمة هذه الرسالة بنصها :

« إن الضباط الذين حوكموا أمام المجلس العسكرى السودانى ومعظم أعضائه من الإنجليز جديرون بشكر الوطن ، فإن ما قالوه وطالبوا به هو عين الحق والإنصاف ، فقد طلبوا أن يعطوا نفس المرتبات التى يتقاضاها الضباط الإنجليز ، فلماذا لا يجاب طلبهم هذا ، وهل جلد المصرى أقل قيمة من جلد الإنجليزى ، وما هو الباعث على هذا التمييز ؟ وقالوا إن الإنجليز كسروا في جنوب إفريقية ، أفليس هذا صحيحاً ؟ وكيف يلامون إذن على ذلك ؟ وقالوا إن مقداراً من المدافع أرسل إلى الكاب من مصر وهى دولة محايدة وقد ملأ حديث هذه المدافع العالم بأسره ، فهل تظنون يامولاى أن هذا الأمر مما يؤدى إلى توطيد عرشك ؟ كلا ، وسوف ترى فيما بعد أن الأمور تجرى على غير ما تريد ، لأن مصر لن تستطيع إلا أن تحترم حياد القنال ولو كره نظارك . وقال هؤلاء الضباط ، إن الذخائر الحربية أرسلت إلى الكاب مع ٢٠٠ مركبة من مركبات السكة الحديدية ، أليس هذا صحيحاً ؟ ذلك ما آلم الإنجليز لأنه أماط اللثام عن مكرهم وخبث طويتهم ، وأنت يا مولاى قد ذهبت بك الجرأة إلى الموافقة على كل ذلك ، وإنه لمن العار على أمير أن يعمل مثل هذا العمل غير ناظر إلى مصلحة بلاده ، ثم إن السردار

الذى سلب مدافع المكسيم ، وسرق الذخائر الحربية المرسلة إلى مصر ، ومركبات السكة الحديدية المصرية لايزال فيمنصبه ، ولم تفه أنت بكلمة ، إذن أنت ملك مزيف ، ملك من الكرتون . لقد قال الضباط إن سرقة المكسيم من الأمور الغريبة في بابها ، وهذا ما قالته صحف العالم بأسره ، وأنت لم تفعل شيئاً لمعاقبة السارق ، وهذا ما يدل على أن الأمر تم بموافقتك ، ويلوح لى أنك وافقت على كل هذه السرقات ، لأنك لم تتوسط للضباط للعفو عنهم . وهناك مسألة الجندى الإنجليزى الذى قتل رئيسه وهو ضابط مصرى فإنه لم يعدم رمياً بالرصاص في اليوم التالى لوقوع الجناية بحسب القانون ، ولماذا هذا ؟ يقال إن هذا الجندى يمرح الآن على ضفاف التاميز ، فما أجمل هذا ، ولا سيما أنك سمحت بأن يعدم رمياً بالرصاص جنديان سودانيان لأنهما هربا من الجندية في وقت السلم ، وهذا ما يعد وصمة عار تلحقك مدى الحياة ، وقد وقع هذا الأمر قبل حملة السودان التى جردت لمصلحة الإنجليز بأموال مصر ودمائها .

إنك تجهل السبب الذى حكم من أجله المجلس العسكرى الإنجليزى على هذين الجنديين المسكينين بالإعدام رمياً بالرصاص في أيام السلم ، ذلك أن الإنجليز كانوا على وشك افتتاح السودان ولم يكن أحد عارفاً بذلك ، فأرادوا أن يوردوا مثلاً بإعدام جندى فار من الجندية في أيام السلم ، ولكن أوروبا برمتها استنكرت مثلهم هذا . لقد شعروا فيالمدة الأخيرة باحتياجهم إليك ، أو أنهم تظاهروا بذلك ، لاجتذاب الجنود السود إليهم ، فما هذا المكر ؟ .

لقد خدعوك يا مولاى يوم أكرهوك على حضور حفلة افتتاح البنك الذى أطلق عليه اسم « البنك الأهلى » إن هذا يعد احتقاراً لك ، وقد ساقوك إلى هذه الحفلة كما يساق الخروف ، ورأيتهم بعينيك وأنت صامت يضعون تحت الحجر الأساسى ورقة تتضمن تاريخ إنشاء هذا البنك وهى مكتوبة باللغة الإنجليزية وليست بالعربية طبعاً ، ومع ذلك حضرت الحفلة مكرهاً ،

لقد أصابت صحف برلين في وصف هذه الحفلة على الصورة المتقدمة في هذه الرسالة .

لا يخفى عليك يا مولاى أن الضباط الذين حوكموا وعوقبوا هم من صميم الوطنيين فإن دم الوطنية يجرى فى عروقهم ، وهم من خيرة الناس وأكثرهم جرأةوشجاعة كما قال عنهم إمبراطورألمانيا ، نعم هممن الشجعان ، ولم يحسبوا للإنجليز حساباً ، وسيكونون فى الأيام المقبلة خير أداة لإحياء مصر وإنهاضها . نعم ؛ إن الدم الذى يجرى فى عروق هؤلاء الشجعان ، إنما هو دم كريم طاهر ، وأنا أؤكد لك أن مائتى رجل على مثالهم يكفون لتحرير مصر من نير الإنجليز .

لقد قال الضباط إن جنودنا السود سيقوا في طريق البحر الأحمر ، فإلى أين يذهبون بغير ضباطهم ؟ وهم على حق في سؤالهم هذا ، ولم يكادوا يلقون هذا السؤال حتى كتب تقرير في حقهم باللغة الإنجليزية ، لأنهم أدوا الواجب المفروض عليهم ، فما أجمل هذا العمل يا مولاى ، وما أحرى بأن يقال عنه « ليس في الإمكان أبدع مما كان » .

ثم إن هناك أمراً آخر يستوقف النظر ، وهو أن المسمى « برش بك » من موظفى الداخلية متغيب في أجازة ثلاثة أشهر ، وقد انقضت مدة إجازته ولم يعد بعد ، ثم إنه يتقاضى مرتبه من خزينة الحكومة الإنجليزية أى أنه يتقاضى مرتين اثنتين ، من الحكومتين المصرية والإنجليزية ، ولا غرو فالإنجليزى حاد الأسنان طويلها . وفي اعتبارى أن هذا الضابط سيطلب من الحكومة المصرية إجازة مرضية ، وإنى مستعد أن أراهن على ذلك فأدفع مائة جنيه مقابل جنيه واحد .

لنفرض أن الضباط الذين عوقبوا يستحقون العقاب الذى حكم عليهم به ولكن ما قولكم في السردار الذى تصرف في مدافع مصر تصرف المالك في ملكه ، وكيف تفسر أيها الأمير التعس حياد مصر ؟ وما هى في اعتبارك قيمة هذا الحياد ؟ إن جميع صحف العالم تحدثت بهذا العمل الغريب

مشيرة إلى حياد مصر ، وإلى الأسلوب الذى اتخذته مصر للاحتفاظ بحيادها هذا ، فما أجمل هذا الحياد الذى قد يفضى بصورته هذه إلى عواقب خطيرة ، وهو ما لا بد من وقوعه ، ومن يعش ير .

إن أسماء هؤلاء الضباط ستنقش أيها الأمير على رغم أنفك في صحائف من النحاس تخليداً لعملهم الوطنى الجليل ، لقد سلمت بمعاقبة ضباط كشفوا النقاب عن مبادئ الذين أقاموا نفوسهم محامين عنك ، وأعلنوا على رءوس الملأ أعمالهم السافلة ، مبينين ما انطووا عليه من الخبث واللؤم وعدم الإنصاف ، إنه لمن العار عليك يا مولاى ألا تكون نطقت بكلمة احتجاجاً على سلب مصر مدافعها ، إنك لم تقل كلمة واحدة للسارق حتى جعلت أوربا برمتها ، ولا سيما برلين تسخر منك وتحتقر عملك ، ووصفتك بملك الكرتون قائلة إنك من الممثلين المضحكين .

وعلاوة على ذلك ، فلى كلمة أخرى أقولها لك وهى أنه لمن المؤلم أن نرى الموظفين المصريين ينتقلون من خدمة بلادهم إلى خدمة الإنجليز ، ثم يعودون بعد حين إلى خدمة مصر ، إن هذا لمن الأمور المخجلة المعيبة .

تذكر بلا ريب أنه لما مر الأسطول الأسبانى منذ بضعة أشهر في القنال أبى ولاة الأمور أن يزود بالفحم اللازم له ، فلماذا تسمح الآن للإنجليز بأخذ الفحم اللازم لهم من مصر ، وهم مشتركون في حرب مع البوير ؟ أليقال إن حكومتك تكيل بمكيالين ؟ إن هذا غير معقول ، وليس بمثل هذا الأسلوب ينفذ نظام القنال ويحترم قانون حياده ، ولعل ما يقال صحيح وهو أن هؤلاء من طينة وأولئك من طينة أخرى ، كم من المظالم والمحرمات يرتكبها هؤلاء الإنجليز في هذه البلاد وأنت صامت . وهذا ما يدل على أن كل ما يأتونه من الأعمال يتم بموافقتك وهو الأصح .

إن مسألة المدافع التى سرقت فضيحة كبرى ، ولا سيما أنك لم تعاقب السارق في حين أنك سمحت بمعاقبة ضباط هم من صميم الوطن .

اذكر أيها الأمير هذا الأمر وأعمل الفكر فيه ، وهو أن هؤلاء الضباط

الخمسة سيعادون إلى رتبهم ، ويصلون إلى أرفع المناصب في الدولة وأرقاها ، وأما أنت فالدول لن تهتم بشخصك وإنما هي تهتم بمصر ، فليس من المهم عندها أن تقتصر في حياتك على الاحتفاظ بهذين الأمرين وهما الانصراف إلى الصلاة وحضور السباق ، وستقص عليك جريدة المؤيد قصة طريفة يوماً عن السودان فيما يتعلق بالأعمال الغريبة التى يعملها الإنجليز هناك :

لقد قيل لى إن مدير الجمارك الإنجليزى يتقاضى مرتباً قدره ٦٧٠٠٠ فرنك في حين أن الوزير في حكومة مصر لا يتقاضى سوى ٥٢٠٠٠ فرنك لأنه مصرى .

ومما يستوقف النظر أن السردار المصرى أدت غيرته إلى إرسال مدافع المكسيم الستة ليلاً وخالصة الأجرة ، بدليل أنه ليس في دفاتر حساب السكة الحديدية أقل أثر للأجرة المفروضة عليها ، ولا للمحافظة التى شحنت هذه المدافع بمقتضاها ، ثم المائة مركبة من مركبات السكة الحديدية التى أخذت ومصر محتاجة إليها كل الإحتياج لشحن البضائع ونقلها من مكان إلى آخر ، أليست هذه أيضاً جديرة بالذكر » .

وإلى جانب ما جاء في مذكرات شفيق باشا نورد هذه الفقرة الموجزة في صفحة ٣٣٣ من الطبعة الثالثة من كتاب « مصطفى كامل » للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، وهذه الفقرة تلقاها المؤلف من أحد الضباط الذين حوكموا بتهمة الاشتراك في الفتنة ، وهو اليوزباشي محمود حلمي وقد صدر الحكم عليه بالإحالة على المعاش ، وهذا نص الفقرة :

« في يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد في فرقتين بالجيش المصرى بالسودان على أثر حضور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته ، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة في الجيش ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم ، وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش وهم : اليوزباشي محمود أفندى مختار ، واليوزباشي حسن أفندى



رجل السيف والقلم الشاعر الوزير الثائر

محمود سامى البارودى

لبيب ، والملازمون الأول : مصطفى لطفي ، وصالح زكي ، ومحمد أفندي توفيق يوسف ، والملازمان الثانيان عبد الحميد شكري ، وإدريس عبد الله ، وإحالة اليوزباشي محمود أفندي حلمي إلى المعاش ، والملازم ثاني أحمد شاكر إلى الاستيداع ، وتوبيخ الملازمين الثانيين عثمان عارف ومصطفى محمود الشامي . وقد استحضرهم الخديوي وعنفهم على ما وقع منهم وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا » .

ويلحظ القارئ أن عدد الذين حوكموا كما ورد في هذا البيان سبعة فإذا استبعدنا منه الذين اكتفى الحكم بتوبيخهم ، كان العدد خمسة ، وهو مطابق لما ورد في خطاب ذلك الألماني المجهول إلى الخديوي عباس ، فضلاً عن أنه يتفق مع قول حافظ « في ليالي سطيح » إن المحقق الإنجليزي حين بالغ في عدد المتهمين فجعلهم ثمانين ، طلب إليه الضابط الكبير أن يضرب على هذه الأسماء المعروضة بالقداح ، وألا يجاوز القداح أنامل الكفين عداً ، وهذا ينطبق على كونهم سبعة بما فيهم المحكوم عليهم بالتوبيخ ، وخمسة من غيرهم . ولكن هذه الأقوال جميعاً لاتتفق مع قول القائل إنهم ثمانية عشر سواء أكان منهم حافظ ، أم كان مضافاً إليهم .

بيد أني لم أعتم بعد اطمئناني إلى هذه النتيجة ، أن وقفت دهشاً أمام هذا الثبت الذي قدمه اليوزباشي محمود حلمي بأسماء الضباط المصريين المتهمين معه بالتحريض على الفتنة في حادثة الذخيرة بالسودان لعدم ورود اسم حافظ إبراهيم في عدادهم ، مع ما يلاحظ في البيان من شموله حتى الذين صدر عليهم الحكم بالتوبيخ . وقد كان من أثر ذلك أن ساورني الشك فيما يتناقله جميع من قرأت لهم من الكاتبين ، من قولهم إن حافظ كان له الشرف أن يكون ضمن هؤلاء المتهمين .

عندها ذكرت حديثاً للأستاذ سلامة موسى مع حافظ إبراهيم ، كان قد نشره في مجلة « الهلال » فرجعت إليه في عدد يونية سنة ١٩٢٤ فإذا بالكاتب لم يشر إلى هذه الفتنة إطلاقاً ، بل ورد في غضون ثنائه على حافظ قوله :

« إنه كانت هناك خطة إنجليزية بإبقاء حافظ في السودان بعيداً عن الحركة الوطنية في مصر ، ومن أجل ذلك لم يوفق الأستاذ الإمام محمد عبده في مسعاه لنقله إلى مصر استجابة لشكواه ، ولكن التوفيق قضى بعد ذلك أن يجد حافظ حظوة في عين رئيسه الإنجليزى في السودان ، وكان هذا الرئيس جديداً لم يدر بتلك الخطة الإنجليزية ، فلما طلب إليه حافظ أن يستقيل أقاله » .

وهذا الكلام سواء أكان من عنديات سلامه موسى أم نقلاً عن غيره فإنه منقوض من أصله وذلك لسبب واحد ، وهو أن حافظ لم تكن له كل هذه الشهرة بالوطنية عام ١٩٠٠ ، وإنما بدأت هذه الشهرة بعد عودته من السودان على أثر الفتنة .

فلم يبق لى إذن لنتغلب على هذا الشك إلا أن أعود إلى المصدر الأول الذى يرجع إليه – فيما اعتقد – القول السائد بأن حافظ كان متهماً في الفتنة مع ضباط آخرين من رفاقه وعددهم ثمانية عشر من المصريين : وهو الأستاذ داود بركات محرر الاهرام الذى كان ولا ريب من المحيطين بدخائل الأمور ، لاتصاله بحكم عمله بمختلف الدوائر الرسمية والأوساط المصرية والإنجليزية . وهذا نص قوله :

« وعرفت حافظ في أواخر سنة ١٨٩٩ ، وقد جاء من السودان أو بالأحرى جيء به من حيث كان ضابطاً في الطوبجية (المدافع) بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشر مع الخديوى عباس باشا الثانى ومكاتبته سراً بعد افتتاح الخرطوم . عرفته وشوقي يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالأهرام ، لأن حافظا ورفاقه أحيلوا إلى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكيل الدولة الإنجليزية ، وكان يطلب من الخديوى فوق ذلك إعلان استنكار عملهم ، والخديوى يماطل ويتردد فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم » .

وهذا الذى جاء ذكره على لسان داود بركات ينفي ما انفرد بقوله سلامه موسى ، ويتفق في جوهره مع جميع المصادر الأخر ، ومنها

مصدران رسميان على مابينهما من اختلاف المنازع وهما اللورد كرومر المعتمد البريطانى وأحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى .

ولا بأس على ما في بيان داود بركات من ارتفاعه بعدد الضباط المتهمين إلى ثمانية عشر يضاف إليهم حافظ إبراهيم ، فإن كرومر في بيانه يقرر أن الذين حوكموا هم عدد من الزعماء لا الزعماء كلهم ، أما الباقون فقد كان تسريحهم من غير محاكمة ، فماذا يمنع أن يكون حافظ إبراهيم من هؤلاء ؟ ثم إننا إذا رجعنا إلى « ليالى سطيح » ألفينا حافظ إبراهيم نفسه يقول في تقديمه لقصة هذه الثورة :

« إنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها » .

وعلى ذلك لايكون هنالك وجه للاعتراض على مايقرره داود بركات من أن حافظ كان مشتركاً في الفتنة السودانية ، وأن عودته إلى الوطن كانت في أواخر سنة ١٨٩٩ .

ومادام حافظ لم يحاكم ، فليس هنالك مايمنع من أن يكون قد عاد إلى وطنه أواخر سنة ١٨٩٩ كما يقول داوود بركات ، وتكون إحالته على الاستيداع في ٣ من مايو سنة ١٩٠٠ ، كما هو وارد في السجلات الرسمية .

وسيان كان حافظ إبراهيم قد عاد إلى وطنه في أواخر ١٨٩٩ أو بعد إحالته على الاستيداع في ٣ من مايو سنة ١٩٠٠ ، فإن المحقق أنه عند عودته اختار لنفسه حرفة الأدب ، وعاش في القاهرة حياة الأدباء البوهيميين بعد أن حال وقتئذ شاعر القصر أحمد شوقي دونه والمشاركة في هذا المنصب ، ولو في طبقة دون طبقته .

فى هذه الضائقة احتمى حافظ بالأستاذ محمد عبده ولزم مجلسه وعرف هنالك أكثر من عرف من رجالات مصر وقتئذ مثل سعد زغلول وقاسم أمين واللقانى ، وخاصة سليمان باشا أباظة أحد وزراء المعارف السابقين وعميد الأسرة الأباظية ، وكان أديباً شاعراً فقرب إليه

حافظ وأفاء عليه من كرمه وعطفه ، وعنه اتصل بالأسرة كلها : ولكن الذى يقرأ مدائح حافظ و مراثيه لايخطئ تفوق حافظ على نفسه في مدائحه للأستاذ الإمام ورثائه له مما يدل على أنه كان حصنه من الأعداء ، وملاذه من الشدة والفاقة ، وأستاذه في الأدب والحكمة . ولقد كانت صحبتهما مثاراً للعجب لما عرف عن الإمام من الجد والزهد ، وما اشتهر به حافظ في مجالسته الخاصة من ميل إلى بعض اللهو والمجون ، وقد سئل حافظ عن هذه الصحبة النادرة ، فروى عنها من النوادر كثيراً ، ومنها قوله :

[كان الشيخ محمد عبده يقول لى : « صحبتك عشر سنين فما أمكنك أن تضلنى ، وما أمكننى أن أهديك » . وكان لى خصوم ينفسون على صحبتى له ، ويغارون من حبه لى ، ويذكرون عنى إكبابى على الشراب والقمار ، فكان يقول لهم : « ماصادقته لكى أجد فيه شيخاً للإسلام أو عالماً دينياً »] .

ولما سئل حافظ « وكيف بدأ التعارف بينكما ، ثم كيف اتصلت المودة ؟ » قال : « لا أتذكر ذلك على وجه التحقيق ، وإنما أتذكر أنه كان يعجب بنثرى ، وكنت راوية لا أفتر عن ذكر الأشعار ونوادر الأدباء ، وكنت أيام شبابى أميل إلى الدعابة والفكاهة ، فكان يأنس إلى حديثى » .

ولما مات الإمام محمد عبده عام ١٩٠٥ ظل حافظ يعيش في ظل من عرفهم من أصحابه ومريديه . وقد أخذ منذ مأساة دنشواى يجرفه التيار الشعبى إلى معالجة الكتابة في السياسة كما فعل في « ليالى سطيح » ، ثم زاد انطلاقاً في نظم الشعر السياسى الحماسى .

حافظ ينقل الثورة إلي القاهرة

ليالي سطيح والإنجليز

لا نعرف لشاعر النيل حافظ إبراهيم مصنفاً في النثر من تأليفه غير «ليالى سطيح» . والقارىء لهذا الكتاب يحس فيه زحمة التجارب الشخصية التى كان الكتاب ثمرتها . فلقد تناول المؤلف في كتابه كل مايشغل معاصريه من الموضوعات الاجتماعية والأدبية ، وبخاصة الموضوعات السياسية ، وعلى الأخص الإنجليز .

أما الموضوعات الاجتماعية ، فنذكر منها قضية الحجاب والسفور ، وما يستتبعه تحرير المرأة من المزيد من تعليمها وتربيتها لتكون عضواً عاملا في المجتمع إلى جانب وظيفتها الطبيعية زوجة وأماً . وكذلك يدخل في الموضوعات الاجتماعية موضوع العمل الحر ووظائف الحكومة ، وعلاقة التعليم بالتأهيل لهذا أو لذلك . وفي هذا الباب أيضاً يتعرض المؤلف للعادات الواجب تغييزها والتحول عنها مثل زيارة أضرحة الأموات من ذوى الكرامات ، وما يغنمه من غير حق شيخ السجادة الجالس فوقها ، من النذور التى تجرى أنهاراً من تحتها دون أن يبذل في سبيلها أدنى جهد مما يغوى بالبطالة أوالاشتغال بالمخرقة على أهل الجهالة . وأخيراً يتفنن المؤلف فيتناول بالأوصاف من غير إسفاف معاقرة الخمر وعربدة السكر في النوادى الليلية ، ومشاهد الطرب والرقص في الأزبكية ، وما يجب من الرقابة على هذا النوع من الملاهى إن لم يكن حظرها .

وأما الموضوعات الأدبية ، فيبدأ فيها بالصحافة ورسالتها وحدود حريتها ومدى ترويجها للفصحى ، وأثرالصحافة التجارية التى تحررها أقلام المرتزقة في إفساد أخلاق العامة ، ثم يعرض بعد هذا إلى عالم الأدب وأعلامه ، مع الحديث عن الشهرة والخمول ، وهنا يستدرجه الحديث إلى الشعر ، ودور

الصحافة في الترويج لشاعر دون الآخر ، ومما يلاحظ أن حافظ هنا لا يكبت الدافع إلى هذه الإشارة فإن هذا الدافع على رغمه ، يطل بقرنه ، وهو ما بين حافظ وشوقي من المنافسة ربع قرن كامل على دولة الشعر.

وأخيراً وليس آخراً تغلب على الحديث الموضوعات السياسة ، ومحورها السياسة الإنجليزية ، وهنا يستمر الحديث ويحمى وطيسه وتغلى مراجله حين يتعرض للإنجليز ، واحتلالهم مصر وتسريحهم جيشها ، وتوليهم إنشاء جيش جديد قائده العام منهم ، تفرضه على الحكومة المصرية حكومتهم ويفرض الحاكم العام على الجيش ضباطاً من بني جنسه ، فيحكم ويحكمون في الجند والضباط المصريين بمطلق أمرهم ، وينعمون بكل شيء من دونهم.

وهذه الأحاديث في «**ليالى سطيح**» أمثلتها كثيرة ، نذكر هنا بعضها مبتدئين بما صار إليه الحال في مصر بعد الاحتلال الإنجليزى ، في الجيش المصرى وفي المدرسة الحربية . ونحن على يقين من أن القراء لهذه الأمثلة من كلام حافظ إبراهيم سوف يمسهم معه أوارها وتكويهم مثله نارها :

[دخلت الإنجليز مصر ، وفي جيشها المصرى من هم أولو سابقة في الفضل فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيماوى الباهر ، والمحيط بفن الحرب والحصيص في العلم ، ومن حنكته السن ، وغذته التجربة ، وخبطته الحروب ، وعلم التكتيك ، ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلداً ، فزحزحوهم عن أماكنهم ، حتى أصبح الجيش عطلا من كل رجل ركين .

ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذوا أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها ، وأسرعوا في سلبها كنز علومها ، وتجريدها من حلى فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السليبة . ثم يتموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها ، لا يزيد علمه في الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرع في أخذ الصور من تلك المدرسة في تهيئة

التلامذة للدخول في الجيش ، فأصبحت بفضل القوم كما ترى ، وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل فدم وجاهل كما تطلب اليوم الضيعة الخربة .

يمشى الكبير من الإنجليز في معسكر الجنود في الجيش الجديد فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام ، وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب ، فيقف عليهم يتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم ، فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده اليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس .

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد يُنال إلى أن تعبد الحجرا

ويمر ذلك الكبير من الإنجليز على الجنود وهم على مصافهم قيام ، فيروقه منظر أحدهم ويعجبه حسن سَمْتِه ، وما هى إلا لفتة منه إلى كاتم سره حتى يمسى ذلك الجندى تلميذاً . فلا يهل بالمدرسة شهراً حتى يوافي إخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد يمسكه لسال خجلا .

شكا ضابط مصرى إلى كبيره وهو يحاوره من سوء العيش ، وجفوة الرؤساء ، وكثرة الأتعاب ، وقلة الأعطية ، فأجابه الإنجليزى وقد أمال سالفته تيهاً وثنى عطفه كبراً : «إذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذه ، ألا تم له تلك الإرادة ؟» قال المصرى : « بلى ، فلا يكلفه ذلك إلا النشر في إحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب » . قال الإنجليزى : «لهذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء . فهو إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، ولو عاف المصريون ورود هذا المورد وانصرفت وجوههم عن ذلك الباب وعزفت نفوسهم عن الولوج فيه ، لأصبحتم من الإعزاز بحيث نحن الآن »

لذلك تكسرت في المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب ، غير

مرعى الجناب ، يعتوره الذل والخور ، وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يوم لحق به النقص .

ينظر المصرى إلى الإنجليزى ، وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكْبره رهبة وإجلالا ويتضعضع لرؤيته ، وينظر إليها لإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها ، فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس الإنجليزى فيه . وهو إن خاطبه فبلسان لاتجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو إشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر .

هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط ، أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام ، لاكبار النفوس والأحلام ؛ فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقي السياسة الإنجليزية كئوساً من منقوع الرعب. فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم ، وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا صدر له أمره بشيء ، كاد يخرج من ظله سرعةً لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفوتوغراف على حفظ الصوت ؟

اللهم ، إن العيش مع الأبيضين وإن أبرد العظام أروح ، للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروقك ماترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء :

فليت سيوفهم كانت عصياً ... وليت نجومهم كانت رجوماً

وما عسى أن تقول إذا حدثتك عن حياة الضابط الإنجليزى في الجيش المصرى .

يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها حتى يقابله الأمر بمنصب في جيشها .

فإذا سما من رتبة المأمور إلى رتبة الآمر ، وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز الأسبوع عداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلته كيمياء القوة من

معدن يرغب عنه إلى معدن يرغب فيه ، وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبت ريح سعوده ونسى جلود جدوده ، نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها . وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم في وقت وجيز . فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المترلفين من الضباط ، فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الهجر والفحش . فإذا وعى منها كلمة وأراد استعمالها فيما وضعت له أسرع إلى المصرى فجبهه بها عن غير ذنب فتخرج من فيه ، وهى كأنها حجارة المنجنيق ، فإذا أنّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الإنجليزية ، كذلك نصيب كل مصرى يخاطبه الإنجليزى بالعربية ولم يفهم مقصده لتعذر النطق عليه ، أو لعزوب الكلام عنه ، أو لإيراده على طريقة النطق الإنجليزى فينطقه بلسان يرتضخ إنجليزية ، وحلق كأنه يقىء .

ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر في وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت في الأمر فإذا الإنجليزى حديث العهد باللغة .

والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبه .

ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم الجيش ، وينظر الإنجليزى في لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه ، وعز سلطانه . إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف .

وإذا لبس القلنسوة كانت لها في النفوس رهبة التاج ، وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج .

أأفريدون في التاج أم الإسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت إلينا « بسليمان »

يهب من نومه فيترامى الخدم على خدمته كل في شأنه الذى نصب له . فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه ، قدم له الجواد فاستوى عليه ومضى متباطئاً إلى حيث الجنود مصطفة للتدريب ، غير مبال بانتظار تلك المئات ، ولا بما يلحق بهم من السأم والملل ، إذا تأخر أوانُ تجليّه عليهم إلى وقت الضحى ، وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان . فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف ، وقامت البنادق ، وخفتت الأصوات ، وجمدت الشخوص ، وسكنت الأنفاس ، كسكون النسيم إجلالا للقادم ، ورهبة للمقبل : وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه أو من يده . ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفه أكبر ضابط مصرى يكتب عنه مايملى عليه من ملاحظاته ، ثم يركض جواده ملء فروجه إلى ملعب الكرة بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب في غيابه » .

ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان ، وقد أخذ منه الجهد ، ظنه منقلباً من إحدى مواقع حرب البوير بعد عراك وصدام وتعانق والتحام وروغ وإقدام ، قد رنحه الضرب وأثملته الحرب ، يجر من ورائه رمحاً قد جمد عليه النجيع بعد ماسالت النفوس .

وتحين ساعة عودته إلى مقرحكمه فيغيرمن زيه ، بعد أن يقطع صدر يومه على مائدة الصباح . ثم يوافي ديوان نهيه وأمره ومظهر علو قدره فيتربع في دست جلاله ، فما سليمان على بساطه ، ولا كسرى في إيوانه ، باكثر جلالا في الصدور ولا أشد رهبة في النفوس . فإذا قعد للمظالم والأخذ للمظلوم من الظالم ، فهنا لاتسل عن الميل والإجحاف ، وسل عن العدل والانصاف .

ثم يعود إلى داره فينغمس في حوض من الماء ، فإذا تم ابترادہ فيه تحول عنه إلى المائدة حتى إذا امتلأ عمد إلى مجلس الشراب ، واسترسل فيما هو فيه إلى قبيل تطفيل الشمس . ثم يفزع إلى بارودته فيحتقبها ، وينطلق

للتصيد في الأودية والغابات ، وخلفه الكلب والخادم ، ولا يعقّب حتى يلوح سهيل .

هذا كل مايفعله الضابط الإنجليزى في يومه ، وهذه عيشته وتلك حالته.

أما الجندى الأشقر ، صاحب الرداء الأحمر ، والعيش الأخضر ، والطالع الأزهر ، فعيشته أعجب ، وسيرته أطرب .

يؤتى به من جيشه وهو فيه من عامة الجند عاطل الذراع ، خفيف المتاع ، فإذا قدم مصر ليلا أبى أن تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيساً لمكتب إفرنجى يعنو لإمرته كل من فيه من مترجم وكاتب . ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء ، وتفتح أبواب الخزائن ، فيمنح من النقود ما شاءت القوة ، ومن النفوذ ماشاءت السياسة ، حتى يصبح محل الثقة وموضع السر ومحور الأشغال وقطب التنقلات ومركز التغييرات ، فلا يبرم الحاكم الإنجليزى أمراً دون استشارته . فإذا دخل فيه العجب وغلب على نفسه الزهو نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا نعتها ، فتتقاطر على بابه فئات المتزلفين وأرباب الحاجات . فمن كان له به دَخَل أو خاصة ، كان السعيد المحبو ومن صلى لغير تلك القبلة كان الطريد المجفو .

وأعرف واحداً منهم قد استطرد به جواد السعادة حتى أصبح قومنداناً لحملة الجيش ، وآخر قد سما به سلم العز حتى أصبح من السردار قاب قوسين أو أدنى : وهو اليوم بالسردار واضع إحدى قدميه على العسكرية ، والأخرى على الملكية ، تجرى على سن قلمه أرزاقهم ، وتدور على طرف لسانه تنقلاتهم] :

ثم أراد حافظ الترويح عن نفسه فقام إلى ابن سطيح الذى أوفده والده لينوب عنه في الليلة الأخيرة وقال يسأله :

« ما الذى يراه سيدى بشأن تلك الشركة السودانية التى خفق لها العلمان على أطلال أم درمان ؟ »

فابتسم ابن سطيح إلىّ مبتسماً وقال :

« وقف شريكان شرقي وغربي أمام المرآة وفي يد الغربي قطعة من الذهب ، فقال له شريكه الشرقي وقد تلطف : « ألا تعطيني قسمي من تلك التي بيدك ؟ » قال الغربي : « أما وقد أردت القسمة فاعلم أن التي بيدي هي لي ، وتلك التي تراها في المرآة هي قسمك ونصيبك » .ذلكم مثلكم مع القوم في شركة السودان » .

هكذا قال ابن سطيح ، وهو لا محالة قد ورث الحكمة عن أبيه سطيح : ولكن من هو سطيح ؟

من هو سطيح ؟

أهو شخصية تاريخية أم أسطورية ؟

لعله من الواجب قبل أن نمضى في حديث « ليالى سطيح » أن نعرف المقصود من لفظ «سطيح» المضاف إلى الليالى في عنوان الكتاب ، أهو — كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان — بمعنى المستلقى على ظهره من زمانة مرض أضناه ، أو وهن كهولة أعجزه عن القيام وأعياه ، أم أنه هنا اسم علم من الأعلام ، أم الاثنان معاً؟ — ثم بعد ذلك ، أهو شخصية تاريخية أم أسطورية؟

ولعل أقوم طريق للإجابة على ذلك ، هو أن نسلك بالقارئ إلى خزائن الكتب التى بقيت لنا من تراث العرب ، وننفض الغبار عن هذه الأسفار ، ونضع بين يديه خلاصة ماوقعنا عليه من الأخبار عن «سطيح ».

روى ابن إسحق(١) في كتاب السيرة النبوية للإمام ابن هشام (٢) ، أنه في عصر الجاهلية قبيل الإسلام . كان هناك أمير من أمراء اللخميين ، ملوك اليمن التبابعة ، هو ربيعة بن نصر ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم رؤيا هالته ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً ولا منجماً من أهل مملكته إلا دعاه فيمن جمعهم إليه ، وقال لهم : « إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ؟ » ، قالوا « اقصصها علينا نخبرك بتأويلها » قال : « إنى إن أخبرتكم بها ، لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف

---

(١) هو أبوبكر محمد ابن إسحق بن يسار المطلبى ، وهو من أهل المدينة ويعد من أقدم مؤرخى العرب ، ومن مصنفاته « المغازى والسير » التى رواها عنه الإمام ابن هشام ، وكتاب « الخلفاء » وكتاب « المبدأ » وكانت وفاته عام ١٥١ هـ (٧٦٨ م) وقد زار الإسكندرية عام ١١٩ هـ .

(٢) هو أبومحمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى ، وكان مولده فى البصرة ووفاته بمصر عام ٢١٨ هـ (٨٣٤ م)، وأشهر كتبه « السيرة النبوية » وله كذلك « القصائد الحميرية فى أخبار اليمن وملوكها فى الجاهلية » و« التيجان فى أخبار قحطان » وغيرها .

تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها » . فقال له رجل منهم : « إن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى « سطيح » وصاحبه « شِق » فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانك بما سألت عنه » ، فبعث يستقدمهما . فكان « سطيح » أول من قدم عليه ، فقال الأمير : « إني قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها ، فاخبرني بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها » قال الكاهن : « أفعل . رأيت حممة (١) خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة(٢) فأكلت منها كل ذات جمجمة » فقال له الأمير : « ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟ » فقال : « أحلف بما بين الحرمين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش » فقال الأمير : « وأبيك ياسطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفي زماني هذا أم بعده ؟ » فقال : « لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين » قال : « فهل يدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ » قال : « لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين » ، فمضى الأمير يستعلم : « ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ » قال : « يليه إرم ذي يزن يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحد منهم باليمن » قال : « فيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ » قال : « بل ينقطع » فتساءل الأمير : « من يقطعه ؟ » فقال الكاهن في خشوع ظاهر : « نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلي » فزاد شوق الأمير إلى التقصي وقال : « وممن هذا النبي ؟ » فقال الكاهن على الفور : « رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر » فسكت الأمير لحظة ثم قال : « وهل للدهر ياسطيح من آخر؟ » قال : « نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون » فعاد الأمير يقول : « أحق ماتخبرنا ياسطيح ؟ » قال : « نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق » .

ولكي تصبح لشخصية « سطيح » صورتها التاريخية ، أورد ابن إسحق ،

---

(١) حممة : جمرة .

(٢) أرض تهمة : خبيثة الرائحة .

ومن بعده ابن هشام والطبرى(١) وغيرهم من المؤرخين – على عاداتهم – نسب المترجم له فقالوا : اسم « سطيح » ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان » فإذا أرادوا الإيجاز قالوا « سطيح الذئبي » .

والمؤرخون متفقون على أن « سطيح » كان من المعمرين مع تفاوت في التقدير ، ولكن أخبار سطيح إلى جانب هذه المغالاة في الإيجاز لاتخلو من خلاف بين المؤرخين رواة الأخبار ، فإن رواية ابن إسحق التى قدمناها عن سطيح قد حددت زمنها في سياق نبوءته التى تكهنت بأن هبوط الأحباش على اليمن سيكون بعد ستين أو سبعين سنة ، ولما كان مبدأ الاحتلال الحبشى لليمن سنة ٣٤٠ ميلادية ، فيكون زمن صدور هذه النبوءة عن سطيح في سنة ٢٧٠ ميلادية . وهذا لايتفق وماورواه اليعقوبى(٢) في تاريخه ، من أن سطيح حسم خلافاً نشب بين جد رسول الله زعيم قريش في الجاهلية عبد المطلب ابن هاشم الذى كانت وفاته عام ٥٨٠ م (٣) وقبيلتين من بنى قيس حول ملكية العين التى كشف عنها جد النبي في الطائف . والشك لا مدخل له في حكاية الخلاف والتحكيم التى رواها اليعقوبى ، ولكن الذى يدخل عليه الشك هو اسم الحكَم في هذا الخلاف ، ويؤيده أن الميدانى(٤) في كتاب « الأمثال » ينسب الحكم إلى كاهن آخر يدعى سلمه بن أبى حية القضاعى .

---

(١) انظر صفحة ٩٩ من الجزء الثاني من أخبار الرسل والملوك « للطبري » وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٢٤ هـ (٣٩٨ م) وتوفى فى بغداد سنة (٩٢٣ م) وهو من ثقات المؤرخين

(٢) هو أحمد بن أبي يعقوب من أبناء موالي الخليفة المنصور العباسى وهو من أهل بغداد وله غير كتاب التاريخ « كتاب البلدان » وكانت وفاته عام ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) :

(٣) توفى بمكة عن ثمانين عاما وكانت وفاتة عام ٤٥ قبل الهجرة (٥٨٠ م) .

(٤) هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن حمد بن إبراهيم الميداني مؤلف مجمع الأمثال وقد ولد ونشأ وتوفى فى نيسابور عاصمة خراسان وسمي الميداني نسبة إلي « ميدان راد » وهي محلة فيها ، وكانت وفاته سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) .

والذى يتابع «سطيح» في كتب المؤرخين العرب لايفوته مابين مختلف الروايات عن أخبار سطيح من الفجوة الزمانية الشاسعة ، كما رأينا .

أما المسعودى فقد روى في مروج الذهب — في صفحة ٣٩٥ من الجزء الثالث — أن أول ماتكهن به «سطيح الغسانى» أنه كان نائماً في ليلة عاصفة مظلمة مع إخوته في سفح جبل ، وكان أهل الحى متخالفين ، إذا به يئن ويتأوه زاعقاً بأعلى صوته : «والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق» ، قالوا : «وماطرق ياسطيح ؟ قال : « أمر سد نغاره ، وحرة بعدها حرّة ، في ليلة قرّة » فأضربوا عن قوله واستهانوا بأمره ، ولم يلبثوا أن تعاصفت مدود من أودية هنالك ، ففاجأتهم في ليلة باردة عاصفة — كما ذكر سطيح — فساقت الأنعام والمواشى ، وكادت تذهب بعامتهم . ولم يذكر المسعودى أن كان المقصود بهذه النبوءة انقطاع سد مأرب باليمن أم هو سد آخر .

وقبل ذلك جاء في الجزء الأول صفحة ٢١٧ والجزء الثانى صفحة ٢٢٨ من مروج الذهب نفسها ، أنه في أيام كسرى حدثت حوادث منذرة ، فأنفذ كسرى أحد عرافيه ، عبد المسيح بن بقيلة الغسانى إلى سطيح الكاهن ، وأخبره بما كان من رؤيا الموبذان ، وارتجاج الإيوان ، فأخبر سطيح على الفور بما وراء ذلك من إعلام بالنبوة المحمدية وتبشير بوشك ظهور رسالتها .

ويذكر أكثر من مؤرخ إسلامى أن سطيح كان يبلغ من العمر ثلثمائة سنة حين أخبر بهذه النبوءة عن مولد النبى محمد عليه السلام ووشك ظهور الإسلام ، وأنه أخبر بها وهو على فراش الموت ، وما كاد يتمها حتى لفظ آخر أنفاسه وتوفى من ساعته . ولقد أفضى ذلك ببعضهم أن وضعوه على رأس المعمرين وبلغوا بحساب عمره إلى أكثر من ثلثمائة سنة ؛ ومنهم من زادها إلى ستمائة وأكثر . ولا عجب ، فقد جرى عامة المؤرخين الأولين على أن يرتفعوا بأعمار من يؤرخون لهم من أصحاب الشأن الأقدمين إلى ما يتجاوز المائة بقليل أو كثير ، فلم يجد بعضهم ما يمنع في جملة الأوهام أن يعمر سطيح وأضرابه أضعاف ذلك ما داموا من الكهان ، حتى

يدخل طول أعمارهم كذلك ضمن ماهو منسوب إليهم من العجائب والخوارق .

ولم يقف الخيال بالمؤرخين عند هذا الحد ، فقد أبى البعض إلا أن يجعل الغرابة في مواهب هؤلاء الكهان وقواهم الروحية ، غرابةً كذلك في خلقتهم الجسدية ، ولكن على جهة الأضداد ، بحيث يقابل الجلال والجمال في النفس ضآلة وركاكة في الجسد ، لأن النفس في هذه الحالة هى كل شيء ، حتى لا يكاد يبقى إلى جانبها من الجسد شيء يذكر . وفي هذا المعنى يقول المسعودى : «وإذا كانت النفس في غاية البروز ونهاية الخلوص ، كانت تامة النور كاملة الشعاع ، كان تولجها إلى دراية الغائبات بحسب ما عليه نفوس الكهنة وحدها» . وهذه حال الكهان «سطيح» و «شق» و«طريفة» .

والمأثور من أخبار هؤلاء الثلاثة أن الكاهنة طريفة ابنة الخير الحميرية ، وهى زوجة عمرو بن عامر ماء السماء الملقب مزيقيا الذى تبوأ عرش مأرب في فترة في القرن الثالث الميلادى ، وكانت وفاتها في اليوم الذى ولد فيه كل من «شق» وابن خالته «سطيح» ، وقد دعت لكل منهما قبل وفاتها وتفلت في فيه على الطريقة المأثورة لنقل القدرة على السحر من ساحر إلى غيره ، ثم أعلنت أنهما سيخلفانها في علمها وكهانتها .

وقد أطلق بعض الكتاب العرب الأقدمين لخيالهم العنان في تصوير هذين الكاهنين على صورة تجعلهما من أعاجيب الدنيا ، وأخذوا يتنافسون — كما لم يتنافسوا قط — في جعلهما مسخة في الخلقة والنقص في الأجسام ، بقدر ما كان من مبالغتهم في وصف قدرتهما الروحية في الكهانة والعلوم الغيبية ، ومن ذلك قولهم باتفاق ولادتهما معاً في يوم واحد بالليل ومن غير أب.

وهذا الاتفاق في مولد «شق» وابن خالته «سطيح» بالليل ومن غير أب يقابله انفراد كل منهما بصفات جسدية تخالف الآخر .

أما «شق» فإنه كان — كاسمه — نصف إنسان ، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة .

أما ابن خالته « سطيح » فإنه لم يكن له عنق ، فكان وجهه في صدره . ثم هو في الجملة لاعظم له إلا الجمجمة ، وقد قيل مع ذلك إن جمجمته كانت إذا لمست أثر اللمس فيها من لين عظمها . كذلك لم يكن بين مفاصله قصب تعتمده ، فكان أبداً منبسطاً على الأرض لايقدر على قيام ولا قعود ، ولا يتحرك منه إلا اللسان . فإذا أريد نقله من مكان إلى مكان يطوى من رجليه إلى ترقوته ، كما يطوى الحصير ، ويوضع على السرير ، ويُذهب به إلى حيث يشاء . أما إذا غضب أو استثاره استخبار عن المغيبات ، فإنه ينتفخ مثل سقاء اللبن إذا مخضه الماخض ، ويعلوه النفس بعد أن كان جسداً ملقى ساكن الجوارح .

ولا شك عندنا في أن القراء جميعهم معنا في أن من كان هذا شأنه ، فلاعجب أن يطلق عليه هذا اللقب : سطيح .

ولقد شاء شاعرنا حافظ إبراهيم ، في وصف لياليه على النيل — وهى الليالى التى جلاها علينا في أوائل القرن العشرين ، وعلى التحديد عام ١٩٠٦ — أن يجعل نسبة هذه الليالى إلى «سطيح » الذى ترجع وفاته في الجزيرة العربية إلى أواخر عهد الجاهلية في القرن السادس الميلادى وعلى التحديد عام ٥٧٠م وهو العام الذى شهد مولد النبي العربى عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نجد الراوية في كتاب « ليالى سطيح » وهو يروى لنا وقائع زماننا الأخير يأبى إلا أن يتخذ « سطيح » حكيم الزمان القديم وكاهن الجاهلية الأولى وعرافها ، حكماً يوثق بحكومته في القضايا الحديثة ، التى يعرضها عليه في تلك الليالى العجيبة ، لينظر فيها كعهده بعين الغيب ، فيجلو غامضها ويخبر عن عواقبها .

*

ولكن ، أليس من حق القارئ وقد أحاط علماً بالشخصية القديمة ، شخصية كاهن الجاهلية وعرافها الذى غالى بقدره المؤرخون الأولون حتى أحالوه شخصية أسطورية ، أن يحيط علماً بما في « ليالى سطيح » من الشخصيات الحقيقية إلى جانب ما أسلفنا من الأحداث التاريخية .

إذن فلتكن هذه الشخصيات الحقيقة مدار حديثنا فيما يلى من الفصول ،

ليالى سطيح
وقيمتها التاريخية فى الأدب والسياسة

كل ما في ليالى سطيح فيما عدا « سطيح » نفسه أو — إذا شئنا غاية التحقيق والتدقيق — فيما عدا سطيحاً ثم ابن سطيح — لا يتعدى كونه شخصيات حقيقية واحداث واقعية منقولة عن الماضى القريب من واقعنا التاريخى . فمن أراد أن يعرف هذا الماضى القريب منذ محنة الاحتلال عام ١٨٨٢ حتى مأساة دنشواى عام ١٩٠٦ ، لم يجد صورة أدبية مصغرة لتلك الحقبة المضطربة الزاخرة خيراً من هذا الكتاب ، فهو على صغره لم يترك واردة ولا شاردة إلا أحصاها ، لا إحصاء المؤرخ الموضوعى الهادئ الفاتر ، بل إحصاء الذى عاشها وانفعل بها بعد أن شق غبارها واكتوى بنارها وأشفى على أغوارها .

وقد كان عهد ما بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، من أنشط العهود التى أقبل فيها الشعب المصرى إثر الهزيمة على النقد الذاتى ، والدعوة إلى الإصلاح والإقبال على العلوم العصرية ، والأخذ بأسباب النهوض والرقي حتى تنطوى الشقة ما بين الغالب والمغلوب ، ويلحق أبناء هذا القطر العربى بالركب الحضارى الذى سبقهم إليه أبناء الغرب . ولقد كان من ذلك أن كثر في أثناء هذه الحقبة من ظهروا في الأمة من الدعاة المصلحين في كل ناحية من نواحى الحياة الخاصة والعامة ، وكلهم مدين إلى رجل الدين والدنيا ذلك المصلح العظيم جمال الدين الأفغانى الذى كان حيثما ذهب في أقطار الشرق كالنافخ في الصور ، يستنهض الهمم ويستجيش الصدور حتى ليكاد يبعث الموتى من القبور .

وقد عاش جمال الدين الأفغانى طريد الاستعمار ، يلاحقه في كل قطر



الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

من الأقطار . وكان أول ماجر عليه نقمة الاستعمار الغربى ، أنه حين ذهب من الهند إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة حيث يلتقى مئات الألوف من المسلمين ، نبتت في ذهنه فكرة الاستعانة بهذا المؤتمر الإسلامى ، فى محاربة الاستعمار في كل قطر من أقطار العالم الإسلامى عامة سواء في ذلك العالم العربى وغير العربى . فأنشأ هنا جمعية يمثل فيها كل قطر إسلامى واختار اسماً لها « أم القرى » وأصدرت الجمعية مجلة باسمها لتحمل رسالتها إلى جميع الآفاق . منذ ذلك العهد تنبه الاستعمار إلى خطر الأفغانى وبدأت المؤامرات والدسائس تحاك حوله ، وغايتها سد جميع السبل حياله مع محاولة اغتياله . ولما كانت الهند لا تزال تضطرم على أثر ثورتها على الإنجليز عام ١٨٥٧ فقد اتجه إلى الهند ، فلم تحتمله حكومتها الإنجليزية أكثر من شهر وأمرت بترحيله ، فحملوه على السفر على إحدى بواخرهم إلى السويس ، فوصل إليها في أوائل سنة ١٨٧٠ وسافر من السويس إلى القاهرة . وكان نزوله في خان الخليلى ، وأخذ يتردد على الجامع الأزهر . وكانت هذه أولى زياراته لمصر ، وكان في مقدمة المتصلين به الشيخ محمد عبده .

ولم يطل مقام الأفغانى في القاهرة أكثر من أربعين يوماً ، سافر بعدها إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد العزيز ، فلم تلبث أن حيكت من حوله الدسائس ، وكانت هذه المرة باسم الدين ، ومن طريق شيخ الإسلام في دولة الخلافة العثمانية . فعاد إلى مصر في ٢٢ من مارس سنة ١٨٧١ وهكذا ، كان قدومه المرة الأولى على أثر اضطهاد السياسة الإنجليزية له في الهند ، وهذا هو يعود إلى مصر للمرة الثانية على أثر اضطهاد رجال الدين له في تركيا . وقد استقبلت الحكومة المصرية هذا الطريد العظيم بالحفاوة والتكريم ، لما كان يداخل نفس الخديوى إسماعيل وقتئذ من الرغبة في منافسة السلطان في الآستانة ، والاستعلاء على الوقوف منه موقف التابع من المتبوع .

وقد كان من دواعى طمأنينة الخديوى ، رغبة الحكيم الأفغانى في

الاشتغال بتدريس الأدب وعلوم الدين. وكان يفد على منزله من الأزهريين وغيرهم نحو الثلثمائة ، ليأخذوا عنه ويتلقوا العلم عليه . وقد اجتذبهم إليه أنه كان يخــالف العلماء الجامدين ، ولا يسلم بأن باب الاجتهاد مسدود أمام أهل العلم . ومن ثمة كانت تعاليمه الدينية مشجعة على دراسة العلوم العصرية ، والأخذ بأسباب المدنية ، والنزول على حاجيات الزمن الحديث وأحكامه فيما لا ينافي أصول الدين وجوهر نصوصه . ومن هنا كانت شخصية الحكيم الأفغانى وتعاليمه الحافز الأول على توجيه ما كان في مصر وقتئذ من يقظة الخواطر وتنبه الشعور في الوجهه المؤدية إلى النهضة الفكرية والأدبية . ثم لم يلبث الحكيم الأفغانى الثائر أن تطرقت إلى أحاديثه بمجلسه في قهوة « البوستة » المذاكرة في الأحوال السياسية ، فانقلب مجلسه إلى محاضرات في السياسة والحرية والوطنية . ولما كانت للدعوة إلى هذه المبادئ لا تهز النفوس إلا إذا تمت للداعين أداة التعبير القوى والقدرة البيانية ، فقد شجع الأفغانى تلاميذه ومريديه على القراءة في كتب الأدب ، فكان من ذلك أن ازدهرت دولة الأدب على يده .

وهذا مؤلفنا « حافظ إبراهيم » يشير إلى ذلك في « ليالى سطيح » على لسان « سطيح » الحكيم القديم الأسطورى ، إذ يقول في نصحه لأدباء العصر وشعرائه ، وخاصة المتنافسين المتخاصمين وعلى رأسهم شوقي وحافظ إبراهيم :

« ما ضركم لو تساندتم جميعاً ، وأنتم لا تجاوزون منازل القمر عداً ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحركتم من الخامدين ، وهززتهم من الجامدين فإني أراكم بين متفصح على أخيه ، ومتنبل على قرينه ، وليس هذا صنع من يريد ما تريدون ويحاول ما تحاولون من رد هذه الدولة إلى شبابها ، بعد ما خلا من سنها . ولو لم يتداركها الله بذلك الأفغانى لقضت نحبها ، ولقيت ربها ، قبل أن يمتعها بكم ويمتعكم بها .

« أدركها الأفغانى ولم يبق فيها إلا الذماء ، فنفخ فيها نفخة حركت من

نفسها وشدت من عزمها . أدركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب في سوادالشباب ، فشاب قرناها قبل أن تشيب ناصية القرن الخامس . فسودت يده البيضاء ما بيضت من شعرها سودُ الليالى ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها وبدا صلاحها . وقدكان الناس في هذا العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى أبصروا نور الهدى وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى .

« وقام بعده نفر ممن تأدبوا عليه فكانوا كالسيوف فرّجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال ، وجال كلٌ جولته وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى إلى حركة النفس : وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الأسماع الواعية . فكان من ذلك أن انطوى أجل التقليد ، وبعث الله على يديه ميت اللغة ، وأحيا رفات الإنشاء . وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتاباً نأخذ عنه أومؤلَّفا نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رءوساً تؤلف ، وأفكاراً تصنف . وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت ، فكان يقول وهو يجود بنفسه : « خرجنا منها ولم ندع لنا أثراً ظاهراً بين السطور ، ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثر على صفحات الصدور ، فإن لم ترثوا عنا في بطون الكتب ، فقد ورثتم عنا في صدور الرجال ، فإذا حثوتم التراب على رجل الأفغان فعليكم برجل مصر .

« خرج من الدنيـــا كما خرج « سقراط » لم يغادر كلاهما مؤلَّفاً ، ولم يدع مصنَّفاً . فلولا « محمد عبده » ما عُرف رجل الأفغانى ، ولولا « أفلاطون » ما ذُكر رأس فلاسفة اليونان .

« ولما سكنت أنفاس الأفغانى بعد أن تجددت بذكره الأنفاس ، خلفه حكيم الشرق « محمد عبده » في دولته ، ووطن على المضى نفسه في طريقته . فأسمع الناس في الحق ، وأسمعوه ، ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ، ثم مضى لسبيله رحمه الله .

« تفتقت الأذهان ، وتطلعت العقول إلى البحث ، وبرزت اللغة من خبائها تجر مطارف آدابها ، وأطل علم الأدب من مناره مشرفاً على النفوس فأرسل نوره إلى الضمائر ، ونفذت أشعته إلى السرائر ، فنما تحت نظره الشعور ، كما ينمو النبات جادته الشمس بالنظر ، أوكسته أشعة القمر ، فلطَّف من كثافة النفوس ، وهذب من مرارة الأرواح ، حتى شفَّت الأولى ، وعذُبت الثانية ، وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعــلمه » .

هذه الكلمات التي قالها حافظ على لسان « سطيح » في « ليالى سطيح » قمينة بأن يفرد لها مكان في كل ما يخرجه المؤلفون من تصانيف في تاريخ الأدب العربى الحديث ، لأنها بينت مبادئ هذه النهضة وأرستها على قواعدها الحقة ، وما نحسب أحداً بعد ذلك ينكر علينا ما ذهبنا إليه من قيمة لهذا الكتاب في التأريخ لنهضة الأدب عندنا منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وحسبنا أن نذكر ممن تخرجوا في مدرسة الأفغانى في ذلك الحين أديبين تقدّما في الزمان على حافظ إبراهيم ، في معالجة الموضوعات الاجتماعية بما يشبه من بعيد أو قريب معالجة حافظ ماعالجه في « ليالى سطيح » ، وهما إبراهيم المويلحى في كتابه « حديث موسى بن عصام » وولده محمد المويلحى في كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

وليس من الإنصاف أن نقصر الكتابة الأدبية وحسن البيان على البعض دون البعض الآخر من تلاميذ الأفغانى ومريديه ، فقد خرجوا كلهم من مدرسته سواء في ذلك من اشتغلوا بالأدب ومن اشتغلوا بغيره . فهم يعدون جميعاً من أهل البلاغة وصيارفة الكلام على تفاوت فى الطبقة مثل عبد الله النديم والشيخ عبد الكريم سلمان ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، والشيخ بخيت ، وإبراهيم الهلباوى المحامى ، وغيرهم ، فضلاً عن جمع غير قليل ، منهم المسلمون وغير المسلمين ، من أدباء سوريا النازلين بمصر مثل : أديب إسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى ، وسليم العنجورى ، وخليل اليازجى ، وغيرهم كثيرون .

ولما كان الأستاذ محمد عبده أحقهم بالتقديم ، فلا حرج علينا هنا إذا استشهدنا على قيمة « ليالى سطيح » في تقويم رجال التاريخ بهذا التحليل الدقيق . فما أحسبنا نقع في أدب التراجم والسير على ما هو أدق وأصدق من تحليل حافظ في « ليالى سطيح » لنوع ما صار من العلاقة بين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى كان منفياً مع الثائرين العرابيين وكرومر المعتمد البريطانى الذى نصب نفسه دكتاتوراً على المصريين .

روى حافظ في « ليالى سطيح » حديثاً دار بين صاحبين : تقمص هو أحدهما ، وأجرى على لسانه دفاعه عن أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده حين سأله الآخر هذا السؤال : « من أى تلاميذ الإمام تكون ، فقد سمعنا أنهم فريقان : فريق اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه : وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ؟ » . فكان الجواب : « لا علم لى بما تقول ، فلقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره وأرد أنهاره وألتقط ثماره ، فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة — قبحها الله — ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض في شئون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذلك همه — رحمه الله — يلقى في الأزهر دروس التفسير ، وفي داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله . فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ؛ ويقسمون تعاليمه أبواباً ؛ فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران . على أنه كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها في كتاب « الإسلام والنصرانية » ما قال .

« لكنه كان يحتك بها مادعت إلى ذلك الحاجة ، ويرصد حركاتها رصداً ، ويصد غاراتها صداً ؛ خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثرة في طريق الفضيلة . ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه ، وحالت بينه وبين

ما كان يبتغيه ، فكم تلطف في إبتزاز قواها وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى إذا ظفر بِطَلِبَتِه وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء تحت حماية الإفتاء ، عطف على العلم بذلك الإمداد وردّ عليه ما سلبت يد الاستبداد ، ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عاديته ويفسد عليه سياسته في مصادرة العلم ، ومصارعة الحلم . أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس ، وما عبثت به يد ذلك السائس ؟ ولولا أن الإمام مادّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والإرشاد ، لأصابه ماأصاب حكيم الأفغان ، وقُضى على هذه الأمة . ولوكان حياً يوم دار الفلك لنا بالنحوس في دنشواى ، لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير ، الذى جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور » .

كذلك لا نحسب كتاباً في التاريخ السياسى ، أتى على بعض ما أتى عليه كتاب « ليالى سطيح » من تفاصيل ما حدث في أعقاب استيلاء الحملة المصرية الإنجليزية بقيادة كتشنر على العاصمة السودانية « الخرطوم » في ٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ من ثورة بعض العسكريين من الجنود السودانيين والضباط المصريين في وجه القيادة الإنجليزية ، وهى الثورة التى يشار إليها غالباً باسم « حادث الذخيرة » .

وقبل أن نقدم مثالاً من التفاصيل التى أتى بها حافظ في « ليالى سطيح » نورد فوق ما سبق لنا أن أوردناه ، بعض التلخيص لمقدمات الحادث وما صاحبها من الملابسات ، في بضع كلمات لإلقاء مزيد من الأضواء على ما يقصه علينا حافظ في كتابه ، بسبب ما جرى عليه الكتاب من الإضراب عن ذكر الأسماء .

كان كتشنر سردار الجيش المصرى وقائد الحملة المصرية الإنجليزية قد عُين على أثر سقوط الخرطوم حاكماً عاماً على السودان ، فلما نشب الخلاف بين تشامبرلين رئيس الوزارة البريطانية وبين كريجر رئيس الترنسفال بدأت الحرب بين البوير وجنود الاستعمار الإنجليزى ، واجتاح البوير مستعمرة الناتال وأنزلوا بالإنجليز الهزيمة تلو الأخرى ، ثم حاصروا

الجنرال هوايت في مدينة لاديسمث ، وكان قد جاء لنجدته جيش إنجليزى فهزمه البوير بقيادة بوطا Botha في ديسمبر سنة ١٨٩٩ هزيمة ساحقة تردد صداها في الآفاق . وقد كان لهذه الهزيمة التى نزلت بالإنجليز على يد البوير رنة فرح في السودان في حينها عند السودانيين والمصريين على السواء ، وقد نوه حافظ باسم هذه المدينة « لاديسمث » بعد سنين في كتابه « ليالى سطيح » . أما الحكومة البريطانية فبادرت بإرسال قائد عام من قوادها العظام لحرب البوير ، واختير كتشنر ليكون أركان حربه . فاستعفى كتشنر من منصب السردار للجيش المصرى والحاكم العام للسودان ، وغادر الخرطوم في الحال إلى الترنسفال ، ولم يكد يذيع الخبر القائل برحيل كتشنر حتى سرت الشائعات بأنه قد سيقت على أثر رحيله بعض الجنود السودانيين من طريق البحر الأحمر للسفر بغير ضباطهم المصريين للاشتراك في حرب الترنسفال ، وقد كان من شأن هذه الشائعات أن ثارت ثائرة الفرق السودانية التى لا ترى هذه الحرب من شأنها . فاتجهت الشبهة إلى ضباطها المصريين الذين كانوا يتابعون أخبار هذه الحرب ويعلقون عليها في ناديهم تعليقات لا تخلو من السخرية بالإنجليز والشماتة فيهم . وأمام اهتياج الخواطر في الفرق السودانية واتساع نطاقه ، رأى الجنرال مكسويل نائب الحاكم العام في السودان أن يصدر الأمر بجمع الذخيرة من هذه الفرق خشية انقلاب الهياج في الخواطر إلى فتنة عسكرية ، يقدمون فيها على القيام بثورة في الخرطوم ، قد تمتد وتستشرى حتى تودى إلى ضياع السودان من قبضة الإنجليز كما خلص « واشنطون » أمريكا من قبضتهم في حرب الاستقلال ، وكما ستلحق بها — بعد هزيمتهم في لاديسميث — مستعمرة الناتال وغيرها في إفريقيا بفضل قيادة البوير في الترنسفال .

وفيما يلى ما يقصه حافظ إبراهيم من أمر هذه الثورة في ليالى سطيح :

« وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكم من حديث أصحابها : إنهم فتية ربهم أعلم بهم غُلبوا على أمرهم ، وأخذوا بجريرة غيرهم ، وإنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها .

« صدرت مشيئة القائم بالأمر في السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود. فتساءل الناس عن هذا النبأ ، ومشى بعضهم إلى بعض ، وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوزارة وانحراف الأمير عن القوم ، فكثر التأويل كما كثر القيل . فتنبأت طائفة أن سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقي من انتقاض الجيش ، وقد نما خبر خذلانهم في أوليات الحرب الترنسفالية . وظنت طائفة أخرى أن سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا أنه وقع بين الأمير والقوم . وقال ذوو الأسنان منهم « إنها محنة » من محن السياسة يبلون بها طاعة الجيش .

« وقال صاحب الأمر وقد أنهى إليه عيونه أمر تماوج الجيش : إنما نفعل ذلك صوناً للذخيرة من الرطوبة ، وحرصاً عليها من الضياع » .

« ولما كان الليل واجتمع أحداث الضباط في ناديهم ، وأخذوا يتحدثون في أمر يومهم ، قال قائل منهم : « أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود ونحن في بلد غير أمين ؟ وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة ، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم ، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة ، وتغلغل الضغن في نفوسهم ، وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها ، وما أحسبهم وقد علموا اليوم بحالنا إلا غادين على مبادأتنا لعلهم يثأرون . وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ، ويتسقطون الخبر ، وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم ، فهم يعبدون الرداء الأحمر والفارس الأصفر ، فلم يجدوا شيئاً يلقون به صاحبهم هو أقرب زلفى من نقل ماسمعوه . فاستبقوا بابه ورفعوا إليه الأمر على غير وجهه ، فوقع كلامهم في نفسه ووعدهم خيراً .

« وبات يقلب طرفه في أسطرلاب السياسة ، ويحسب تقويم كواكب الرأى في أفق الدهاء . وحدث في ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصفت برءوسها النخوة ، فعطفت على الذخيرة فارتدتها قسراً ، ولما حاول كبيرهم أن يثنى عنها عنانهم ، ويحول بينها وبينهم ؛ وفوه قسطه من الأذى ، وما زالوا به حتى رنحوه لطماً ولكماً .

« فعظم الأمر على صاحب الأمر ، وكادت تنخلع شعبة مهجته هلعاً ، ويقطع نياط قلبه جزعاً ، وتمثل له شخص « واشنجطون » وفي يده علم الاستقلال ، وطاربه الوهم إلى « ليدى سميث » فانحلت منه الأوصال ، ونسى أنه بين مصرى له ولىٌّ من الذل ، وزنجي على قلبه أكنّة من الجهل ، وكذلك لم يجد له عزماً ، فجمع إليه نفراً من قومه وشاورهم في الأمر ، فأشاروا عليه بالتماسك ، وأن يتراءى للجنود في هيئة المتفقد للشئون ، المستخف بالكوارث

« فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرس ولا يماشيه أحد من قومه . وكان معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته ، وإمضاء أمره ، فما زال يستقرى الوجوه والأبصار . وهو كلما مر بقوم تراصفت أقدامهم ، والتصقت أيديهم بجباههم ، وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع .

« حتى إذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع ، نظر فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن في بعض ، وفي يد كل واحدة منهن هراوة . فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبسن بها وجه جواده ، فأشفق أن يصيبه عنت منهن فلوى رأس جواده ، وأخذ يحثه هرباً . وما زال يركضه ملء فروجه حتى وصل إلى دار حكمه .

« فلما أمن في سربه أصدر مشيئته ثانية بإبقاء الذخيرة في أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود . وبعد أن كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة ، وحفظها من الضياع ، أصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع .

« فدعت مثنوية رأى الحاكم سوء ظن المحكوم حتى ذهبت الظنون مذاهبها ، وحتى قال أحد الجنود السودانية لكبيزه وهو يخطبهم ويدعوهم إلى الامتثال : ألم تعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقاً ضعيفاً كان أو قوياً ، إلا جعل له من جسمه ما يدرأ به الأذى عن نفسه ؟ وهذه السمكة في قاع البحر قد أنبت لها في ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر فكيف بي وأنا

ليس لى ما أذود به الردى عن نفسى إلا تلك الآلة التى نزعتم روحها فأصبحت كالعصا ، وما أردتم بنا الخير ولكن على كيدنا تعملون .

« وفي ذلك اليوم استدعى صاحب الأمر أصحاب ذلك النادى وقد طرح عنه الأنفة السكسونية ، وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانية ، وأخذ يروض نفسه على التخلق بأخلاق بنى الإنسان . وقال لهم وقد مثلوا بين يديه، وما منهم إلامن استروح روائح الرفق من شمائله : « لقد رفع إلينا خبز كم بالأمس وما خضتم فيه من الحديث، فكدنا نعجل العقاب لولا ما سبقت به شفاعة الحلم . فأنتم وإن أخطأكم عاجل العقاب فلا يخطئكم آجله إذا عدتم لمثل فعلتكم التى فعلتم ، فاذهبوا طلقاء السن ، فلولا حداثتها لمثلنا بكم تمثيلاً . وإياكم وذكر السياسة . فلستم من المنزلة التى يتناول أهلها الكلام فيها . فانزعوا عن شياطين الصحف فهى إنما تزين لكم من العمل ما لا تحمد له مغبة ولا تغتبط عاقبة . ولا يقوم بنفوسكم أن الكهرباء الفرنسية تسرى فيأعصاب أرض وطئتها قدم الإنجليزى فهى لها الجسم العازل والحد الفاصل ، فما غاب عنا أمركم ولكن سوف تعلمون من منا يحز الودج أسفاً ، ويقلب الكف ندماً ، ويقول ياليتنى لم أتخذ مع الجهل سبيلا » .

« وينقضى ذلك اليوم والأحرف البرقية تنبض بأسلاكها والرسائل بين السردار (السير ونجت)(١) ونائبه (مكسويل) تروح وتغدو على وجهها ، وتملأ أنباء الثورة فؤاد السردار رعباً ، فيقول في نفسه : « أفتنة في الجيش ولما أقم بالأمر فيه غير أيام معدودات ؟ فيا سعد كتشنر كيف تحولت لى نحساً ؟ ». فيخف إلى العميد (كرومر) فينفض إليه جملة الخبر ، ثم يستوزعه الرشاد في العمل فيلقنه كلمات يلقى بها الأمير (عباس حلمى) . ويعود السردار وهو يحمل ذلك الأمر العالى .

وهنا تمنعنى هيبة الأمر من التعرض لذكر ما جاء في الأمر . فالله عليم بذات الصدور » .

---

(١) الأسماء الموضوعة بين قوسين من قبيل الشرح وليست فى الأصل .

ونحن نكتفي بهذا القدر ونترك للقارئ أن يتابع قراءة البقية في موضعها من الكتاب من حيث وقفنا فإن ما لحق من التفاصيل عن ذيولها أهم مما سبق في بيان صدورها . ومن هذه الذيول أساليب الإنجليز في التفرقة بين السودانيين والمصريين ثم تهيئة الشهود وتزييف صحيفتهم ثم مهزلة التحقيق وما آلت إليه من اتهام ما يربو على الثمانين في تلك الفتنة الصغيرة ، على حين لم تجر الثورة العرابية كلها إلى ما يقارب ذلك العدد . وأخيراً ما تفتقت عنه الحيلة واستقر عليه الاعتماد ، وهو الحكم بما يمليه الضرب بالقداح (اللوتارية) ، فكل من صادف النحس سهمه حق عليه العقاب .

وإلى جانب هذا إشارات كثيرة منبثة هنا وهناك في غضون الكتاب عن الامتيازات الأجنبية وسر تغاضي الإنجليز عنها ، والمعلمين الإنجليز في المدارس المصرية ، وسياسة دنلوب في ديوان المعارف ، وغير ذلك من التفاصيل التي لا نجدها في كتاب آخر .

لهذا كله كانت من المزايا الكبرى لكتاب « ليالي سطيح » قيمته التاريخية ، وهي حسبه من مزية ، ولكنه فوق ذلك حاز مزية أخرى وهي قالبه الأدبي وصورته الفنية .

ليالى سطيح فى صورتها الفنية

إذا ذكرنا أن حافظ إبراهيم كان في صباه – إلى جانب حفظه عن ظهر قلب لقصة عنترة بن شداد – شديد الولع بقراءة « ألف ليلة وليلة » ، وأنه حين بلغ مبلغ الرجال كان وهو في السودان – إلى جانب عكوفه على قراءة مؤلفات فيكتور هوجو – يستحب قراءة « ليالى » الشاعر ألفريد دى موسيه ، إذا ذكرنا هذا وذاك ، لم نعجب إذا شهدناه في هذا الكتاب قد انجذب – من غير تعمد ولا قصد – إلى مساق حديثه عن همومه وأشجانه ، وشواغل قلبه وخواطر جنانه ؛ في كل ما يتعلق بأوطانه من قضايا الاجتماع والأدب والسياسة فضلاً عن حكاية ما خبره بنفسه ووقع لشخصه في مصر والسودان ، مقسماً إلى « ليال » كما فعل الفريد دى موسيه في الحديث عن حبه ، وكما فعلت شهرزاد من قبله فيما صورته للملك شهريار من تصاريف الزمن وتصرفات البشر في العالم كله .

ولا نكتم القارئ أننا كنا نعجب ونأسف معاً ، لوقوف حافظ في لياليه هذه ، عند السبع الليالى لم يتجاوزها . ولكننا حين رجعنا إلى الطبعة الأولى تبين لنا مما هو مسطور فوق العنوان ، أن ما بين أيدينا إنما هو الكتاب الأول ، فبطل عجبنا . أما أسفنا فقد ضاعفه علينا أن المؤلف الذى كان في عزمه أن يتبع الكتاب الأول بغيره لم يفعل . ولعله لو فعل ، لبلغت « ليالى سطيح » التى بين أيدينا اليوم ألف ليلة وليلة ، وإذا كانت بعضها ستكون ليالى سوداً من مساوئ الإنجليز ، فإن فيما يليها من مواقف الوطنية وبطولة الثوار ، كان كفيلاً بأن يجعلها في بياض النهار .

والآن ندع هذا الطمع ، ونرجع إلى الليالى السبع التى بين أيدينا ، فإن فيها لمقْنَعٌ للدارس المستفيد والناظر المستمع .

في أولى هذه الليالى الساهرة « ليالى سطيح » نلقى – أول ما نلقى –

الراوى : فلا يزيدنا التعريف به على أنه من أبناء وادى النيل في القاهرة : وهذا هو يروّح عن نفسه المثقلة المهمومة بالسير على ضفة النيل في ساعة الأصيل ، حتى إذا تعبت قدماه ، جلس حيث ساقته خطاه ، وقد جن عليه الليل ، فأخذ في مناجاة نفسه ومناجاة النيل . فلما أخذ حظه من الراحة وحان موعد الإياب ، لم يكد يهم بالنهوض حتى وقع في سمعه في ذلك السكون ، صوت إنسان يسبّح خالق الكون . فلم يتمالك أن انطلق نحو مصدر الصوت ، وما هو إلا أن اقترب ، حتى ارتفع الصوت يقول مقالاً لا يصدر إلا عن كاهن عراف . ولا غرو ، فإنه بعينه « سطيح » الكاهن التاريخى الأسطورى ، كما يدل عليه أسلوبه النثرى في التزام السجع والخطاب الرمزى .

وإذا كانت الأسفار العربية القديمة قد كشفت لنا عن شخصية « سطيح » بما روته عنه الأوصاف حقيقة كانت أو خيالاً ، فإن ما أجراه حافظ إبراهيم في كتابه هذا على لسان سطيح الكاهن العراف القديم من الإشارات ، يكشف لأهل العلم عندنا دون حاجة إلى مزيد من الإفصاح والإبانة عن مختلف الشخصيات .

ألم يكفنا أن قال سطيح في صفة الراوى : « أديب بائس وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ودهته الحوادث » حتى اتجه ذهننا أول ما اتجه إلى أن المقصود بهذه الأوصاف حافظ إبراهيم نفسه ، كما عرفناه من سيرته ورسائله، ومترجماته وقصائده .

ومما يؤكد أن حافظ إبراهيم هو المقصود بها ، ما جاء بعدها في خطاب سطيح :

« أى فلان ، لقد أخرجت للناس كتاباً ، ففتحوا عليك من الحروب أبواباً . وخلا غابك من الأسد ، فتذاءب عليك أهل الحسد . أى فلان : إذا ألقى عصاه هذا المسافر ، وغادر بحر العلم أرض الجزائر ، فقد بطل السحر والساحر » .

هذا كله ينطبق على حافظ إبراهيم ، فإن « ليالى سطيح » هذه كان

نشرها عام ١٩٠٦ بعد وفاة أستاذه ونصيره الإمام محمد عبده بعام واحد ، وكان قد اضطلع قبل وفاة الإمام وبوحى منه بترجمة قصة « البؤساء » للشاعر الفرنسي فيكتور هوجو الذى أخرجها سنة ١٨٦٢ وهى قصة ضخمة الحجم ، ولم ينجز حافظ من تعريبها إلا بضع صفحات سلخ فيها من عمره عاماً كاملاً ، ونشرها سنة ١٩٠٦ وأسماها : « الكتاب الأول من البؤساء »، وجعل إهداءها للأستاذ الإمام « موئل البائس ومرجع اليائس » وكان من حسن رعاية الإمام له أن حرص على تقريظه ، ومع ذلك كله فإن المناوئين لحافظ ومنهم خصوم المفتى دفعوا الصحف — وعلى رأسها الصاعقة — إلى الحملة الجائرة عليه .

كذلك لا شبهة في أن « أسد الغاب » الذى كان يحمى صاحب الكتاب ، هو الشيخ الإمام محمد عبده . ويؤيد ذلك الإشارة هنا إلى « بحر العلم الذى غادر الجزائر بعد أن ألقى فيها عصا المسافر » ، فإن الإمام قد سبق أن زار الجزائر ، ولا سبيل إلى نسيان ذلك فقد نظم حافظ قصيدة نشرها في السادس من أكتوبر عام ١٩٠٣ يحييه ويهنئه بمناسبة عودته منها ، وفيها يقول الشاعر :

يا أميناً على الحقيقة والإفـــ	تاء والشرع والهدى والكتاب
خشع البحر إذ ركبت جواريه	خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المصــــ	قول كالفرند أو كالسراب
يتجلى كأنه صحف الأبـــ	رار منشورة بيوم المــآب
علمت من تقلّ فانبعثت للـــ	قصد مثل انبعاثه للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المضـ	طر في مسبح الدعاء المجــاب
وضياء «الإمام» يوضح للربـّ	ان سبل النجاة فوق العباب
بات يغنيه عن مكافحة البحـــ	ر ورقبيّ النجوم والأقطـــاب
وسرى البرق للجزائر بالبشـ	رى بقرب المطهـّر الأوّاب
فسعى أهلها إلى شاطئ البحـ	ر وفوداً بالبشر والترحاب

وفي آخر هذه الليلة الأولى يختم سطيح خطابه الذى خاطب به شاعرنا الراوى بقوله له :

« فانكفئ إلى كسر دارك وبالغ في كتم أسرارك ، وأقبل غداً مع الليل ، وترقب طلوع سهيل ، ومتى سمعت من قِبلنا التسبيح ، فقل لصاحبك الذى يليك هلم إلى سطيح » .

فإذا كانت الليلة الثانية ، مضى الراوى إلى حيث مكانه بالأمس ، فإذا فيه إنسان يعرفه وهو ساكن سكون الشيخ الوقور وقد استرسل في التأمل والتفكير ، ثم إذا به يحدث نفسه بصوت مسموع عن الحجاب وعدم غنائه في حجب الفساد ، وعما يعود به السفور من فتح المنافذ إلى النور ، حتى إذا عاد هذا المفكر المتحدث إلى سكونه ، تراءى له شاعرنا الراوى وذكر له حديث سطيح ، فجعلا يرتقبان معاً طلوع سهيل ، ويتسمعان للتسبيح في جوف الليل ، فلما علا التسبيح ، هرول الاثنان إلى موضع سطيح ، فإذا بصوته ينادى الصاحب الذى كان مع الراوى فيقول :

«صاحب مذهب جديد ورأى سديد ، دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث في الأسباب ، فألقوا معه نقاب الحياء ، وتنقبوا من دونه بالبذاء . أى فلان : إذا مضت على كتابك خمسون حجة ، وظهر لذى العينين إدلاؤك بالحجة ، تكفل مستقبل الزمان ، بإقامة الدليل والبرهان» .

هذا الخطاب على لسان سطيح مع اصطناعه التلميح دون التصريح ، فيه الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على أن المخاطب هو قاسم أمين ، نصير المرأة ، في ذلك الحين ، والداعية إلى رفع الحجاب .

وعلى هذا المثال أوما هو مشابه له قريب منه في الرمز والتلميح ، نعرف الكثيرين — بمجرد سماع أوصافهم دون تصريح بأسمائهم — من أساتذة المؤلف وأصدقائه ، ومن منافسيه الغالبين عليه ونظرائه ، ومن الظاهرين والمستترين من خصومه ومناوئيه وهؤلاء جميعاً من مواطنيه ، وأخيراً أولئك الذين كانوا يوماً جلاديه وجلادى أبناء النيل في مصر والسودان وهم

الإنجليز ، وأبغضهم إلى نفس حافظ : السردار الإنجليزى كتشنر الذى يرمز اليه سطيح بقوله :

« قائد الجيشين ، ورافع العلمين ، الحاكم بالإرادتين ، ووكيل الدولتين ، فاتح أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان .... ساكن القصر ، ونابش القبر . ناسف القبة ؛ وسالب الجبة . والجاعل قبته مربطاً للجياد ، ومسجده ملعباً لحمر الأجناد .... ذلكم اللورد الكريم ..... »

وهكذا تعبر بنا تلك الليالى الطوال « ليالى سطيح » في الحوار بين الشخصيتين العتيدتين : الراوية وهو شاعر النيل حافظ إبراهيم ويقوم بعرض القضية ، و « سطيح » الكاهن العراف القديم في عهد الجاهلية العربية منذ مئات السنين ، وعلى لسانه يُجرى حافظ مايرى أنه حكمة الدهر التى فيها مقطع الصواب وفصل الخطاب لما يعرضه من مشكلات العصر .

وسماع الحكمة من سطيح على وجهين : فهو أحياناً يصدع بالحكمة مبتدئاً قبل توجيه السؤال إذا كان قد أغنت عنه الحال . وأحياناً يلتمس منه حافظ الهداية كأن يقول على سبيل المثال : ألا يحدثنا ولى الله عن الحرية ، تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها ، فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها ، حتى أسكنوها في غير معناها ؟ .

فيقول سطيح :

« عن الحرية سألت ، وعلى الخبيز سقطت ، اعلم يا ولدى أنها معنى الوجود وملاك الحياة ، وقد منّ الله عليكم بقسم منها ، ولكنكم خرجتم به عن أفق الحرية الشرعية ، ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية ، بل رسمتم للحرية تعريفاً أنكره الشرع ، وتسخطت له الفلسفة .

« عرفها الأول فقال : إنها تكون في حفظ الدين والعرض والشرف والمال ، وأوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف ، فقالت : هى أن يكون المرء حراً في عمله ورأيه ، على شريطة ألا يدعو ذلك إلى أذى غيره .

« فما أعجبكم الأول ولاراقكم الثاني علىمافيه من التسامح ، بل زعمتم أن تعريفها الشائي هو أن يعمل المرء ماشاء أن يعمل ، ويرى من رأى ماشاء أن يرى ، وأن سبيله في ذلك أن يستطرد به جواد الإرادة المطلقة في ميدان الشهوات ، لا يبالي داس به آداب ذلك المجتمع الإنساني أم تخطى أعناق الفضائل » .

والناظر في ليالي سطيح يلحظ – مبتسما – حرص حافظ الشديد على أن يتمثل الحكيم سطيح في مواعظه الحكيمة بأبيات من شعره يقدم لها بقوله : « كما قال شاعركم » ، أو « كما جاء على لسان صاحبكم » ، وكذلك يجعل حافظ من نفسه في وقت واحد أكثر من شخص إذا دعا الأمر في هذا وفي غيره .

وقد يحاول حافظ أحياناً أن يتهرب من تبعة كلامه كله ، فيضع شطر كلامه – وهو الأعنف – على لسان غيره ، ويتحمل هو الشطر الآخر ، لأنه الألطف ، كما هو الحال في مهاجمته للشاعر أحمد شوقي – وكانا متنافسين – فقد جعل المهاجمة مناصفة بينه وبين آخر مجهول .

بيد أنه أياً كانت الحال ، فإن حافظ حرص على أن تبقى شخصيته في ليالي سطيح معبرة عنه تعبيراً أقرب مايكون إلى الصحيح ، باعتباره ابن أرضه وزمنه ، فلا يخلو من تعصب لرأيه وميل الى عاطفته ، وتحيز لمصلحته ومصلحة قومه . أما شخصية سطيح حكيم الجاهلية العربية وكاهنها العراف فانها تمثل العقل الصرف ، الخالص من الأهواء والشهوات وإن كان لايخلو من حرص المشير العاقل على مصلحة السائل .

بيد أن حافظ لم يذهب بعيداً في استغلال شخصية « سطيح » الأسطورية ، ولم يظهر من التوسع والتفنن في استخدامها ماكان يمكن ان تظهره قوة الملكة الخيالية عند أصحاب السليقة الشعرية . ولعل حافظ قد راعى في ذلك أن مايعالجه في صفحات كتابه هو قضايا واقعية من صميم الأحداث المصرية ، ولهذا اكتفى بأن يكون سطيح في هذا القرن العشرين ، روحاً هائماً في الليل ، هاتفاً من وراء الغيب ، واقعاً في الآذان صوته ، غير ظاهر للعيان شخصه .

ولقد أدار حافظ كل ليلة من لياليه مع سطيح على موضوع ، ولكنه

توخى أن يمزجه ببعض التفاريع ، فالليلة الأولى نجد فيها المؤلف وحده يناجي النيل ، ثم يكون لقاؤه مع سطيح ، أو على الأصح استماعه إلى صوت سطيح . أما الليلة الثانية فمدارها المرأة ، وقضيتها بين الحجاب والسفور ، وفي هذه الليلة لايكاد سطيح يتم حديثه وينقطع صوته حتى يشفق حافظ أن يكون نصيبه من رؤيته كنصيب الأمس ، فيقول : « يا ولى الله ، قد سمعنا صوتك ولم ننظر إلى شخصك فهل لك أن تمن علينا برؤية شخصك الكريم ؟ » ، فيقول سطيح : « لقد قدر أن تراني ، بعد أن كشف لك عن مكاني فلا تقطع غدك الزيارة ، واذكر مابيننا من إشارة » . وفي الليلة الثالثة يتجدد اللقاء ويدور الحديث عن سورية ومصر ، وفي الليلة الرابعة عن الامتيازات الأجنبية في مصر وموقف الإنجليز منها ، وفي الخامسة عن الصحافة ، وفي السادسة عن الأدب عامة والشاعر أحمد شوقي خاصة ، وفي الليلة السابعة يدور الحديث على الثورة السودانية وحادث الذخيرة .

ويشذ هذا الحديث الأخير عما سبقه من الأحاديث ، لأنه لم يكن مع سطيح ، بل مع ابن سطيح . لقد افتقد حافظ في هذه الليلة سطيح فلم يجده ، ثم مالبث بعدها أن تراءى له إنسان لم يدر أخرج من الأرض أم من السماء هبط . فتبينه فإذا هو غلام مراهق يتيمن الناظر بمشهده ، فداناه وهو يكبره لما ألقى الله عليه من الهيئة ، ويروى حافظ ما كان من شأنه معه فيقول :

« لقد بهرني جماله وأخذ مني حسن سمته ، فما هو إلا أن رآني حتى أقبل بوجهه على وخاطبني بلسان عربي ، قد خلص من لوثة الأعرابية ، وسلم من لكنة الأعجمية .

« قال بعد أن حياني وسكن إلى وداناني : إن ولى الله يأذن لك أن تنطلق إلى هذه الحاضرة ، وأنا ولده فكن مني بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران ، فقد أذن لى أن أبرح الليلة الغار ، ومدّ لى في أجل الرجوع حتى يلوح النهار . فقلت له ، وقد تحفظت مااستطعت من أن تبتدرني سقطة في الكلام فيعدها على ، فقد رأيت نفسي أمام عربي في صدر الإسلام ، قد قوم التنزيل

من لسانه ، وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه : ألا أرى الليلة ولى الله ، وقد كانت بيني وبينة آية للقاء» .

قال : « إنه يتهيأ للقاء الخالق ، وقد انقطع عن كلام المخلوق ، ألا تذكر ما قاله لك يوم ظفرت بلقائه : « لقد كُشف لك عن مكانى وقد آن أوانى »قلت : « ألا أتزود منه بنظرة ؟ » ، قال : « في غد إن شئت أعد الكرة ، فإنه موعود برؤيتك ، في يوم خروجه من الدنيا » ثم أومأ بالمسير ، فسرت كالمأخوذ ، ونفسى على غير ما أعهد ، كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التى تتصل فيها بعالم الملائك ، وكنت كلما نظرت إلى ذلك الوجه المقسم وهو يألق بجانبي هممت بتصديق « المقنّع » فيما يدعيه في بدره ، وما يخيله للناس من ضروب سحره . فما زلت أسايره وما أكلمه هيبة وإجلالاً ، وقد كنت آليت ألا أبدأه بالكلام حتى عبرنا الجسر ، وقطعنا مابين يديه من الطريق وقد هممنا أن نعطف يسرة ، قال صاحبي : « أراك منذ صحبتك صامت اللسان ، وإن كنت ناطق الجنان ، فمالك لاتحدّث ضيفك ؟ »

قلت : « إنى رأيت فيما لايغيب عنك من أدب المحاضرات ، ألا يكون كلام الصغير إلاجواباً على سؤال الكبير ، وقد ساورتنى منك هيبة فكرهت أن أبدأك بالكلام ، فتنزل أمرى على الجرأة عليك، وقد قال الأستاذ الإمام رحمه الله : « العلم ما علمك من أنت ممن معك » وإنى لخليق ألا أخرج عن أفق القدر الذى حدده لنفسى علمى بها ، فليس لى عنه متقدَّم فأغرر بها ، ولا متأخَّر فأغض منها » .

قال : « إنى لأرى أناة تحمد ، وفضلاً لايجحد ، ولقد أكرمك ولىُّ الله بحسن الثقة وأكرمنى بصحبتك أيها الأديب ، فانطلق بى إلى تلك البقعة التى وقف الشيطان في ساحتها ، يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار في العود ، ويشيع المنقلب عنها بنظرة لو كانت سهماً لنفذت من صميم الجلود » : قلت « لعلك تعنى الأزبكية ؟ » قال : « أى وأبيك ، فانطلق بى إليها » ، قلت : « بأى الأندية تريد أن نبدأ ؟ » قال : « بأنفقها سوقاً وأكثرها فسوقاً » قلت : « هذه المراقص المصرية والمخازى العصرية » .

ويشاء حافظ هنا أن يستوقفهما برهةغير قصيرة ، من يحدثهما عن السودان حديثاً خطيراً . فلا يكاد يفرغ منه ، حتى يقول ابن سطيح لحافظ : «دعنا الساعة من ذكر السياسة فإنني أخشى أن ترتفع أذيال الظلام قبل أن نقضى اللبانة من رؤية تلك المراقص » ، وعندها يعطفان على المرقص .

« فما هو إلا أن دخلنا ، حتى نظرنا ، فإذا امرأة نصَف، قد تبذلت في ملبسها حتى خرج بها التبذل عن أفق الحياء ، تكاد تتزايل من فرط التمايل أعضاؤها ، وينعقد من شدة التهييف خصرها ، فهي تتلوى التواء الحية الرقطاء ، وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء . فأجال ابن سطيح نظرة في أنحاء المرقص ألمت بجميع مافيه ، ثم دعاني إلى النهوض فنهضت ، وما كدنا نجاوز الباب حتى انشأ يحدثني فقال وهو يخافت من صوته : « إني نظرت فما كاد يرتد إلى طرفي حتى ألمحت بجميع مايقع بين تلك الجدران من أسرارهذه المخازي العصرية »، قلت : « وما عسى أن يكون قد كشف لك منها في هذه اللمحة اليسيرة والنظرة القصيرة ؟ »قال : « رب نظرة عجلى تنقطع دونها سوابق الأفكار ، وتنكشف أمامها غوامض الأسرار » .

وانطلقنا إلى بيت من بيوت الله ، فقضينا فيه صلاتنا ولم نبرحه حتى برحت الشمس خدرها فقلت له :«أعزم سيدى على الرجوع إلى أبيه ؟ ، أم على الأخذ فيما كنا بالأمس فيه ؟ »قال : « إني ليحزنني أن أعود قبل أن أرى أسواق هذه الحاضرة وأقف على شيء منعاداتها» قلت : «لله أبوك ، فما عدمت مافي النفس » ثم أخذنا طريقنا إلى الغورية .... الخ

ويأتي حافظ على كل طريف في وصف الزحام على الحوانيت في المواسم ، ومنظر هذا التاجر أو ذلك وهو يبالغ في تنفيق سلعته بضروب التمليق وصنوف التزويق ، ومنظر الشارى يدارى رغبته فيها وهو يساوم ، إلى آخر هذه الأوصاف وأمثالها .

وهنا في هذه اللوحات ، يظهر لنا ماكان يغالب حافظاً من خفي الرغبة في مباراة معاصره محمد المويلحي في كتاب « عيسى بن هشام » الذى ضمنه

أمثال هذه المشاهد في مصر ، وهو يطوف بها مع شخصية غابرة انشق عنها القبر ،فيسمع منها عبارات الدهشة ، ولواذع النقد . وإذا كان المويلحى قد استحيا هذه الشخصية من القرن الماضى ، فقد عمد حافظ إلى استحياء « سطيح » ليكون أبعد توغلا في القدم ، وأغرب إبداعاً في المعجزات وخوارق العادات .

وليس هنالك ما يمنع هذه المباراة من حافظ لكتاب أفاء على صاحبه منذ ظهوره شهرة واسعة، ولكنه لم يكن في ذلك بالمقلد المستغرق في التقليد ، فهو لم يبدأ هذه المباراة إلا في أجزاء من كتابه ، كما أنه لم يمض فيها إلى آخر الشوط ، بل كان يتوقف ليعاود ما كان فيه من حديث عن الإنجليز في مصر ، والشركة السودانية ، ومصر بين التبعية التركية والاحتلال الإنجليزى ، ودروس الإمام محمد عبده بالأزهر وداره ، وسياسته مع الإنجليز . وقد كان من جراء هذه الاستطرادات فى فصول أشبه بالمقالات ، فضلاً عن انقطاع الصلة المباشرة الحية في سياقه للأحداث وعرضه للشخصيات فى البداية والتفاريع والنهاية ، أن جاءت « ليالى سطيح » غير مستوفية لمقومات القصة الحديثة من حيث البناء والحركة والوحدة الفنية ، وهى التى يجتمع منها ما يحقق للقصة الحديثة تلك البنية العضوية المعروفة بها . ومن ثمة كان كتاب حافظ « ليالى سطيح » وسطاً بين القصة والمقامة والمقالة .

ولعل القارىء لا يرتضى الخاتمة التى ختم بها حافظ « ليالى سطيح ». ولكن في ذكر السبب بطلان العجب ، فإن ما نأخذه على أنه الخاتمة ، ليس في حقيقة الأمر بالخاتمة ، وإنما هو نهاية الجزء الأول من كتاب كانت له بقية حالت دون إنجازها الحوائل . ومع ذلك فإننا على يقين من أن « ليالى سطيح » في صورتها الراهنة تبدو إلى حد كبير تامة البنية كاملة الفتنة ، مجددة الشباب والحيوية ، غنية بكل ما يجعلها تحفة فنية .

الخاتمة

يتبين مما تقدم أن الكتاب الذى نقدم هذه الكلمة بين يديه ، كتاب تنعكس على مرآته السحرية ذكريات واقعية معظمها فاجع . ولكن هذا الواقع الفاجع ، يلطف من واقعيته ويخفف من فجاعته ، أنه أصبح في ذمة الماضي ، كما أن ذكرياته المروية ، يجمـّل سردها أنها محكية على نسق الحوار بين شخصيات متعددة ، وبصفة أساسية بين شخصية « حافظ » الحقيقية ، وشخصية « سطيح » الأسطورية .

ولقد استهوى هذا النسق في معالجة الموضوعات الواقعية عموم القراء ، وارتضاه معظم نقادنا المعاصرين حتى تأدى بالبعض إلى اعتبار هذا العمل الأدبى الذى يهدف إلى النقد الاجتماعى ، من الفن القصصى .

ومهما يكن وجه القول في نسبة هذا النسق إلى فن القصة أو فن المقامة أو الفنين معاً مضافاً إليهما فن المقالة ، فإن « ليالى سطيح » من الآثار الأدبية التى تجمع إلى المتعة الجمالية قيمة الوثيقة التاريخية ، وطرافة اللوحات التصويرية الحية ، وقوة النقد الهجائية للبيئة الاجتماعية ، وروعة الدعوة إلى الإصلاح والنهضة . ومن أجل هذا جميعه ، كان هذا الكتاب « ليالى سطيح » جديراً بأن تتزود به كل مكتبة عربية ، ليرجع إليه كل القارئين فى الوطن العربى فى الحين بعد الحين للمتعة والعبرة .

عبد الرحمن صدقي

ليالي سطيح

تأليف
محمد حافظ إبراهيم

سطيح

حدّث أحد أبناء النيل قال :

ضاقت عن النفس مساحتها لهمٍّ نزل بي وأمرٍ بلغ مني ، فخرجت أروّح عنها ، وأهوّن عليها ، فما زلت أسير والنيلَ ، حتى سال ذهب الأصيل ، فإذا أنا من الأهرام أدنى ظلام(١) ، وقد فتر مني العزم ، وسئمت الحركة ، فجلست أنفس عني كرب المسير ، واضطجعت وما تنبعث فيَّ جارحةٌ من التعب ، وكنت من نفسي في وحدة الضيغم ، ومن همومي في جيش عرمرم(٢) .

وجعلت أفكر في هذا الدهر وأبنائه ، فجرى على لساني ذكر ذلك البيت :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطيرُ

فردّدته ما شئت ، وتغنيت به ما استطعت . وقلت : إي والله ، لقد صدق القائل ، ما خلق الله خلقاً أقل شكراً من الإنسان ، ولا أطبعَ منه على افتراء الكذب والبهتان .

ثم مرّ بالخاطر بيت آخر :

تباركت أنهارُ البلاد سوائحٌ ... بعذبٍ وخُصّتْ بالملوحة زمزمُ

فنقلتُ إليه متاعي ، وحوّلت حاشيتي ، وما متاعي غيرُ الأماني السانحة ، ولا حاشيتي سوى الهموم الفادحة . ولبثت أتفيّأُ(٣) من ظلاله ،

---

(١) ظلام : أعني قريباً .

(٢) عرمرم : كثير العدد .

(٣) تفيأ الظل : استظل به .

وأتأمل في حسن أشكاله . وإني لكذلك إذ سطعت ريح كريهة انهزم أمامها النسيم ، وانقبض لها صدر الجو ، وتعبّس بها وجه النهر ؛ فعلقت أنفاسي ، ولكن بعد أن نالني منها ما صدّع الرأس وغشّى البصر . ولما أفقت من هذه الغشية وانجلت تلك الغاشية(١) ، نظرت فإذا أصل البلاء جيفة فوق وجه الماء ، فغاظني ما أرى ، وهاجني ما أشَمُّ ، وقلت أخاطب النيل :

ويحك ! إلى متى يسع حلمُك جهل هذه الأمة المكسال ؟ وإلى كم تحسن إليها وتسيء إليك ؟ علمتَ أنه سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك ، واتكلت على حلمك ، وبالغت بعد ذلك في عقوقك . ولقد كانت ترجو في سالف الدهر خيرك وتتقي شرك ، فتحتفل في مُهاداتك(٢) ، وتتحامى طريق معاداتك . أذاقتك وصال الحسان ، وخالفت فيك شريعة الديان ، وأرشفتك رضاباً أعذب من مائك ، وأحلى من وفائك ، ثم غيَّرها عليك الزمان ، فجادتك بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين ، وأمعنت في العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ، ثم أمعنت في العقوق فصيرتك مقبرة للجيف ؛ لتصبح بذلك مجرى البلاء ومستودعاً للوباء .

سبحانك اللهم هذه زمزمُ على ملوحتها قد عزت بجوار بيتك القديم ، فتهادى بمائها القصَّاد ، وحملوه إلى أقصى البلاد ، وحرَص أهلها على عينها حرص المرء على عينه . وهذا النيل — على عذوبته — قد ذل بجوار قوم أهانوه . ولو كان عند غيرهم لعبدوه . وتالله لو جرى في غير مصر لبنَوْا عليه أسواراً من النفوس ، وأقاموا عليها حرساً من الضمائر . أفٍّ لتلك الأمة ! جهلت قدر محييها ، ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الأرزاق ، ومن حمرة مائه تخضر تلك الأوراق . أفٍّ لها ! ما أقلَّ شكرانها ، وأكثر كفرانها : ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه ، فلا يزال يكيد له حتى

---

(١) الغشية : الإغماءة ، والغاشية القيامة ، ويراد بها الشدة .

(٢) مهاداة مصدر هادى ، من الهدية .

يبلغ منه ، ويكتب فيها الكاتب فينبرى له سفيهها ، فلا يفتأ ينبح عليه حتى ينشبَ فيه نابه ويفسدَ عليه كتابه ، ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلها ، فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهرَه على شعره :

يا رب أخرجني إلى دار الرضا   عجلاً فهـذا عالم منحوسُ
ظلوا كدائرة تحـوّلَ بعضُها   عن بعضها فجميعها معكوسُ

[الليلة الأولى]

ثم إني أمسكتُ عن الكلام ، وعزمت على التحول من هذا المكان ، وإني لأهُمّ بالنهوض إذ وقع في سمعي صوت إنسان يسبح الرحمن يقول في تسبيحه : سبحان من حكم على الخلق بالفناء ، سبحان من تفرد بالبقاء . فخشَع قلبي عند ذكر الله وقلت : أنطلقُ إلى صاحب ذلك الصوت ، فلعلى أظفر بأحد عباد الله الصالحين فأستدعيَهُ لى دعوة يمحو الله بها أثر استجابته فيّ لدعوة ذلك « الإمام » فثرت من مكانى وأخذت سمتى إلى جهة الصوت ، وكنت إذ ذاك في أوليات الليل . وتالله إني لأقترب منه وإذا به يقول :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث ، فلم تجد له عزماً ولم تصب منه حزماً . خرج يروّح عن نفسه ، ويخفف من نكسه ، فكُشِف له عن مكانى ، وقد آن أوانى . أىْ فلانُ ؛ لقد أخرجتَ للناس كتاباً ، ففتحوا عليك من الحروب أبواباً . وخلا غابلك من الأسد ، فتذاءب عليك أهل الحسد . أىْ فلانُ ، إذا ألقى عصاه ذلك المسافر ، وغادر بحرُ العلم أرضَ الجزائر ، فقد بطل السحر والساحر ، فانكفئْ إلى كسر دارك ، وبالغْ في كتم أسرارك ، وأقبلْ غداً مع الليل ، وترقبْ طلوع سهيل ، ومتى سمعت من قبَلنا التسبيح . فقل لصاحبك الذى يليك : هلمّ إلى سطيح .

ثم انقطع صوته ، فلبثت في مكانى حتى استوحشت لوحدتى وانفرادى في جوف ذلك الليل ، فرجعت أدراجى ، وكنت منذ لقيته وأنا في ذهول من عقلى ، ودهشة من أمرى ، ولما ثاب إلىّ السكونُ جعلت أتأمل في عباراته وأتروى في مغزى سجعاته ، وقلت في نفسى : لقد كنت أعلم أن سطيحاً قد قضى نحبه ، ولقىَ ربه . فهل صدق القائلون بالرجعة ؟ أم جعل الله لكل زمن سطيحاً ؟ على أنى في غد سألقاه ، وأطلب إليه أن أراه . وأسأله عن أشياء كتمتها في صدرى ، وكادت تدخل معى قبرى .

فانطلقت حتى إذا بلغت دارى — وقد شابت ذوائب الليل — أخذت مضجعى ، وجعلت أعالج النوم ، ولكن طافت بالرأس طائفة من الأفكار ، فباعدت ما بين الجفنين ، وأزعجت ما بين الجنبين ، فأقضّ(١) على المضجع ، وحار بى الفراش ، فقمت إلى الشمعة فأشعلتها ، وإلى لزوميات أبى العلاء ففتحتها ، فوقع نظرى فيها على قوله :

أيا دارَ الخَسار ألاَ خــلاصٌ ... فأذهب للجنــوب أو الشمالِ
وظامٌ أن أحاولَ فيك ربحاً ... ولم أخرجْ إليكِ برأس مالِ

فاستشعرت نفسى الراحة ، وسرى عنى ما كنت أجده من الغم ، ونشطت إلى القراءة ، فما زلتُ أنهَل من معانٍ لم تخضها أعين القارئين ، ولم يَخلقها تداولُ الألسن ، وأتروّى من حكمٍ فجر الله ينبوعها في جوف ذلك الحكيم حتى فصحنى النهار فنمت ما شاءت العين .

[الليلة الثانية]

وانتبهت وقد باغ ظل كل شيء مثليه ، فأصلحت من شأنى ، وخرجت أطلب الموعد ونفسى إلى رؤية سطيح في شوق الأسير إلى الفكاك . وقد

(١) القض والقضيض هو الحصى الصغير ، وأقض عليه أى امتلأ عليه حصى فتعذر عليه النوم .

حضرنى قوله « فقل لصاحبك الذى يليك هلُمَّ إلى سطيح » . فجعلت أقول : ياترى أىَّ صاحب عَنَى ؟ ولكن لعل الأسباب التى ساقتنى إلى الاهتداء إليه تجمع بينى وبين ذلك الصاحب . فما زلت أواصل السير وأنا بمنزلة بين الريث والعجل ، حتى بلغت مكان الأمس فإذا فيه إنسان أعرفه قد أطرق إطراق المتأمل ، وسكن سكون الوقور ، فكرهت أن أقطع عليه تأملاته . وقلت : لم يجلس هذا الرجل العظيم تلك الجلسة إلا وهو يريد الانفراد بنفسه ، فلعله يفكر في خير لوطنه وسعادة لأبنائه ، فجلست على كثب منه ، وألقىَ في روعى أنه طَلِبةُ(١) سطيح ، ولبثت أنظر إليه ، ولبث ينظر في أمره ، حتى مرت بالنهر جارية(٢) عليها من الجوارى الحسان ما يفتن اللب ويملك القلب . وهن متبذلات يخضن في اللهو ، ويمرحن في اللعب . وبينهن رجال تستروح منهم روائح السلطة والجاه ، يتهادون رياحين المجون ، ويتعاطون كئوس الراح ، ممزوجةً برضاب(٣) أولئك الملاح ، فرأيت صاحبي وقد رفع رأسه ، ومد عينيه ، ثم تأوه آهة الرجل الحزين ، وقال يحدث نفسه بصوت تسمع فيه رنةُ الأسف : ألا يأتى أولئك الموكَّلون بالرد على أهل الصواب فينظروا ما صنع أهل النعيم في يوم شم النسيم ، ويروا كيف ابتذلت فيه الخدور ، ونفَقتْ سوق الفحش والفجور ، فلقد فعلوا تحت الحجاب ما ينكّس له الأدب رأسه . ودعوناهم إلى غير ذلك فأبوا علينا الطلب ، وأنكروا الدعوة . وقالوا : إن في تربية النساء ما لا تحمد معه المغبَّة وإن في اختلاطهن بالرجال ما يسوء معه المصير . وصاح يومئذ صائحهم : إن في ذلك عقوقاً لأوامر الدين وانحرافاً عن صراط السلف الصالح ، ودعانا شاعرهم إلى اليأس من جدالهم في طلب إصلاح حالهم بقوله :

---

(١) الذى يطلبه ويريده .

(٢) جارية : سفينة .

(٣) الرضاب : الريق الحلو .

فلو خطرتْ في مصرَ حواءُ أمُّنا ... يلوح محيّاها لنـا ونراقبُهْ
وفي يدها العذراءُ يُسفرُ وجهُها ... تصافح منا من ترى وتخاطبُهْ
وخلفهما موسى وعيسى وأحمدٌ ... وجيشٌ من الأملاك ماجتْ مواكبُهْ
وقالوا لنا رفع النقاب محلَّلٌ ... لقلنا نعم حقٌ ولكن نجانبُهْ

ولقد صدق الشاعر ، واستهتر المكابر ، وغفل الحق عن الباطل ، فصمتنا حتى ينتبه الحق من غفلته ، ولا زلنا إلى اليوم صامتين .

ولما نفثَ مابصدره ، وعاد إلى سكونه ، تراءيت له ، ثم حييته وجلست إليه أحادثه ويحدثني ، وقد أقبل بوجهه عليّ وتبسط معي على الأنس ، فذكرت له حديث سطيح وما كان من أمره ، فهزه الشوق إلى رؤيته ، وقد كنت أخبرته أن سطيحاً جعل لي آية إلى لقائه . فلبث يترقب معي طلوع سُهَيْل ، ويتسمَّع التسبيح في جوف ذلك الليل ، حتى إذا لاح النجم في السماء وعرفناه بما وصفه أبو العلاء :

وسهيلٌ كوجنة الحِبّ(١) في اللو ... ن وقلبِ المحب في الخفقـانِ
مستبدًّا كأنه الفارس المُعْلَـ(٢) ... ـم يبدو معارضَ الفُرسـانِ
ضرّجته دماً سيوفُ الأعـادي ... فبكت رحمـةً له الشِّعريانِ

ألقينا بالسمع وأمسكنا عن الكلام ، فلما علا التسبيح ، هرولنا إلى سطيح ، وإذا بالصوت الذي سمعتُه بالأمس ينادي صاحبي بقوله :

صاحب مذهب جديد ورأي سديد ، دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث في الأسباب ، فألقَوْا معه نقاب الحياء ، وتنقبوا من دونه بالبذاء . أيْ فلانُ إذا مضت على كتابك خمسون حِجّة ، وظهر لذي العينين إدلاؤك بالحُجَّة ، تكفَّلَ مستقبلُ الزمان بإقامة الدليل والبرهان ،

---

(١) الحب : المحبوب .
(٢) المعلم : الذي له علامة تميزه .

فلعل الذى سخَّر لجماعة الرقيق والخصيان ، من أنقذهم من يد الذل والهوان ، يسخِّر لتلك السجين الشرقية ، والأسيرة المصرية ، من يصدع قيد أسرها ، ويعمل على إصلاح أمرها .

أوصى نبينا بالضعيفين « الرقيق والمرأة » فخالفنا وصيته ، ولم نتبع سنته . قمنا إلى الأول فجَبَبْنا منه المذاكير ، وعمدنا إلى الثانية فزججْنا بها في سجن المقاصير ، فقيّض الله للأول من أعدائنا من دعا إلى عتقه ، وسعى سعيه في تحريره من أسره ورقّه ، والله ليأتين يوم تقوم فيه النساء الغربيات ، تطالب برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات ، وهنالك يعرفون قدر كتابك ، ويقدرون مقدار خطئهم من مقدار صوابك . فانتظروا — وإن طال الأمد — ذلك اليومَ ، ولا تبخَعْ[1] نفسَك أسفاً على أثر القوم . فهم أقل العالمين شكراناً ، وأكثر خلق الله كفراناً .

وهل أتاك حديث تلك المصرية الصالحة إذ رأت قومها يعانون أصناف الشقاء في دفن موتاهم لوعور طريق المقبرة وقيام التلال في سبيلها ، فأنفقت من مالها على تمهيد تلك السبيل احتساباً للخالق ورأفة للمخلوق ، فكان منهم أن كافئوها على ذلك العمل المبرور بأن سموا طريق المقبرة : (بقطع المره) . فانظر إلى أى حد بلغ العقوق من نفوس قومها ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً .

ثم انقطع صوته ، فأشفقت أن يكون نصيبي من رؤيته كنصيب الأمس ، فقلت له : يا ولى الله ، قد سمعنا صوتك ولم ننظر إلى شخصك . فهل لك أن تمُنَّ علينا برؤية شخصك الكريم ، كما منَنْتَ علينا بسماع قولك الحكيم . فقال : لقد قُدِّر أن تراني بعد أن كُشفَ لك عن مكاني ، فلا تقطع غدَك الزيارةَ ، واذكر ما بيننا من الإشارة . ثم أخذ في تسبيحه ، وأخذنا في طريقنا إلى المنازل ، وما زلنا نخوض في أحشاء الليل وفي صنوف الأحاديث ، حتى بلغنا منتزه الجزيرة ، فإذا نحن بشابين يمشيان على الأقدام فدانيناهما لنسمعَ

---

(١) تبخع : تقتل .

ما يدور بينهما . فإذا الأصغر يقول للأكبر : هل لك أن تذكر لى أقصى أمانيِّك في هذه الحياة الدنيا ؟ قال الأكبر : أقصى أمانىَّ أن أصبح « الرئيس الشرف » للمحكمة المختلطة ، فأجلسَ في كل عام ساعة واحدة أنقَدُ عليها ما يقوم بنفقة العام كله ، فإن أسعدالمصريين حالاً وأرخاهم بالاً من سَهَّلت له الأقدار الجلوس على ذلك الكرسى الذى لا يُسأل صاحبه عن الخطل ، ولا يُخشَى عليه من الوقوع في الزلل . قال الأصغر ؛ أفٍّ لك ! تتمنى الرزق في ظلال الكسل ، والبعد عن الكد والعمل ، أما أنا فأقصى أمانىَّ أن أكون مثل ذلك التلميذ الذى دخل منذ عامين في مدرسة المهندسين ، فإنه قد بلغ من الإكرام والتعزيز منزلة لم تبلغها أولاد القياصرة ، فإذا حق لمتعلم أن يفتخر فهو الحقيق بالفخر ؛ فإنه يتلقى دروسه على انفراد في « فصل السنة الأولى » من طائفة من المعلمين الإنكليز يُنقَدُ أقلُّهم مرتباً خمساً وثلاثين قطعة من الذهب ، ولو شاء القيصر تعليم نجله الوحيد لما فعل أكثر من ذلك . وهذا كله بفضل عناية ديوان المعارف وحرص القائمين فيه بالأمر على التعليم .

قال الأديب : فامتلأنا عجباً من ذلك الحديث ، وانطلقنا حتى إذا جاوزنا مربض(١) الليثين أخذ كل منا طريقه إلى داره . ولما بلغت منزلى أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغابرة . فقلت : ما لهذا الأرق من دواء إلا لزوميات أبي العلاء . فقمت إليها وفتحتها ، فأخذ نظرى فيها قوله :

الروحُ والجسمُ من قبل اجتماعهما ... كانا وديعين لا همًّا ولا سَقَمَا
تفرُّدُ المرء خيرٌ من تألُّفه ... بغيره وتَجرُّ الألفة النِّقَمَا

ثم قرأت قوله :

اسمع نصيحة ذى لُبٍّ وتجربةٍ ... يُفدْكَ في اليوم ما في دهره عَلِمَا
إذا أصاب الفتى خطبٌ يضُرُّ به ... فلا يظنَّ جهولٌ أنه ظَلِمَا
قد طال عمرىَ طولَ الظِّفر فاتصلت ... به الأذاةُ وكان الحظ لو قلِمَا

---

(١) يقصد جسر قصر النيل وتمثالى الأسدين الرابضين فوقه .

فقلت إى والله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شَعوبَ(١) وتطلب السلامة من عاديات الخطوب . والأعمار كالأظفار كلما طالت تخللتها الأقذار ، واستبشعت رؤيتَها الأبصارُ .

وهكذا أفنيت فحمة الظلام وأنا أنزه النفس بين تلك السطور والكلمات ، حتى صاح ديك الصباح ، فأخذني النوم ، ولم أنتبه حتى شمَّر النهار أو كاد .

[الليلة الثالثة]

فشمَّرت إلى الموعد ، ولما بلغت المكان المعهود ألفيت فيه سوريًّا من صفوة الأدباء كانت لى به صحبة قديمة ، فقلت : لأمر ما جلس الأديب تلك الجلسةَ ، واختلس من رقدة الزمان تلك الخلسة ، فقال بعد أن هش لرؤيتى وبش للقائى : جلستُ أبثّ إلى النيل شكاتى من أبنائه ، وأنت تعلم أنهم صارمونا(٢) على غير ريبة ، وقاطعونا عن غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ، ولم يراعوا حق الجوار ، فسمَّوْا إقدامنا قحةً ، ونشاطَنا جشعاً ، وكدْحنا وراء الرزق فضولاً ، ونزوحنا عن الوطن عاراً ، وضرْبَنا في الأرض شروداً ، وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد الله ، اللهم إنها محاسنُ عدُّوها عيوباً ، وحسنات سمَّوْها ذنوباً .

إذا محاسنى اللاتى عُرفتُ بهـا كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذرُ

وما ذاك إلا لأنَّا لا نحسن التنكيت ، ولا نتقن التبكيت .

قلت له وقد وقع في نفسى كلامه ، وبلغ منى مقاله : خفّضْ عنك أيها الأديب فسأرفع أمرك إلى سطيح ، قال : ومن سطيح ؟ قلت : إنك لا تلبث أن تسمع كلاماً أحلى من الأربة وأروحَ للنفس من مغبة التوبة .

ثم أخبرته الخبر ، فلبث ينتظر الآية معى حتى لاحت ، فأخذنا طريقاً إلى سطيح ، وإذا به يقول لصاحبى :

---

(١) شعوب : علم على المنية .

(٢) صارمونا بمعنى قاطعونا .

أختان أمهما اللغة العربية ، تشرف عليهما الدولة العلية : مصر دار الأمان ، وسوريةُ روضة الجنان . أيْ فلانُ : ضع خريطة الأرض بين يديك ، ثم أغمض بعد ذلك عينيك . واهو بأصبعك عليها ، وانظر نظرة الحكيم إليها ، تجدْ في موقع ذلك الإصبع ، سوريًّا يعمل ويُبدع ؛ فأنتم أهل العمل والنجدة ، وإن كان بأخلاقكم بعض العهدة(١) .

يهبط السوريُّ مصرَ لطلب القوت ، فإذا أثرى بكده وعمله ، وأراد القفول إلى وطنه ، حمل تلك الثروة إلى بلاد الدولة العلية . ويهبطها الروميُّ فيثرى ما شاء ثم يحاربها بتلك الثروة . ومن العجب أن يكثُر القال والقيل ، ويُدْعَى الأولُ بالدخيل . ولم يجر للثانى ذكر على اللسان ، وهو الحقيق بالجفاء والعدوان .

أنسي أبناء اللسان العربى أن جماعة السوريين قد بلغوا في نشر اللغة العربية منزلة لم تبلغها جماعة المبشرين في نشر الملة المسيحية ؟

ذكر ابن عقيل ذلك التاجر السائح أنه اتفق له في إحدى سياحاته ببلاد الصين أن حاول الدخول في مسجد من مساجد المسلمين فيها ، فوقف في وجهه خادم المسجد وقال له : إن بيوت الله لا تطأ أرضَها الطاهرةَ قدمُ غير المسلم ، فاخرج منها فإنى لك من الناصحين . قال ابن عقيل وقد ساءته قولة الخادم : و من أين لك الحكم بعدم إسلامى ولم ترنى قبل اليوم ؟ قال سمعتك تتكلم بالعربية ، ولا نعهد في بلادنا من يتكلم بتلك اللغة إلا جالية السوريين من المسيحيين . ولولا أن شهد بعض من كان حاضراً ممن يعرفون الرجل بصدق إسلامه لحِيلَ بينه وبين الصلاة .

ولو كان نصيب المسلم السورى من التعليم نصيبَ المسيحى من أبناء بلده ارأيت منه رجلاً إذا تعلم أفاد ، وإذا عمل أجاد ؟

---

(١) * أعنى بعض المآخذ .

هذا صاحب طبائع الاستبداد وأم القرى (١) ، بابل أفلت من يد «الصياد» (٢) فغنّى ، وشم نسيم الحرية فتمنى . وهذا صاحب المنار(٣) فاءت له الحرية بمذقة من الظل ، وجادته سماء الاستقلال بقليل من الطل ، فصاح صيحة في خدمة الدين اخترقت أحشاء الهند والصين . وذلك صاحبُ أشهر مشاهير الإسلام(٤) ، غادر أرض الشآم فألّف ، ونزل في دار الأمان فصنّف . ولكن لأمر سبق في علم الله قُدِّر على المسلم أن يعيش مع الهَمَل ، وأتيح للمسيحى أن يصبح من أهل العلم والعمل .

ثم أمسك سطيح عن الكلام ، فقال له صاحبي السورى : لقد ذكرت يا وليّ الله في عَرَض حديثك أننا وإن كنا من أهل العمل والنجدة ، إلا أن بأخلاقنا بعض العهدة . فما عسى يكون ذلك النقص الذى يراه فينا إخواننا المصريون ؟

قال سطيح : إننى لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم فعز ذلك عليهم من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رَحْباً وتفيأتم ظلالهم فأصبتم خطباً . ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلاً . وحللتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلاً . ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم وداً صحيحاً ، وإخلاصاً صريحاً . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب ، فسددتم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . وأنتم تعلمون أن المصرى يعبد خدمة الحكومة ، فهو يصرف إليها همه ، ويقف عليها علمه . فهى إن فاتته فاته الأمل ، وفتر نشاطه عن السعى والعمل . وهو لا يفتأ ينتظر الدخول فيها بقية عمره ، انتظار القوم عودة الحاكم بأمره ..

---

(١) «طبائع الاستبداد» كتاب ألفه السيد عبدالرحمن الكواكبى الحلبى . وكذلك «أم القرى»..

(٢) يريد بالصياد من اضطهدوه فى حلب من حكام الدولة العلية .

(٣) يقصد السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار .

(٤) هو جرجى زيدان مؤسس دار الهلال .

فما ضركم لو جاملتموهم ، فرغبتم عن الانكباب في دخول ذلك الباب ؟ أليس لكم عنه مندوحة ، وأمامكم وجوه الرزق كثيرة ، ومادتكم في الكسب غزيرة ؟ حُبِّبَتْ إليكم الحركة وحُبِّبَ إليهم السكون . جُبلتم على الجد وجُبلوا على المجون . فاصرفوا نفوسكم عن مزاحمتهم في أعز الأشياء عليهم ، حتى تخلق الحاجة في نفوسهم شعوراً جديداً ، فيحُسّ ناشئهم أنه إنما يتعلم لنفسه ولأمته لا لخدمة حكومته .

قال صاحبي : وهل في ذلك ما يأخذه علينا الآخذون ، وأنت تعلم أن الحياة مزدحَم الأقدام ، وملتحَم الأقوام ؟ فإن كنا قد أخطأنا في فعلنا فهل أخطأت الحكومة في قبولنا ؟ وهل أصاب المصرى في بغضنا ؟

قال : لقد أصبتم في عملكم وأصابت الحكومة في قبولكم . وما أخطأ المصرى في بغضكم . أما أنتم فطلاب للقوت وطالب القوت ما تعدى . وأما الحكومة فضالّتها عامل ينصح في عمله ، فهى أنىّ وجدته طلبته . وأما المصريون فلأنكم غلبتموهم على أمرهم بانتشاركم في أنحاء قطرهم . وهم يرون أن فيهم الأكفاء ، لحمل تلك الأعباء . ولقد كنتم منذ بضع سنين لاتجاوزون ستة الآلاف عدًّا ، فأصبحتم اليوم وقد نيّفتم على الثلاثين .

قال الراوى :

ثم سكت سطيح وسكت صاحبي ، فقلت : يا ولىّ الله ، إن عندى سؤالاً طالما بحثت في جوابه فلم أقع فيه على الصواب . قال : قل وأوجز . قلت : كلما نظرت في جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالاً إذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهباً ، وإذا خطّوا بها سطرت عجباً . ولو شئتُ أن أعدّ منهم عددت كثيراً ، هؤلاء أصحاب المقتطف ، ودائرة المعارف ، والضياء ، والهلال ، والجامعة ، وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها . ولكنى كلما نظرت في جالية السوريين من المسلمين لم أر بينهم غير البائع والسمسار ، ورائض الخيل والجزار . فما علة ذلك التفاوت العظيم والقوم يسكنون في فرد إقليم ؟

قال : علة ذلك وَهْم رسخ في نفوس المسلمين ألا يدخلوا أولادهم في مدارس المسيحيين ؛ ففاتهم بذلك تحصيل العلم ، ومات أكثر نفوسهم بحياة ذلك الوهم .

قلت لقد أمِنتْ بحمد الله نفوسُنا من دخول ذلك الوهم ؛ فأرسلنا من مصر في هذا العام إلى كلية واحدة من كليات المسيحيين ببيروت مائة وخمسين تلميذاً .

قال لقد سلمت نفوسكم من الأوهام ، وأصيبت عزائمكم بأنواع السَّقام . أليس من العار أن تكونوا أكثرَ مالاً وأعزّ نفراً . ولا تجدوا في مصر لتعليم أولادكم مستقرًّا ، وليست بيروت بأخصبَ من عروس النيل أرضاً ، ولا بأوسعَ من مُلْك مصرَ طولاً وعرضًا ؟ أيعجز في مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ، ويظفر عُشرُ معشارهم في بيروتَ بنيل تلك الأمنيَّة .

ثم أمسك عن الكلام ، وأخذ في تسبيحه ، فأخذت بيد صاحبي وانطلقنا في سبيلنا راجعين . ولما بلغنا قصر النيل تياسر صاحبي وتيامنْتُ . حتى إذا بلغتُ الدار ، وعاودتني تلك الأفكار ، قضيت الليلة على نحو ما قضيت به أختها السابقة ، ولبثت بالمنزل إلى وقت التطفيل(١) .

[الليلة الرابعة]

دعاني الموعد إلى المسير فركبت نعلي ، وأعملت قدمي . ولكن كان النهار أسرعَ مني مطيّة ، وأحثَّ سيراً . فأدركني الظلام قبل أن أدرك المقصد . فنبهتُ العزيمة ، واحتثثت(٢) الأقدام ، حتى بلغت المكان المعهود

---

(١) وقت التطفيل هو وقت الأصيل أى قبيل غروب الشمس .

(٢) حث الدابة واحتثها : حملها على السرعة .

وقد أجهدنى السير ، وكدّنى النصَب . فإذا فيه إنسان ينوح من فؤاد مقروح . فقلت ما خطبك أيها النائح ؟ فقال وهو يشرَق بعبراته ، وأنفاسه تتوقّد بزفراته ومن يا ترى أولى منى بالبكاء ، وقد أقصدنى(١) بسهامه القضاء ، كان لى أخ أسكن إليه ، وأعتمد بعد الله عليه . إذا أملقتُ(٢) واسانى ، وإذا تربت(٣) أعطانى . أنام للمرض ويسهر علىّ ، وأمشى للغرض ويجرى بين يدىّ . فما زلت مكفّى المئونة بكدحه ، غنياً عن المعونة بنصحه ، حتى انتويت(٤) به منذ عام . غاله رومىّ بمديته ، وحرمنى من حسن طلعته : بقَر بطنه ، وحضر دفنَه ، وحالت بينى وبينه حماية قومه .

قال الراوى ثم أمسك الحزن لسانه ، وأسالت الذكرى نفسه ، فما زال بين الزفرة والشهيق ، حتى أشفقت عليه أن يذوب كمداً ، فأقبلت أنفِّس عنه بسرد العظات ، وأدعوه إلى الأخذ بالتأسى حتى رقَأ دمعه(٥) ، وهمدت نار أحشائه . ولما تماسك بعضَ الشيء أنشأت أقص عليه خبر سطيح ، فارتاح إلى لقائه ، وقد حان الوقت ، فقمنا إليه وإذا به يقول :

واجد(٦) موتور ، وساهد مقهور : قد واصل النواح ، في الغدوّ والرواح ، على دم هُدِر ، وأخ قُبِر . أىْ فلانُ . مادام امتياز الأجانب : فلغير المصرى عزةُ الجانب . الرومىّ يطعن بمديته ، ويستظلّ بعلم دولته ،

---

(١) أقصده السهم : اخترقه ، ونفذ من الجانب الآخر .
(٢) الإملاق : الفقر .
(٣) ترب بمعنى افتقر أو اغتنى : ضد ، والمراد هنا الأول .
(٤) انتويت به : منيت بفقده .
(٥) رقأ : جف .
(٦) واجد : حزين .

والمصرى يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل . كأنما دية القتيل المصرى كرامةٌ للقاتل الرومى ، كما قال شاعركم :

وهل في مصرَ مفخرةٌ ... سوى الألقابِ والرُّتبِ
وذى إرث يكاثرنا ... بمال غيرِ مكتسبِ
وفي الروميِّ موعظةٌ ... لشعب جدَّ في اللعبِ
يُقتِّلنا بلا قوَدٍ ... ولا دية ولا رَهَبِ
ويمشى نحو رايته ... فتحميه من العطبِ
فقل للفاخرين أمَا ... لهذا الفخر من سببِ
أرونى بينكم رجلاً ... ركيناً(١) واضع الحسبِ
أرونى نصف مخترع ... أرونى ربع محتسبِ
أرونى نادياً حفلاً ... بأهل الفضل والأدبِ
وماذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب
وماذا في مساجدكم ... من التبيان والخطبِ
وماذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب
حصائدُ ألسنٍ جرَّت ... إلى الويلات والحرَبِ(٢)
فهبّوا من مراقدكم ... فإن الوقت من ذهبِ
فهذى أمة اليابا ... ن جازت دارة الشُّهُبِ
فهامت بالعلا شغفا ... وهمنا بابنة العنبِ

ولو شاء لابس الرداء الأحمر ، لدفع عنكم هذا الهواء الأصفر ، وأمتعكم بالحياة في أعطاف العيش الأخضر . ولكنه ترككم نهباً للامتيازات ، وغادر صدوركم ميدانًا للحزازات : حتى تسأموا حياةالإذلال ، وتسكنوا إلى رجال الاحتلال ، ولاتجدوا لكم من وقاية ، في غير طلب الحماية .

---

(١) ركيناً : قوياً يركن إليه .
(٢) الحرب : فقد المال .

وهنالك تتساوى الأقدام ، وينشر فوقكم علم السلام . وهذا من دهاء القوم وسياستهم ، وحذقهم في الأمور وكياستهم . وكما أن لكل أمة قسمتَها من الفضيلة ، فلهذه الأمة قسمتُها من الحزم ، وحصافةِ الرأى ، وبُعد النظر في العاقبة . وما اجتمعت هذه الخلال في أمة إلا وكانت خليقة أن يتناول حكمُها سكّانَ الكواكب لا هنودَ آسيا وزنوج أفريقيا .

وهُمْ أهل سياسة وختْل(١) ، وقد بلغوا من كليهما كوكبيهما . أما سياستهم فهى أشبه شيء بالكهرباء تدرك العينُ فعلها ، ولا يدرك العقلُ كنهَها يعنعنونها(٢) ويحمونها ، ويَطلونها بعقاقيرَ يعرفونها . ثم تُزفُّ إلى الناس ، فلا والله ما ينفذ فيها ذكن(٣) الفطن ، ولايحيط بها دهاء الحُوَّل(٤) . فلولا التقى لنحلناهم(٥) علم الغيب . وأما ختلهم فبينا هم ضعاف يُغضون للخطب إذا هم أشداء ركّابون للهول . فهم أشبه شيء بالخمر؛ ضعيفةٌ في الكأس ، شديدة في الرأس . ولهم نظر يشِفُّ له كل شيء كأنما قد جمعت أشعة رانتجن من أشعته ، وإرادةٌ سخِّر لها البخارُ في البحار ، كما سُخِّر الريح لسليمان ، وهم إذا دخلوا قرية جعلوا أعزّةَ أهلها أذلّة ، وكان لهم في اجتذاب ثروتها كِياسة الإسفنج في اجتذاب الماء مع ذلك الرفق والسهولة .

ولما دخلوا مصرَ دخولَ الشتاء على الشجر — ويا ليت طريقهم كان على وادى التِّيه يوم دخولها — إذا أهلُها فريقان ، فريق نظر إلى مساويهم بعين الأرمَدِ فملأ ما ضغيْه(٦) بمحاسنهم . فكان مثله وإياهمْ كالظلام

---

(١) غدر .

(٢) العنعنة : ذكر السند فى الرواية .

(٣) * الفراسة .

(٤) * الداهية الخبير بتحويل الأمور .

(٥) * نحله الشيء : عزاه إليه .

(٦) الماضغان : عرقان فى اللحيين ، والمراد لهج بالثناء عليهم .

والنار : يُخفي دخانَها ويُبدي سناها . وفريق ركب متن الغُلَواء(١) في ذم أفعالهم حسنةً كانت أو سيئة . فكان مثلُه وإياهم كالإنسان والزمان لا يشكر إذا أقبل ، ولا يصبر إذا أدبر . .

ومن تأمل في رقعة شِطْرَنْج الشرق ، ورأى اليدين اللتين تجولان فيه ، وعلم أن الأولى تديرها الأناة السكسونية ، وأن الثانية تحركها الخفة الفرنسية حكم بالفوز للتي يجب أن يحكم لها به كل من فرّق بين عاقبة البدار تخالطه الخفة ، وعاقبةِ الريْث تخطئُه الغفلة .

ثم مسك عن الكلام ، وأخذ فيما كان فيه ، فانصرفت بصاحبي ، وجعلت أتحرى مسرّته ، وأتوخّى تسليتَه ، حتى بلغنا حيث نفترق ، فعطفتُ يمنةً وعطف يَسرةً . وما أنا إلا أن خطوتُ في طريقي بعض الخطوات حتى لمحت شيخين يمشيان على مهل ، فقلت أدانيهما ، فلعلي أسمع منهما مايَذْهب بذلك الهمّ الذى حملتُه من حديث صاحبي الموتور ، فأسرعت الخطى ، حتى سرت على مسمع منهما ، فإذا أحدهما يقول للآخر : لقد أفاض الفلاسفة في تعريف السعادة ، وتفننوا في تصوير اللذة . ولكني لم أجد فيهم من نفذ فهمه إلى حقيقة ذلك التعريف . جهلوا أن السعادة كلّ السعادة في شياخة السّجادة ، وأن أسعد الناس حالاً ، وأرخاهم بالاً ، جالس فوقها ، يجرى رزقه من تحتها . فهي الجنة التى تجرى من تحتها أنهار النذور ، والكنز الذى لاتفنى ذخائره أمدَ الدهور .

وأسعدُ من هذا الحيّ ميتٌ يسخِّر له الله من يبني على قبره قبة عالية ، ثم يدعو الناس إلى التبرك بتلك العظام البالية ، فتجيء سعادته في مماته ، على قدر شقائه في حياته . وتطير بذكر كراماته الأنباء ، وتحسده على تلك النعمة الأحياء حتى يقول في ذلك قائلهم :

---

(١) الغلواء : الكبر والعنجهية .

أحياؤنا لايرزقون بدرهمٍ وبألف ألفٍ تُرزقُ الأموات
مَنْ لى بحظ النائمين بحفرةٍ قامت على أحجارها الصلواتُ
يسعى الأنام لها ويجرى حولها بحرُ النذور وتُقرأ الآياتُ
ويقالُ هذا القطبُ بابُ المصطفى ووسيلةٌ تُقضى بها الحاجاتُ

قال الثانى : لقد صدقت في تعريفك ، وأنصفت في وصفك ، ولكنى أعرف للسعادة منهجاً آخر قد سلك فيه بعض الأقوام . فأصبحوا أسعدَ الأنام . ألم تعلم — وفقك الله — أن السعادة كل السعادة في الوصاية على اليتيم وفي النظارة على وقف حبِيسٍ على العظم الرميم(١) ؟ يأكل الأول ما شاء ولا محاسبة ، ويلتهم الثانى ما أراد ولا مراقبة .

وإنى أعرف في مصر قوماً قد احترفوا الوصاية على الأيتام ؛ فهم كلما حدث يتم بالبلد رشحوا أنفسهم لتلك الوصاية ، وعملوا جهدهم للوصول إلى هذه الغاية .

قال صاحبه : صدقت يا أخى ولكن أتعرف السعيدة من النساء كما عرفتَ السعيد من الرجال ؟

قال : السعيدة من النساء من سهّلت لها الأقدار ، فأصبحت تُدعى شيخةَ الزار . فهى تملأ يديها ذهباً ، وبيتها نَشَباً(٢) ، وترفُل في الحرائر من هبات الحرائر(٣) ، ورأس مالها في تلك التجارة ، رُقيةٌ بأسماء بعض العفاريت الطيارة . تدخل على المقصورات في القصور ، والمخدورات

---

(١) الرميم : البالى .
(٢) النشب : المال .
(٣) « الحرائر » الأولى حرائر الملابس ، و « الحرائر » الثانية حرائر النساء ، وهنا جناس واضح .

في الخدور . فتفتق بطبلها طبل آذانهن ، وتهُز بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتُعمى بدخان البخور نُجلَ أعينهن . حتى إذا امتلكت منهن الوجدان ، وصار لها عليهن أى سلطان ، حكمت فيهن حكم المنوِّم البارع ، على النائم الخاضع :

ولما انتهيا من تعريف السعادة وانتهيتُ إلى دارى غادرتهما يضعان من تعاريف الأشياء ما يرسمه لهما الخيال ، وتملى عليهما الآمال . فدخلت الدار وروحى مجروحة بشكوى ذلك الموتور . فما زلت أفكر في آلام الشرقي ، وشقاء المصرى ، حتى ضاق الصدر ، وعزب الصبر ، فقمت إلى ربيع الأرواح ومسرح النفوس ، وأعنى به اللزوميات . فطويت بفتحه كتبَ الأوهام ، ومحوت بسطوره سطورَ الآلام ، وجعلت أطالعُ حتى تبينت الخيطين ، وميزت ما بين الفجرين(١) ، فحنَّ الجنب إلى المضجع ، ومالت العين إلى الهجوع فنمت ما شئت .

[الليلة الخامسة]

وانتبهت وقد اكتهل النهار ، فأصلحت من شأنى ، وخرجت وأنا على غير عجلة من أمرى ، لفسحة الوقت ، وبعد ساعة اللقاء ، فمشيت مشية المتفرج ، حتى بلغت المكان المعهود ، فإذا فيه إنسان تنطق معارف وجهه(٢) عما أنحتْ عليه ضلوعُه من سأم العيش وضجر الحياة ، فدانيته وحييَّته ، فرد التحية بأحسنَ منها . فقلتُ له مالى أراك هكذا كاسف البال ، سيِّئ الحال ، ومالى أرى في عينيك أثر البكاء ، وألمح على وجهك غبار الشقاء ، فقال وهو يخفى من شجونه ويغيِّض من شئونه :

---

(١) يريد بالخيطين الأبيض والأسود ، وبالفجرين الصادق والكاذب .

(٢) تقاطيع الوجه .

إني امروءٌ خفيف الحال ثقيل الأعباء ، رزئت بفقد أبي قبل أن أبلغ الغاية التي إليها مدى أملي وأمل الأهل والأقارب . فانقطعتُ عن الدرس في مدارس الحكومة ، لقِصَر يدي عن بلوغ نفقة التدريس التي اشتطت فيها . فأصبحت عيالاً على أهلي ، ولبثنا نعيش جميعاً من فضلة كانت لنا حتى أمسينا ذات ليلة ولم نجد ما نستصبح(١) به في الظلام ، فكرهت أن أجمع عليهم بين خفة الحال وثقل وجودي بينهم . فخرجت أقصد وجوه الرزق لعلي أصل إلى عمل أكسب منه ما أدفع به عني شِرَّةَ العوز ، وذلة السؤال ، فأخطأني التوفيق ؛ لأنني لم أكتب من أهل الشهادة . فما زلت أنظر في وجوه الأعمال وأتبصر في أيِّها أقل مئونةً وأكثرُ ربحاً ، حتى فتقَ لي الذهن أن ألقيَ بنفسي في غمار المحررين ، وأن أنشئ صحيفة أسبوعية ، فصحت عزيمتي على الدخول في زمرة الكتاب — وإن لم أكن منهم — وأقدمني على ذلك ما أراه كلَّ يوم من ترامي الناس على احتراف تلك الحرفة ، وغفلة أهلها عن الذود عنها ، حتى عبث بها الدعيُّ ، وغصَّ منها اللصيق . ولما طوّعت لي النفس ذلك أصدرت الصحيفة ، وجعلت أكتب في الفضيلة ، وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطَّره الأول ، وجرى عليه الأخير ، وأستمدّ من بطون الكتب أحكمَ الأمثال ، وأمثلَ العظات ، وأكدّ ذهني في الاستنباط ، وأنصب بدني في السعي ، وأغشى الأدباء في دورهم ، فأطلب إلى هذا مقالة في الأدب ، وإلى ذاك كلمةً في الفضيلة ، حتى فاضت أنهار الصحيفة بالنصائح ، وجرى تيارها بالمُلَح والطرائف . ولكن فاتني أن أنظر نظرة في أخلاق الأمة التي أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة في وجوه عاداتها ، فلم تنفُقْ

---

(١) أي ما نستضيء به .

لذلك سلعتى ، ولم تنتشر صحيفتى . فجعلت أبحث عن علة ذلك الكساد ، وعدم تنفيق تلك السلعة ، حتى اهتديت بعد كد القريحة إلى أن ذلك راجع إلى فساد الأخلاق ، وأن العامة قد نامت عنها وعاظها ، فيبس ما بينها وبين الفضيلة ، وأخصب ما بينها وبين الرذيلة ، وذكرت قول ذلك الشيخ الحكيم : « هلاك العامة فيما ألفت » . فوددت لو أنني كنت من رجال العلم وفرسان البيان فأشن الغارة على تلك العادات والأخلاق ، وأشك باليراع أضلاعها ، حتى أراها تأنق(١) لغير المجون ، وتأبه لغير السباب ولكن حال بينى وبين ذلك قصر فى الباع ، وجفاف في اليراع ، وخلة(٢) أشكوها وحياة أستمرها(٣) فقلت لنفسى : أيتها النفس ، لقد أعذر(٤) صاحبك وما قصر فأنت اليوم بين أمرين ، إما الفضيلة والنعش ، وإما الرذيلة والعيش .

وكانت من غير تلك النفوس المطمئنة ، التى بشرها الله بالجنة ، فشمست(٥) على الأولى ، وسكنت إلى الثانية . فما زالت تأمرنى بالسوء حتى أصبحت صحيفتى مجموعة للنقائص ومستناماً للعيوب ، وأصبح يراعى وقد استمد من لعاب الأفاعى لعابه ، واستعار من كتاب المسامير(٦) سبابه . فما زلت أطعن على زيد لاجتعل(٧) من عمرو ، وأغض من خالد لأشد من بكر

---

(١) تأنق : تفرح .

(٢) * الخلة الفقر .

(٣) * استمر الشحاء إذا وجده مراً .

(٤) * أعذر الرجل إذا جاء بالعذر .

(٥) * شمست أى نفرت .

(٦) المسامير جريدة كانت تصدر إذ ذاك معروفة باللغو والإفحاش .

(٧) أخذ الجعل أو الجعالة .

حتى زلّ الرأى وعثَر القلمُ . فأصبحتُ غريم الحكومة ، وخُوصمت إلى المحاكم فأمسيت مخصوماً(١) ، وبت وقد اصطلحت على الخطوب ، وطولبت بالتكفير عن الذنوب ، بأن أدفع عشرةً ذهباً ، وأتخذ لى غير الصحافة سبباً . ومن أين لى – أسعدك الله – أن أقوم بدفع هذا القدر من المال ؟ ولقد كنت كلما همَمْت بطبع الصحيفة أجمع من كل جيب من جيوب المشتركين قرشاً كما يجمع العامل في المطبعة من كل بيت(٢) حرفاً !

لذا ترانى ضيقَ الصدر لضيق ذات اليد ، ولقد أعطيت الله عهداً إنْ أنا خرجت من هذا المحذور كفافاً ، لأحطِّمنّ هذا اليراع العاثر ، ولأنبذن تلك الحرفة التى اضطرتنى إلى التحام(٣) الأعراض ، والميل مع الأغراض . ثم رفع يديه ضارعاً إلى الحق ، وقال : اللهم إن كنتَ تعلم أننى دخلت في هذه الحرفة كارهاً ، وسرتُ في تلك الطريق مغلوباً على أمرى ، فنفِّسْ كربتى وأدخلنى برحمتك في عبادك الصالحين.

فقلت له وقد أدركتنى رحمة عليه . أراك قد خاصمت نفسك إلى نفسك فحمِدت مغبَّة الخصومة ، ورضيت حكومتك(٤) عليك . فلاتجزع بعد ذلك ، فإنه لاشىء أمْحىَ للخطيئة من التوبة يظهر أثرها في نفس الخاطىء . وإنى أرى في نفسك ، وأتبين في وجهك أثرَ ماضيك .ولا أعلم فيما أرى شيئاً هو أبلغُ في النفوس من يقظة الوجدان وحياةِ الشعور ، فإن كنت قد صدقتنى فيما قلت ، وكان لسانك شاهداً عدلاً على قلبك ،

---

(١) * أى مغلوباً فى المخاصمة .
(٢) * البيت هنا بمعنى الخانة .
(٣) التحام الأعراض : أكلها كما يؤكل اللحم .
(٤) حكومتك أى حكمك الذى تصدره .

فأنت حقيقٌ ألاّ تعود إلى ما أوضعت(١) فيه من الجهالة ، وخليقٌ ألا يفُتَّ في ساعدك ما وصل إليه أمرك من الفشل . فلا يكبرَنّ عليك أمرُ الغرامة . فما هو ببالغ من نفسك ما بلغته أنت منها . وهلم بنا إلى « سطيح » يحدثك بمآتي حالك . ثم حدثته حديثه فلبث ينتظر معي الآية ، فلما لاحت أخذنا طريقنا إلى « سطيح » وإذا به يقول :

ظالم مظلوم ، ولائم ملوم ، تزيّا بغير زيه ، وأقام في غير حيّه ، فأصابه ما أصاب الشرقيَّ ، وقد نزع إلى تقاليد الغربيّ ، فأصبح معنياً بهذا البيت ، وأحسبه من شعر الكُمَيْت :

فيا مُوقداً ناراً لغيرك ضوءُها ويا حاطباً في غير حبلك تحطِبُ

أيْ فلانُ : إن للصحافة رجالاً وللسياسة أبطالاً ، طرّقوا(٢) لها إلى الضمائر وتناولوا بها ماوراء السرائر . فسددوا الكلام كما تسدد السهام ، وبلغوا بالمقال ما لا تبلغه النصال ، يُعجِّبونك(٣) فتعجب ، ويستغضبونك فتغضب ، فهم ملوك الأفكار ينقشون في النفوس ما نقشوا في الطروس ، ويودعون في الصدور ما أودعوا في السطور ، وهم كما قال صاحب كليلة(٤) « يُحقّون الباطل ، ويبطلون الحق ، كالمصور الذى يصور في الحائط صوراً كأنها خارجةٌ وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلةٌ وليست بداخلة » . فأين أنت من رجال إذا استلوا أقلامهم ثلّوا(٥) العروش الراسية ، وإذا أرسلوا بيانهم عطفوا القلوب القاسية . تجرى على أسنة أقلامهم أرزاق البائسين ، وتسبَحُ في قطرات مدادهم آمال الراجين ، تبتدر الأسماعُ ما يقولون ، وتنهب الأبصار ما يكتبون ، فما أنت يا ولدى في

---

(١) وقعت فيه .

(٢) جعلوا لها طريقاً .

(٣) * يطلبون منك أن تعجب .

(٤) * هو الكاتب المعروف ابن المقفع صاحب كتاب « كليلة ودمنة » .

(٥) ثل العرش : هدمه .

الرأس منهم ولا الذنب ، ولاعلمك من ذلك العلم ، ولا أدبك من ذلك الأدب ، ولكن تأنّقَ الشيطان لك في تزيين الضلال ، وألقى في أمنيتك أن تصبح من رجال هذا المجال ، فساقك إلى نحسك ونكسك ، ووجد له منك معيناً على نفسك ، فأخرجت للناس تلك الصحيفة ، ثم جعلته لك فيها خليفة فما فتئ يملي عليك ، وهو جاثم بين كتفيك ، حتى أصبحت أشدّ سواداً من صحيفة أبي لهب ، وأظلمَ ممن افترى على الله الكذب ، فأتعبت الكرام الكاتبين ، وأحرجت الكتبة الراشدين ، وشدّ منك إقبالُ العامة ، وسكوت الخامّة(١) ، وشاركك القارئُ في آثامك ، وافتتن المصرى بكلامك . والمصرى مفتون بحب الهزل والمجون ؛ فهو أين حلّ له ولىٌّ من الذل ، وأين كان له قسطه من الهوان ، قد سكنت في نفسه الهيبة ، واقترنت بأعماله الخيبة . تلك التى استعاذ منها السُّلَيْك العدّاء حين دعا ربه بذلك الدعاء « اللهم إنك تهيئُ ما شئت لمن شئت ، اللهم إنى لوكنت ضعيفاً لكنت عبداً ، ولوكنت امرأة لكنت أمة ، اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة ، أما الهيبة فلا هيبة » وكذلك أنت قد خاب أملك ، وخانك عملك ، وتعذر عليك التماس الخلاص ، وحق عليك بما قدّمت يداك القصاص .

ثم أمسك عن الكلام ، فقال صاحبى : إنى أتيت تائباً ، وفي الحق راغباً ، وما كنت لولا الحاجة بخابط في تلك الضلالة ، لولا أننى رأيت القوم يركبون تلك الطريق فركبت مركبهم ، واقتفيت أثرهم ، ولاعلم لى بخشونته ، فما زال يستتيهنى(٢) فيه الشيطان حتى ضلَلْت مع الذين ضلوا من قبل ، وما أنا في ذلك بأول الخاطئين.

قال « سطيح » : أما اقتفاؤُك آثار القوم فأنت فيه الحقيق باللوم ،

---

(١) تطلق الخامة على العامة والخاصة ، والمراد هنا الثانى .

(٢) يستتيهنى : يوقعنى فى التيه .

فما الذى غبطت من حالهم حتى اقتديت بأعمالهم ، على الكدية[1] : والسؤال وفيهما ذل الرجال ، أم على السجن وفيه يُقرَعُ السن[2] ، أم هاجت حرصَك تلك الأتاوة التى ضربوها على أهل الغباوة ، فأصبحتَ حُمَدةً[3] لمن أعطى وإن كان لئيماً ، لُمَزَةً[4] لمن منع وإن كان كريماً ، وأما اعتذارك بالحاجة والإملاق في الهبوط إلى تلك الأخلاق فعذر يدفعه الواقع ، ولا يستأذن له على المسامع ؛ فكم في هذه العشرة الملايين من صاحب حاجة أومسكين ، فمالهم لم يشاركوك في أمرك ، ولم يعتذروا للناس بعذرك ؟ فإن قلت : إنهم لايحسنون التحبير ، ولايتقنون التحرير ، فكلكم سواسية في البحر والقافية ، ليس منكم رجل رشيد ، ولا فيكم كاتب مجيد . ولكنهم علموا أقدارهم ، فلم يتعدوا أطوارهم ، وجهلت قدرك ، فتعدّيت طورك . وأما التوبة التى تزعم أنك تبتها ، وبالندامة على ما فرط منك اتبعتها ، فهى إن كانت نصوحاً فقد بلغت بها ثمناً ربيحاً ، ولا تلبث أن تقفك على سبيل الكسب من الحلال ، وتنحرف بك عن طريق الغيّ والضلال .

ثم انقطع الصوت فقلت : ألا يحدثنا ولى الله عن تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها ، فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها ، ثم أسكنوها في غير مغناها ، وأرادوا منها غير ماأرادت منهم ، فذلّت بهم وذلوا بها ، وكان ذلك علة هذه الفوضى التى تراها في الصحف ، وذلك الفساد الذى سرى في الأخلاق ، ولولاها لما هبط ذلك الواقف بجانبي إلى حاله تلك من سوء المنقلب وشر المصير .

---

(١) الكدية : الغصة .

(٢) كناية عن الندم .

(٣) * الحمدة الذى يبالغ فى حمد الناس بما ليس فيهم .

(٤) * اللمزة الذى يسعى بالنميمة فى الناس .

قال : عن الحرية سألت ، وعلى الخبير سقطت ، اعلم يا ولدى أنها معنى الوجود وملاكُ الحياة ، ففي فقدها سجنُ النفوس ،وعِقالُ العقول ، وقيدُ الأفكار ، وما امتُحنتْ أمة بمحنة هى أقتلُ لها من فقد الحرية ، وخمود الشعور ، وإنى أراكم على ما أنتم فيه من الضعف والتقاطع قد أمتعكم الله بحرية الحياة ، فأمسيتم تتقلبون في نعمة لم تعرفوا لله حق الشكر عليها .

إذا أُلفَ الشيء استهان به الفتى ولم يره بُؤسَى تُعد ولا نُعمَى
كإنفاقه من عمره ومساغِه من الريق عذباً لا يُحسّ له طعماَ

ألا تنتشرون في الأرض فتنظروا حال غيركم من الأمم الإسلامية التى سلط الله عليها ما سلط عليكم ؟ تالله إنكم لتجدونهم بحسرة النظر إلى ابتسامة من ثغر تلك العروس[1] التى جلاها لكم الاحتلال فجهلتم قدرها ، ولم تدفعوا مهرها ، فلما علم منكم ذلك أقام لكم مكانها عروساً من الشمع . يحاول إيهامكم بوجودها كى تُخدعوا بالنظر إليها كما خدعتم نيلكم من قبل بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين[2] .

وكان مثلكم في ذلك مثل السجين في مكان غاب سجانه ، وفُتح بابه ، فهو كلما همّ بالانفلات من ذلك السجن نظر في رجله قيداً من الخوف ، ولمح على الباب حارساً من الوهم . أفٍّ لكم ! لقد منّ الله عليكم بقسم من الحرية ، لو قُسِّم على المسلمين في الأرض لوسعهم ، فخرجتم به عن أفق الحرية الشرعية ، ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية . بل رسمتم للحرية تعريفاً أنكره الشرع ، وتسخّطت له الفلسفة .

عرّفها الأول فقال : إنها تكون في حفظ الدين والعرض

---

(١) يريد بالعروس الحرية .

(٢) يشير إلى العروس الإنسية التى كانت تلقى فى النيل ، وكيف استبدل بها أخرى من الطين .

والشرف والمال . وأوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف فقالت : هى أن يكون المرء حراً في عمله ورأيه على شريطة ألا يدعو ذلك إلى أذى غيره . فما أعجبكم الأول ، ولا راقكم الثانى على ما فيه من التسامح . بل زعمتم أن تعريفها الشافي هو أن يعمل المرء ما شاء أن يعمل ، ويرى من الرأى ما شاء أن يرى ، وأن سبيله في ذلك أن يطرُدَ[1] به جواد الإرادة المطلقة في ميدان الشهوات ، لايبالى داس به آداب ذلك المجتمع الإنسانى أم تخطى أعناق الفضائل :

قالت : قد علمتُ أن الذى نحن فيه لم يكن من الحرية في شيء . فما رأى ولىِّ الله في تلك الصحف التى باتت تنبح بغير فُرقان[2] على صاحب الدار والغريب ، وتقرض بلا مبالاة عرض البعيد والقريب ، أيرى في وجودها ضرراً محضاً أو منفعة خالصة ؟ أم هى كالخمر في حاليها قد جمعت بين الإثم والمنافع ، فوجودها بيننا ضار نافع .

قال سطيح : لقد نظرت قبل اليوم في هذا السؤال ، وتبينت فيه الهدى من الضلال ، فألفيت فيها شراً قائماً ، وخيراً جاثماً ، فرأيت أن أزن الاثنين ، فلما حملتهما إلى الميزان ، ونظرت فيه بعين العرفان ، شالت[3] كِفةُ النفع والخير ؛ ورجحت كِفةَ الشر والضير.

فقلت : زدنى بارك الله فيك ، وأسمعنى تأويل ذلك من فيك :

قال : اعلم أنه مامن شيء إلا فيه منفعة تُرجى ومضرة تخشى . أما وجوه النفع في بقاء تلك الصحف فهى عديدة إلا أنها لا تكاد تتجلى لغير علماء العمران الباحثين في ترقية شئون بنى الإنسان ، فمنها أن في بقاء تلك الصحف على الحال التى هى عليها عنواناً على وجود الحرية في البلاد التى تنشر فيها ،

---

(١) يطرد : يجرى .
(٢) فرقان : تفريق .
(٣) شالت : ارتفعت .

فإذا قدم عليكم قادم ، وقرأ ما يكتب في تلك الصحف كائناً ما كان ، علم أنكم تتقلبون في نعيم الحرية وإن جهلتم أنتم قدر هذه المزية .

ومنها أن فيما تكتبه مزْدجراً للناس ، فإنك لتجد من الموضوعات في تلك الصحف الصغيرة ما لا تجد بعضه في أمهات الصحف الكبيرة . هذه بما في نفسها تصرِّح ، وتلك لا تكاد به تُلمِّح ، تكتب الأولى مايقع للغني والفقير ، وتسطر ما يحدث للكبير والصغير ، وتأبى الثانية إلا أن تراعيَ المقام ، وتحجم فيما يقع من الحوادث عن الكلام ، إما لصلة تمنعها أو لرهبة تقطعها .

ومنها انتشار اللغة في الجملة بانتشار تلك الصحف ؛ فإنك لا تعدم أن تجد في صحائف الأسبوع أسلوباً رقيقاً ومعنى دقيقاً ، يعز وجودهما في صحائف اليوم ، لاشتغال أهلها بتسقط الأخبار وضيق وقتهم عن التأنق في الأساليب والتماس الشائق من التراكيب . أما أصحابنا فلهم من فسحة الوقت ما يكفي لانتقاء اللفظ واختيار الموضوع فإذا شاءوا المدح عرضوا ألفاظ اللغة ، ونبشوا بطون الكتب ، وقلبوا أحشاء القواميس ، ثم استخرجوا من الألفاظ أحلاها وأطلاها ، ومن المعاني أسماها وأغلاها ، وصاغوا من كليهما مدحة تهُزّ الممدوح هزًّا ، وتبزْ منه المال بزًّا . وهم إذا خلَوْا إلى شياطينهم ، وأرادوا القدح فقل : أعوذ برب الإنس والجان من شر ذلك اللسان .

أما وجوه المضرة في بقائها فقد أصبحت شيئاً يُحسُّ ، وأصبح مثلها كمثل الهواء فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف ، حتى همّت الأيدى بلمسه ، وتلوّن حتى وقع من النظر تحت حسه .

فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال ، فأقاموا لها سوقاً فُرشت فيها الصحف ، وركِّزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراضُ الناس . فتراهم

يجلسون للمساومة في تلك الأعراض ، ويأتى حامل الضَّب[1] لأخيه ، فيساومهم في تمزيق عرض من أراد ، ويَشْهر ذلك في المزاد .

ومنها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة لكثرة ما يقرءون ويسمعون من ألفاظ السباب . وإذا فسدت الأخلاق في أمة فقد فسد فيها كل شيء .

ومنها دخول السُّقّاط[2] من القوم في زمرة المحررين ، اللهم إلا نفراً من أنصار الفضيلة ذهب صرير أقلامهم ضياعاً في وسط تلك الضجة القائمة . وهذا قليل من كثير ، فانصرف يا ولدى الآن ؛ فقد قطعتنى عن ذكر الرحمن .

فانصرفت بصاحبي ، وقد أخذت منه العظة ، وتمشى فيه الاعتبار ، حتّى إذا بلغنا حديقة الحيوانات قلت لصاحبي هذا قصر إسماعيل الذى يقول في وصفه صاحب « عيسى بن هشام » :

« وصلنا إلى قصر الجيزة ومُتحف الآثار وملتقى السيارة من سائر الأقطار ، فرأينا روضة تجرى الأنهار من بينها ، كأنها الجنة بعينها ، وقصراً يقصر عنه الطرف كما يقصر عنه الوصف . فأخذنا نرتاد خلاله ونتفيّأ ظلاله ، وقد نظرنا الأسود مقصورات في المقاصير ، والأساود[3] مكفوفات في القوارير ، ورأينا النمور في الخدور ، والرئال في الحجال ، والذئاب في القباب ، والظباء في الخباء ، ولما رأى الباشا الأرض منضّدة مرصّعة مزرّدة حسبها أرضاً مفروشة ببسط منقوشة ، وأشكل الأمر عليه ، فهمّ بخلع نعليه ، فقلت له : طريق معبّد لا فرش منجّد ، وحصباء ومرو[4] ، لا بساط وفرو ، قال : لمن هذه الجنان ، وكيف يسكنها الحيوان ، وما علمت أن الأسد الضوارى تسكن مغانىَ الجوارى ، وأن ساكنات البيد تلعب في

(١) حامل الضب : أى حامل الضغن والحقد .
(٢) السقاط : جمع ساقط وهو اللئيم .
(٣) الأساود : الحيات .
(٤) المرو : الحجارة البيضاء .

ملاعب الغيد . فقلت : بيت إسماعيل طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ، ودرجاته منازل للأقدار . كان إذا نادى صاحبه « ياغلام » شقيت أقوام وسعدت أقوام ، ولبى نداءه البؤس والندى ، بأسرع من رجع الصدى : هنا كان يُفَصَّل الأمر ويحكم ، وينقض الحكم ويبرم . وكان من احتمى بظل هذا الجدار تحامته غوائل الأقدار . هنا كانت فرائد القلائد من أجياد الخرائد ، تختلط بمنثور أزهاره ، فترصع لُجَيْن أنهاره . هنا كانت تتكاثر الجواهر من قدود الحسان ، فتشتبه بأثمار الأغصان ، هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد[1] ، فتجاوبها الوُرق على الأفنان والأعواد[1] ، فأصبح حديقة عامة وموطئاً للخاصة والعامة ، وأصبحت أرضه تكترى ، وجنى أشجاره يباع ويشترى . ودوّى فيه صياح النسور وزئير الأسود ، وعواء الذئاب وهمهمة الفهود ، وزال ما كان فيه من عز وطَوْل ، ومجد وصَوْل ، وأيْد[2] وحول ، وصدق الكتاب ، فحق القول :

في هذه الدار في هذا المكان على ... هذا السرير رأيت الملك قد سقطا

وقصصت على الباشا قصة صاحب القصر ، ومليك ذلك العصر ، وما كان فيه من الجَدّ الصاعد ، والبخت المساعد ، وماصار اليه من نُحوسة سعده ثم سكنى لحده . وبعد أن ذاق في هذه الدار دار الفناء ، مثل عذاب تلك الدار دار البقاء .

نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا ... برغمهم فإذا النعماء بأساءُ[3]

وما انتهيت من هذا الحديث حتى انتهينا إلى حيث نفترق ، فقصدت داري وقصد داره . ولكنني استشعرت بعد فراقه ميلاً إلى السهر ، فعطفت على أحد الأندية ، وانتحيت ناحية . وجلست ، وما كاد يحتويني المكان حتى

---

(١) الأعواد الأولى جمع عود الغناء ، والثانية جمع عود بمعنى غصن .
(٢) الأيد : القوة .
(٣) البيت لأبي العلاء المعري .

طلع على النادى ثلاثة من الشبان ، شممت من أردانهم [1] أرج الحسب والنسب ، وعرفت في وجوههم نضرة النعيم . فدخلوا وهم كأنهم روضة تمشي ، وجلسوا وما شككت في أنهم من أقران الثريا . وكانوا بحيث أسمع مايقولون . ثم صاحوا بالخادم فأقبل مهرولاً . فتقدموا إليه بطلب كاسات الراح ، فانطلق يعدو ، وما لبث إلا ريثما عاد يحمل كئوساً من البلّوْر ملؤها ذهب سائل أو أصيل جامد . فصففها أمامهم ، وحفها بأطباق النُّقل ، وطاقات الزهر . فقلت في نفسى : لقد أرانى في حان . وما كنت لأعد نفسى من أهلها . فهممت بالانصراف ، ولكن أمسكنى حب الاطلاع على ماسيكون من أمرهم ، وما يدور من الحديث بينهم . فلبثت أسمع وأرى . وإذا بهم قد استرسلوا في الأنس وتبسطوا على السرور . وكانوا كلما أفرغوا كئوسهم امتلأت نفوسهم طرباً ، وتهللت وجوههم فرحاً . فما زالوا يستحثون الكئوس إلى أفواههم بحادى الغناء حتى خلعوا رداء الأنفة ، وطرحوا مطارف الاحتشام . فقام أحدهم وقد علت الخمر ذؤابته ، ورنّحت أعطافه ، وقال : أخشى أيها الصاحبان أن تميل علينا هذه الصفراء بخديعتها وختلها ، فنقع في مثل ما وقع فيه ذلك الشاعر الفارسى الذى يقول : « ما زلنا نشرب الخمر حتى بحنا بأسرارنا ، فلما رأت منا ذلك أشفقت على نفسها من أن نبوح بسرها ، فأمسكت ألسنتنا » . فأجابه أحد صاحبيه : وما عساك تخشى منها ؟ فهب أنها دبت منك إلى موضع السر فهل لك دوننا سر تطويه ، أو شيء تخفيه ؟ قال : كلا فإنى لم أكتمك مذ صحبتك شيئاً من أمرى ، اللهم إلا واحدة .

قال : وما عسى تكون ؟ قال : إنى أغبطك على أبيك ، وأتمنى أن أكون في موضعك . قال صاحبه ، وقد عراه الدهش : وما الذى غبطت منى حتى بلغ بك الأمر إلى التمنى ، ولاأراك دونى في شيء من الأشياء ، فأنت بحمد الله في بشاشة من العيش ، ورخاء من البال .

---

(١) أردان : جمع ردن وهو أصل الكم .

قال : تعلم أن أبي مدير ، وأن أباك مستشار بمحكمة الاستئناف :

قال : علمت ذلك ، وما غاب عنى أن أباك أعلى من أبي منصباً ، وأكثر مرتباً ، ينقد أبوك في كل شهر مائة ذهباً ، وينقد أبي دون ذلك .

قال : أراك تداجى في القول ، وتتغابى عن الفهم . وأنت تعلم أنه ما منّ الله على خلقه بنعمة هى أولى بالشكر وأحقّ بالذكر من نعمة الأمن ، فقال تعالى معدداً آلاءه على قريش : « فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمَنَهُمْ من خوف » . فجعل سبحانه الأمن من نعمته الكبرى ومنّته العظمى . فمَنْ بات منّا آمناً في سربه ، كان حقيقاً ألا يغفل طرفة عين عن الشكر .

وأبوك ينام ملء جفونه لايبالى أقبل المستشار ، أم انعقد مجلس النظار ، فقد تخطاه العزل ، وأخطأته عاديات النقل . أما أبي فهو على منصبه الكبير وأجره الكثير ، يلبث الليل والنهار ، في خوف من المستشار . حتى إن أمثاله من المديرين الذين لم تشرق عليهم الشمس في بلد إلا وتغرب عنهم في آخر ، لَيَتركون أثاث منازلهم ورياشهم مطوّقةً بالحبال ؛ لكثرة ما يؤمرون بسرعة التحول والانتقال ، لذلك ترانا لا نحل في بلد إلا ونحن من أمرنا على سفر ، ومن غضب المستشار على حذر ، كأنما عنانا ابن الوليد بقوله :

تراه في الأمن في درع مضاعَفَةٍ مخافةَ الدهر أن يؤْتى على عجَلِ

هذا بعض ما نحن فيه ، أفلا أغبطك بعد ذلك ، وأتمنى حالاً كحالك ؟

ثم انتثر بعد ذلك عقد المجلس فمضى كل لوجهه . وغادرت المكان على أثرهم وتيمّمت[1] دارى فلبثت فيها . حتى حان الموعد ، فخرجت

*

(١) تيممت : قصدت .

وما زلت أمشي ، حتى اشتمل عليَّ الليل . وأسمع صوتاً فأتسمَّعه : فأرى صديقاً لي يتغنى بشيء من الكلام المقفى الموزون ، فأجلس على كثب منه وهو لا يراني . وقد شجاني حسن صوته وكاد يلهيني عن الموعد لطف إيقاعه . فألبث حتى يأتي على نشيده . ثم أتراءى له ، فأحييه ، ونتبسط على الحديث ، فأسأله لمن الشعر يا فلان ؟ قال : هو بعض ما أعبث به . قلت : لقد أسمعتني منذ الليلة كلاماً لو نحلته «ابن أوس»(١) ما شك سامعه في أنه من مختاراته . فما لك تكتم الناس مثل هذا الشعر السَّويّ ؟ ولو أنك أذعته لغضضت به من كثير من أولئك الذين باتت تطن الصحف بذكرهم ؟ قال : ليس من أمرى المديح . ولا سبيل إلى إذاعته في تلك الصحف إذا أنا لم أسلك به في تلك الطريق . قلت : فإن أعياك الأمر فما لك لا تجمعه في ديوان ، ثم تخرجه للناس كما يفعل الشعراء ممن هم دونك في منازل الأدب ، ومراتب القريض ؟ قال : كان يكون ذلك حقيقاً بي لو أن من يقرأ الأثر في مصر يقرؤه لذاته لا لذات صاحبه . ونحن بحمد الله في بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصحف . حتى إذا ظهر أثره في الناس قامت تقرّظه بصنوف المديح والإطراء ، وتُنزل نفسها في الدعوة إلى كتابه منزلة أولئك المبشرين في الدعوة إلى دينهم .

فلو بُعث اليوم صاحبُ اللزوميات ، فحاول أن ينشر في تلك الصحف حرفاً مما أخذه على الأمراء وأنكره على الكبراء ، لأبت عليه أن تفسَح لذلك الحرف مكاناً بين جداول الأموات ، فضلاً عن جداول الأحياء . ألم تر إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الآستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم وقد أدى فريضة الجمعة ، أو تحركت شفتاه بالإنعام

(١) ابن أوس هو أبو تمام «حبيب بن أوس» الشاعر المعروف .

على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام ، بربك ماذا رأيت فيها من الآيات ، وما جاء به صاحبها من المعجزات ، اللهم الا ما يتباصر(١) به علينا من تلك المعاني الغريبة التي ما سكنت في مغنى عربي إلا وذهبت بروائه ؟ !

قلت حسبك ، لا تغضُضْ من شاعر الشرق ، ولا تنتقص من أدبه . فتالله إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطرُه طوعُ لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه ، إلا أنه مكثار ، وقلّ أن يسلم المكثار من العثار . فشعره كما قال الأصمعي في شعر أبي العتاهية : « كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » .

قال : إني لا أرى رأيك فيه ، وفي مصر من لو انقطع لصناعة الشعر لوسع الناسَ إحسانُــه فيه . ولكن قد ثنى الله عنان الكثيرين عنه إما لشرف يخشى عليه أن يُغضّ منه ، وإما لاشتغال بشئون للحياة لاتقوم الحياة إلا بها . وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر ، غير مشغول بغيره . فالعجب أنه لا يجيد . وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده في العام معدودة ، وقوافيها مقدرة محدودة .

قلت : لا تطل في أمره الجدال ، فهذا الحكَم منا على رمية السهم فان شئت غشيناه . قال : ما أرضاني بحكمه . ثم همّ بالنهوض فقلت : على رسلك حتى يحين الموعد ، فقد جعل لى آية للقائه . ثم حدثته حديث سطيح وما كان من أمرى معه ، فارتاح إلى لقائه . ولما حان الموعد قمنا إليه ، وإذا به ينادى صاحبي بقوله :

شاعر عربيّ ، وأديب سَرِيّ ، طيّــبَ الله أنفاسه ، وازدهى السبقُ أفراسه، نهاز أذنبة(٢) الكلام ، خلاّب أفئدة الأنام ، قريبُ القلب واللسان ،

---

(١) يتباصر : يدعى أنه أبصر بالشعر .

(٢) أذنبة : جمع ذنوب وهو الدلو ، ونهز الدلو : فتح الماء به من البئر ؛ فالمعنى أنه يملأ الدلاء من معين الكلام البليغ .

صديق الخاطر والبيان ، زوته[1] عواثر الجدود ، عن مظاهر الوجود : فزكا شعره ولم ينبه ذكره . ولو أنصفه زمانه ، لما خمل مكانه . أو لمحتْه القدرة لما حُرِم الشهرة . أيْ فلانُ : إن ما خضت فيه من أمر صاحبك مع ذلك الواقف بجانبك ، فأنتما فيه سواء . زَلـَّة في الآراء ، وانحراف عن خط الاستواء ، أغرقت أنت في القدح ، وبالغ صاحبك في المدح . فخرجت بشاعر النيل عن أفق الحسنات ، وكاد يسمو به صاحبك إلى سماء المعجزات . ولو أنصفتما لأنزلتماه في برجه ، وأركبتماه فوق سرجه .

إنه أرقُّكم طبعاً ، وأجملكم صنعاً . فهو إن ركب الغزل والنسيب ، كان كأنه يُوحَى إليه من قريب . وإذا سلك سبيل المديح ، فقد عجز عن وصفه سطيح . إلا أنه ضيِّـق المجال ، وإن كان واسع الخيال . يقع له المعنى الجليل ، في سبحات الفكر الطويل . فيمسكه خاطره ، وتحرص عليه سرائره . والمعانى كالظباء كثيرة النـِّفار ، شديدة الإحضار . فهى إن لم تجد من نضارة الألفاظ خميلة تسنح فيها ، أو لم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها ، ذهبت عنها إن لم يضق بها المذهب . وكذلك حالها في شعر صاحبكم : فهى إما نافرة ، وإما حزينة باسرة[2] . ولو أنه مُنحَ من دقة المبانى ما منح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مُدافع ، وواحدكم غير منازع . قال صاحبي وهو يكظم غيظه : إنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلا سلخه ، ثم مسخه . فإن كان الأسلوب على نحو ما وصفت ، وكانت المعانى لغيره ، فما عسى يكون فخره علينا ؟ وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز أن البلاغة لاتقع في اللفظ ولا في المعنى ، ولكنها تقع في الأسلوب : فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحد كان خليقاً ألاّ يسمى بليغاً :

---

(١) زوته : حجبته .

(٢) باسرة : عابسة .

وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر في كلامه إلى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ ، لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره وإن كان غفْلاً من ذكره . ولقد نظرت في طريقة شعره ، فألفيتها في الغارة على صحائف الأولين . فهو لم يغادر معنى في خدره إلا سباه ، ولا لفظاً في وكره إلا وأزعجه . ألا ترثى بربك إلى عظام أبي الطيب ، وهى تئن في قبرها على أبيات شادها صاحبها وخربها صاحب الشوقيات ، ولو كُشِف لك عن مجامع الأرواح في عوالمها لرأيت منها ثلاثاً قد ضمها الحزن ، وجمعها الأسى . ولوقع في سمعك صوت أبي عبادة وهو يندب شعراً دخل عليه الإفساد ، وأنين المتنبي وهو يبكى كلاماً ذهب به المسخ ، وزفير ابن الأحنف وهو يتحسر على رقة لعبت بها يد السلخ !!

ومن نظر في قول أبي الطيب (نود من الأيام مالا توده) وفي قول صاحبنا (يود من الأرواح مالا توده) علم أن الثانى أغار على الأول ، فسلبه مطلعاً أبهى من مطالع الشمس . ولم يقتصر على هذا السلخ ، حتى تخطاه إلى المسخ ، فرفع لفظة الأيام من شطر بيت المتنبي . ووضع مكانها لفظة الأرواح في شطر بيته ، ثم جعله مطلعاً من مطالع التهانى ، أنزل فيه ممدوحه منزلة عزريل من النفوس . فإنى لا أعرف أحداً (يود من الأرواح مالا توده) اللهم إلا ملك الموت . فهل بعد هذا نغفر له ضعف الأسلوب لما عساه يقع في شعره من لطف المعانى وجلها على نحو ما سمعت .

قال « سطيح » : إنك لا تفتأ تتعقب سيئاته ، وتتحامى ذكر حسناته . فما لك لا تذكر بجانب ذلك قوله في هذا البيت الحكيم :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال صاحبي : لو شئتَ أن أضع بجوار كل سيئة من سيئاته حسنة من حسناته لنفدت الحسنات وأنا في الربع الأول من ليل السيئات .

قال سطيح : إنك إن أخذت عليه أخذه للمعانى ، فقد أخطأت مواقع الرأى . فلو طلعت الشمس على جديد لكان صاحبكم خليقاً بما تقول . ولكنْ ألا ترى أن المعانى كالنقود تداولها الناس ، وليس عليهم في ذلك من باس ؟ ولكنْ بعض ما أوتيَه الرجل من الفضل أصبح داعياً إلى حسده والوقوع فيه .

قال صاحبي : لو كنت ممن يعرفون الحسد لحسدت ذلك الذى يقول :

أسمع في قلبى دبيب المنى وألمح الشبهة في خاطرى(١)

ولكنى لا أنزل بنفسى إلى حسد من يقول :

مال واحتجبْ وادّعى الغضبْ(٢)

بل أرثى له من التصاقه بمثل هذا الكلام ! !

قال سطيح : وهذا نوع من أنواع الحسد . فإنك تعمد إلى ذكر شعر ملوه الوهن والغميزة ، وتعرض عن ذكره ماهو رصين من شعر . فتالله إن في قوله :

بسيفك يعلو الحقّ والحقّ أغلبُ ويُنصرُ دينُ الله أيان تضربُ

وفي قوله :

همّت الفُلك واحتواها الماءُ وحداها بمن تُقلُّ الرجاءُ

لآيات لقوم يعقلون .

قال صاحبي : حسبي فيما ذُكرَ ، وحسبك فيما تنكره علىّ من ذلك أن أنشدك هذين البيتين . ثم ذكر بيتين لا يحضرنى منهما غير الشطر الأول :

« تلك القوافي التى شاهدت شهرتها »

---

(١) البيت للبارودى .
(٢) البيت لشوقى .

قال « سطيح » : صنع الله لك يافلان . فإنى أراك تستبطن أمره ، وتستقصى شعره . ولكن هذا لايعيب من لبث ما أدرى كم سنةً يضرب على وتر واحد في الغزل والمدح ، وهو يأتى في كل ضربة بنغمة جديدة . فلو أنك جئت بأطبع خلق الله على الشعر ، وكلّفته ألا ينظم ما عاش في غير المدح لما غنِيَ عن الظهير والمشير ، ولما جاء بأبدع مما يجىء به اليوم شاعر الشرق . فاعلم أنه حقيق بالرئاسة عليكم، وأنه في مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ، ورفعوها على ألسنة الأقلام . فإن أنكرته بعد اليوم فقد أنكرت نفسك ، وكذبت حسك . فهو عميد رجال هذه الدولة الجديدة . فلا يكن مثلُك وإياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسَهُ　　　بصاحبه والجدُّ يُتعسه الجدُّ

فما ضركم لو تساندتم جميعاً وأنتم لا تجاوزون منازل القمر عدًّا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحرّكتم من الخامدين، وهزْزتم من الجامدين؟ فإنى أراكم بين متفصّح(١) على أخيه ، ومتنبِّل على قرينه . وليس هذا صُنعَ من يريد ماتريدون . تحاولون رد هذه الدولة إلى شبابها بعد أن خلا من سنِّها . ولو لم يتداركها الله بذلك الأفغانى(٢) لقضت نحبها ، ولقيت ربها قبل أن يُمتعَها بكم ويمتِعَكم بها . أدركها الأفغانى ولم يبق فيها إلا الذماء . فنفخ فيها نفخةً حركت من نفسها ، وشدّت من عزمها ، أدركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب في سواد الشباب . فشاب قرناها قبل أن تشيبَ ناصية القرن الخامس(٣) . فسوّدت يدهُ البيضاء ما بيّضت من شعرها سود الليالى ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، وبدا صلاحها وقد كان الناس في هذا العهد يدينون باللفظ ، ويكفرون بالمعنى . فما زال بهم حتى أبصروا نور الهدى ، وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى ،

---

(١) متفصح ومتنبل : أى يزعم أنه أفصح وأنبل من أخيه .

(٢) يعنى السيد جمال الدين الأفغانى .

(٣) لعله يقصد القرن الخامس الهجرى ، وفيه أدرك الدولة الإسلامية الانحلال .

وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه ، فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك . فانفسح للمتأدبين المجال ، وجال كلٌّ جولته . وتنبه الوجدان ، وتيقظ الشعور ، وتحرك الفكر حتى أفضى إلى حركة النفس . وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية ، وأصبحتْ تبتدرُ كلامَه الأسماعُ الواعيةُ . فكان من ذلك أن انطوى أجلُ التقليد ، وأن بعث الله على يديه ميتَ اللغة ، وأحيا رفات الإنشاء . وغادر رحمة الله عليه مصر ، ولم يضع لنا كتاباً نأخذ عنه ، أو مؤلفاً نغترف منه . ولكنه ترك لنا رءوساً تؤلف وأفكاراً تصنّف : وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت . فكان يقول وهو يجود بنفسه : خرجنا منها ولم ندَعْ لنا أثراً ظاهراً بين السطور . ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثرَ على صفحات الصدور . فإن لم ترثوا عنا في بطون الكتب ، فقد ورِثتم عنا في صدور الرجال . فإذا حثوْتم التراب على رجل الأفغان فعليكم برجل مصر .

خرج من الدنيا كما خرج « سقراط » : لم يغادر كلاهما مؤلَّفاً ، ولم يدعْ مصنَّفاً فلولا « محمد عبده » ماعرف رجل الأفغان ، ولولا أفلاطون ما ذُكر رأسُ فلاسفة اليونان .

ولما سكنت أنفاس الأفغاني بعد أن تجددت بذكره الأنفاس . خلفه حكيم الشرق في دولته ، ووطّن نفسه على المضي في طريقته . فأسمع الناس في الحق وأسمعوه ، وأخافوه في ذات الإله وخافوه . ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ، ثم مضى لسبيله رحمه الله .

فتفتقت الأذهان ، وتطلعت العقول إلى البحث ، وبرزت اللغة من خبائها تجرُّ مطارف (١) آدابها . وأطلّ علم الأدب Litterature من مناره مشرفاً على النفوس ، فأرسل نوره إلى الضمائر ، ونفذت أشعته إلى السرائر . فنمى(٢) تحت نظره الشعور كما ينمى النبات جادته الشمس بالنظر ،

(١) جمع مطرف ، وهو رداء من خز منقوش نقشاً خاصاً .
(٢) نما ينمو ونمى ينمى كلاهما صحيح .

أو كسته أشعة القمر . فلطّف من كثافة النفوس ، وهذّب من مرارة الأرواح ، حتى شفّت الأولى ، وعذُبت الثانية ، وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه .

واعلم يا ولدى أن عز الأمم موقوف على عز اللغات ، وأن حياة اللغات مستمدة من حياة آدابها . فإذا ظهر علم الأدب في شعب كان ذلك آية لظهوره ، وعلامة على استعداده ، فهو الذي يهيئه لقبول أسباب الرقي والعمران ، ويُعده لمساغ أنواع العلاج ، ويروضه على احتمال المصاعب في سبيل المعالى ، ألا ترى أنه يخاطب الشعور ، ويحادث الوجدان ، فإذا خفق الأول خفقة حرّك منه ، وإذا أغفى الثانى إغفاءة شرّد عنه ، ألا ترى أنه إذا تيقظ الشعور أحس صاحبه بالحاجة إلى معرفة مايحيط به ، فهو يدفعه إلى البحث واكتشاف أسرار الكون ، ويدعوه إلى معرفة ماهية العوالم . فلو أنك جئت برجل هامد الشعور جامد الوجدان ، وحاولت أن تقنعه أن الناس في حاجة إلى علم الكيمياء مثلاً لِما وراءه من المنافع لنأى عنك بجانبه ، ورأى أنك تحاول المستحيل ، وتدعو إلى الباطل . كِلْ هذا الرجل برهة إلى علم الأدب حتى يتناول منه ماوراء الوجدان . ثم القَهُ بعد ذلك ، فتالله إنك لترى منه ما كنت تراه من نفسك : تراه مدفوعاً بقوة الشعور إلى استنباط الوسائل والاستعانة بالعلوم والفنون على دفع إغارة النقص الذى أصبح يُحسُّ به في نفسه وفي أمته .

بُعث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم في عهد كان ربيعاً للغة وآدابها نضرت فيه الألفاظ ، وأورقت المعانى ، وقد مات من أمة العرب كل شيء إلا شعورها ولسانها . مات منها كل شيء ولم ينقصها من مواد الحياة شيء ، فجاء الكتاب يخاطب منهم ذلك الشعور الحى ، ويكلم ذلك الوجدان اليقظ ، فسرت في نفوسهم الدعوة سريان الكهرباء . ووقع منهم مغزى الآية في الأفئدة ، قبل وقوع لفظها في الأسماع . فكان مثلُ أحرف الكتاب — وإن جلت عن المثل — كمثل أحرف البروق . هذه مطيتها الأسلاك تطوف بها حول المحيط طواف الفِكَر ، وتلك مطيتها الشعور يبلغ بها غاية النفوس قبل رجع البصر .

صادفت الدعوة نفوساً غذّتها اللغة وروّتها آدابها ، فعرفت قدر الكلام ، وبالغت في تكريمه حتى رفعته إلى مواطن الآلهة ، وسجدت له سجودها لهبل الأعلى ؟

صادفَتْ نفوساً تملّكها الوِجدان ، فأصبحت ترقص لشطر البيت . فهي إن شاء حملها الشاعر إلى مواطن الفناء . وإن شاء وقف بها في مواقف الفخار ، صادفت تلك النفوس ، فلم تصدِف عن آياتها . وكان الفضل في ذلك للشعور الذى ولّده فيها فهم أسرار اللغة ، واستمراءُ لذة آدابها . وكان من أمر العرب بعد الدعوة ما قد علمت . ولولا آفة أصابت لسانها ، وفترة أماتت شعورها ، لرأيت أبيض الغرب ، وأصفر الشرق ، وصيفين في بيت ذلك الأسمر .

هذا هو شأن الدولة التى أدعوكم إلى تأييدها . وهذا هو أثرها في النفوس . فلولاها ما رفعت دولة في الغربِ رأسها ، ولا خاف الناس بأسها . انظر نظرة في تاريخ دول المغرب ، وأمعن قليلاً في البحث عن أسرار مجدها ، تجدْ سر ارتقائها في تضافر كتّابها على بث روح التأثير في نفوس العامة بما يزخرفون لهم من الأحاديث . وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هنالك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون ، فتتسرّب إلى نفوسهم معانى الشاعر ، وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وإن كانوا لا يشعرون .

خذ خطيباً ذاقَ اللسان كثير تزويق الكلام ، مُلمّاً بالعربية ، عارفاً بالأعجمية ، وتنقل به بين تلك الأمم الواقف على أسرار لسانها ، ثم اندبه لأن يقف وقفة ويخطب الناس . وتفرس بعد ذلك في وجوه السامعين ، وما يرتسم عليها من أثر تحرك النفوس ، وتنبه العواطف . واحفظ ذلك في نفسك . ثم عرِّج به إلى مصر ، ودعه يقف وقفته ، ويستجمع قوته ، ويخطب ما شاء من الصبح إلى المساء . وانظر كيف يختلف القياس ، بين صنوف الناس . فلو أنه نثر على رءوسهم التنزيل وأتبعه بالتوراة والإنجيل ، ما حرّك منهم جامداً ، ولا نبّه خامداً . وأصل هذا البلاء الذى استعصى معه الدواء ،

أن لهم لسانين ، قد تناكرا حتى تنافرا . اختصوا أولهما بالكلام ، وجعلوا الثانيَ من نصيب الأقلام . فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذاك، ووقع حاملهما في سوء الخلط والارتباك . فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر ، وأشفقت من العثار يراعة الناثر ، إذا أرضى الشاعر لسان الكلام أغضب لسان الأقلام ، وإذا نزع الكاتب إلى محاسنة العامة ، جره ذلك إلى مخاشنة الخامة . دع ما تجنيه الصحف اليومية على لسان هذه الأمة العربية ، وما تدخله عليه من لفظ عامى ، وأسلوب أعجمى ، حتى نعت اللغة نفسها على لسان صاحبكم حيث قال :

أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناةِ
وأسمعُ للكتّاب في مصر ضجةً ... فأعلمُ أن الصائحين نُعاتي
أيهجرني قومى عفا الله عنهمُ ... إلى لغة لم تتّصل برُواةِ
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعابُ الأفاعى في مسيل فُراتِ
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكّلةَ الألوان مختلفاتِ

فإن لم تعاونوا على شفائها بعد وقوفكم على مكامن دائها ، فقد قضيتم عليها بالممات ، وعلى أنفسكم بالشتات . وحسبك هذا من سطيح ، فقد قطعته عن التسبيح .

قال الراوى : ثم انقطع الصوت فقمنا ثملين مما سمعنا من ذلك الولى ، وقلت لصاحبي وهو كالمأخوذ : ما عسى يكون ظنك بصاحبك بعد اليوم ؟ قال : لقد صدق سطيح فيما وعظ ، ورحم الله عبداً اتعظ . فإن دابرتُ أديباً بعدها فلستُ لأبى . وأشهد الله أننى وقفت يراعتى على التوفيق بين جماعة الأدباء ، لعلنا نتساند جميعاً على تأييد هذه الدولة التى لم تكد تدرج من مهدها حتى وقف بها الضعف على حافة لحدها . ولولم أكن خامل المنزلة ، بعيداً عن الشهرة ، لكنتُ أولَ الصائحين غداً بما وقع في نفسى من كلام هذا الولى الكريم . ولكن من كان مثلى كان خليقاً ألا تردِّدَ الصحفُ صدى صوته لعدم نباهة ذكره .

قلت لقد أخطأت منافع الرأى ؛ فإن خمولك يجعلك بمنجاة من الحسد والضغينة . فإذا كتبت شيئاً لا تصرف الغيرةُ عيونَ القارئين عن الخوض في جمال بيانه ، وحسن برهانه . وربما بلغ خمولك من الناس ما لا تبلغه نباهةُ غيرك ، فلا تغبط نبيهاً على منزلة نالها بعد جفاء المضجع ، وإنصاب البدن ؛ فإن بجانب اللذة التى يشعر بها عند التنويه باسمه آلاماً يضيق عنها مدى الصبر . وإنما تحس بذلك كلُّ نفس أخذت قسمها من الشهرة . ولو أنك وقفت على ما يكابد النبيه من حسد المعاصرين ، وكيد المكابرين ، لزهدت في عيشه ، وفررت من الشهرة إلى الخمول ، ولرأيت رأى المعرى في قوله :

تمنيتُ لو أنى بروض ومنهلٍ مع الوحش لا مصراً أحل ولا كَفْرا

فاعلم أن الشهرة سجن من سجون النفس ، يعقلها فيه حبُ الكمال الإنسانى ويكلـُها لحفارة الفضيلة ، فلا يقوى على البقاء فيه إلا القوىُّ الإرادة . وليس كلُّ من عرفتَ من النبهاء مضطلعاً باحتمال ما يعرض له من آلام ذلك السجن ، ولا قادراً على مصارعة الهوى . وكم من نبيه أعياه أمرُ نفسه ، فنزع إلى الخمول ، واختبأ في ثنايا النسيان ، ورأى أن كِفة اللذة مرجوحة في باب الشهرة ، فنزع إلى كفة اللذة في باب الخمول .

لقيتُ مرة أحد أولئك الذين كانوا من النبهاء ، ثم سكنوا إلى عيش الخاملين ، فقلت له في ذلك . فقال لى : لقد وُفِّيتُ قسطى من الأولى ، وهأنذا أستوفيه من الثانية . فقلت له : وماذا أصبت في الحالين ؟ قال : أصبت في الأولى لذة تكتنفها الآلام ، وأصبت في الثانية ألماً تحيط به الملاذّ . ولقد كنت وأنا في ربيع الشهرة كأنى المعنىّ بقول أبى النجم في أرجوزته :

كالغرض المنصوب للسهامِ أخطأ رامٍ وأصاب رامى

وكان شعارى في التمثل بهذا البيت :

فيا عفَّتى مالى ومالكِ كلما هممْتُ بأمرهمّ لى منكِ زاجرُ

فكان الخامل إذا حاول التسلق إلى مراتب الشهرة جعلنى سلماً لغرضه ، واعتمد علىّ في الوصول إلى غايته . وكأن الناشئ في حرفة الأدب لا يرى

لنفسه منفذاً للظهور في غير الغض مني والوقوع فيّ . فلا تخلو مقالة يُحبِّرها أو قصيدة يقرضها من انتقاصي والنعي عليّ فيما أذهب إليه من مذاهب الأدب . كنت أقرأ كل ما يهذى به ويدى قصيرة عن إدراكه لعجزه وخموله ، وما يُعجزُك مثلُ العاجزين . دع ما كنت أكابد من حسد المعاصر ، وأقاسى من صرف النفس عن سبيل الهوى . فكم تمنيت مجالس الشراب والتبسطَ على اللهو ، وحالت بيني وبينها الحوائل . وكم التفتت نفسى إلى ما يدعو إلى التفات النفوس من الشهَوات فحاكمتها إلى سلطان الكمال ، ومادَدْتها حبل الجدال ، حتى إذا همت بالخروج من دائرة الامتثال ، وسئمتُ صحبتَها على تلك الحال ، رأيتُ أن أرفّه عنها وأهوّن عليها ، فعَمدت إلى الخمول لأجمع فيما بقى من أيام العمر بين اللذتين ، وأسرِّحَ النفس من ذلك السجن الذى كاد يأتى عليها . وما فعلت ذلك التماساً لعموق الفضيلة ، أو نزوعاً إلى عيش المستهترين من عَبَدَة الشهوات . فليس ذلك من أمرى ، ولا هو بملذوذ عند مثلى . ولكنى فعلته طلباً للهدنة بيني وبين الزمان ، وإشفاقاً على الحاسدين من حسدٍ أكل صدورهم ، وعملاً بقول القائل :

ليس الخمولُ بعارٍ على امرئ ذى كمالِ
فليلةُ القدر تَخْفَى وتلك خيرُ الليالى

كذلك كان يحدثنى ذلك النبيه عن آلامه . فهل تغبط بعدها نبيهاً على عيشه ، وتتطلع إلى الدخول فيما يخرج عن الطوق ؟ ألم تر إلى فريق الفلاسفة كيف أنه اختار العزلة ، ونفر من الشهرة ؟ هذا (ابيبكير) اليونانى يقول : استر حياتك ما استطعت .

قال صاحبي : لقد حببتَ إلىَّ عيش الخامل على ما فيه من غضاضة تلحق بالنفس وفتورٍ يقع في الهمة . وإن كان هذا شأنَ الضعيف من الناس ، فإنى أرانى قد خُلقتَ ضعيفاً ليس في طوقي احتمالُ ماذكرتَ من المصاعب . فلو أنه سلف لى من نباهة الذكر ما سلف لى من الخمول لقارنت بين الألم في الحالين ، وحكمت بين الراجح والمرجوح من الكفتين . ولكن سلنى إن شئت عن آلام الخاملين أصورها لك تصويراً يبلغ منك مبلغ العيان .

قلت : مهما تأنقتَ في التصوير، وأبدعت في التعبير ، فإن ذلك لا يكون شيئاً بجانب كلمة يقع بها في عرضك سافل ، رجاءَ أن يجتعل على سبك من حاسد يكيد لك ، أو معاصر ينفِس عليك . وها نحن أولاء قد بلغنا مكان الافتراق فمني عليك السلام .

قال الراوى : ثم أخذ كل منا سمته إلى داره .

[الليلة السابعة]

ولما كان الغد ، وقد حان الموعد ، خرجت أطلب سطيحاً . فأخذت طريقي إليه ، ولم يسم لى فيه ما يلفت النظر . ولم يقع بصرى على حي أستصحبه . غير أنى لم أكد أبلغُ مكان اللقاء حتّى تراءى لى إنسان لم أدر أخرج من الأرض أم هبط من السماء ، فتبينته فإذا هو غلام مراهق يتيمن الناظر بمشهده كأنه صور من نفس من ينظر إليه . فدانيته وأنا أكبره لما ألقى الله عليه من الهيبة . وقد بهرنى جماله وأخذ مني حسنُ سمته . فما هو إلا أن رآنى حتّى أقبل بوجهه علىّ ، وخاطبنى بلسان عربى ، قد خلّص من لُوثة الأعرابية ، وسلم من الكنة الأعجمية . قال بعد أن حيانى ، وسكن إلىّ ودانانى : إن ولىّ الله يأذن لك أن تنطلق إلى هذه الحاضرة . وأنا ولده فكن مني بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران . فقد أذن لى أن أبرح الليلة الغار ، ومُدَّ لى في أجل الرجوع حتى يلوح النهار . فقلت له وقد تحفظت ما استطعت من أن تبتدرنى سقطة في الكلام فيعدّها علىّ ، فقد رأيت نفسى أمام عربىٍّ في صدر الإسلام قد قوّم التنزيلُ من لسانه . وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه : ألا أرى الليلةَ ولى الله وقد كانت بيني وبينه آية للقاء .

قال : إنه يتهيأ للقاء الخالق ، وقد انقطع عن كلام المخلوق . ألا تذكر ما قال لك يوم ظفرت بلقائه « لقد كشف لك عن مكانى وقد آن أوانى » قلت : ألا أتزود منه بنظرة ؟ قال في غد إن شئت أعد الكرّة ، فإنه موعود

بروئيتك في يوم خروجه من الدنيا . ثم أومأ إلىّ بالمسير فسرت كالمأخوذ ، ونفسى على غير ما أعهد ، كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التى تتصل فيها بعالم الملائك . وكنت كلما نظرت إلى ذلك الوجه المقسم وهو يتألق بجانبي ، هممت بتصديق المقنع فيما يدعيه في بدره، وما يخيله للناس من ضروب سحره . فما زلت أسايره ، وما أكلمه هيبة وإجلالاً . وقد كنت آليت ألا أبدأه بالكلام ، حتى عبرنا الجسر ، وقطعنا ما بين يديه من الطريق ، وقد هممنا أن نعطِف يَسرةً . قال صاحبي : أراك منذ صحبتك صامتَ اللسان ، وإن كنت ناطق الجنَان ، فما لك لا تُحدِّث ضيفك ؟

قلت : إنى رأيت فيما لا يغيب عنك من أدب المحاضرات ألا يكون كلام الصغير إلا جواباً على سؤال الكبير . وقد ساورتني منك هيبة ، فكرهت أن أبدأك بالكلام ، فتنزلَ أمرى على الجرأة عليك . وقد قال الأستاذ الإمام رحمه الله : « العلم من علَّمك من أنت ممن معك » . وإنى لخليق ألاّ أخرج عن أفق القدر الذى حدّده لنفسى علمى بها ، فليس لى عنه متقدَّمٌ فأغرِّرَ بها ، ولا متأخَّرٌ فأغُضّ منها .

قال : إنى لأرى أناةً تُحمد ، وفضلاً لايجحد . ولقد أكرمك ولى الله بحسن الثقة ، وأكرمنى بصحبتك أيها الأديب . فانطلق بى إلى تلك البقعة التى وقف الشيطان في ساحتها يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار في العود ، ويُشيِّعُ المنقلِب عنها بنظرة لو كانت سهماً لنفذت من صميم الجلمود . قلت : لعلك تعنى الأزبكية . قال : إى وأبيك فانطلق بى إليها . قلت : بأى الأندية تريد أن نبدأ ؟ قال : بأنفقها سوقاً ، وأكثرها فسوقاً . قلت : هذه المراقص المصرية ، والمخازى العصرية ! ثم هممنا بالعطف على إحداها فإذا بصاحبي يحُدّ النظر إلى إنسان يتعثر في مِشيته ، يريد بناؤه أن ينقضّ عند كل خطوة من خطواته لفرط هزاله ، وسوء حاله : عليه لباس قد أخذت منه الأجواء ، وتعاقب عليه الصيف والشتاء . وقد نم منه الظاهر على الباطن . فقرأت على وجهه سطور السأم وآيات الألم . فقلت :

إني أرى سيدى يُنعم النظر في هذا الإنسان . ولعله قد داخلته رقة عليه قال : إي وأبيك . إن في هذا الهيكل لنفساً سجينة ، وإن في ذلك الصدر لأسراراً دفينة . فلو رأيت أن ندانيه فنستبطنَ أمره ، ونستطلعَ سره . قلت وقد جعلت أنعم فيه النظر : كأني أعرف هذا الإنسان وإن تنكّرت معارف وجهه ، وكادت تندرس معالم جسمه ، فما زلت أنفيه وأُثبتُه وهو مشغول عني بقراءة صحيفة في يده ، وقد غمره ما هو فيه من الحزن والأسى حتى تحققته فناديتُه باسمه ، فرفع طرفه ودلّف إليّ مسلماً وقال لى مغمغماً : لا تقْذ عينك بالنظر إلى هذه الأسمال . فلولا مطاردة القوم لرأيتني على غير تلك الحال . قلت وقد جال الدمع في عيني جولة لم تخف عليه : لعلك لم تحفظ قول التهامى في الدهر وهو يتقلب بين اليسر والعسر :

لا تحمد الدهرَ في بأساءَ يكشفُها ... فلو طلبت دوام البؤس لم يدُمِ
والدهرُ كالطيف نُعماه وأبؤسهُ ... عن غير قصدٍ فلاَ تحمدْ ولا تلُمِ

ثم التفتُّ إلى صاحبي وقلت له : هذا أحد من طوحت بهم يد السياسة الإنكليزية إلى مهاوى البؤس والشقاء . فإن شئتَ أحدثك فإن له حديثاً يأكل الأحاديث . قال : ماأشوقني إلى سماعه . ثم انتحينا ناحية وجلسنا وبدأ ذلك البائس يحدثنا :

اللهم إني أعوذ بك من ثلاث : الموتِ الأحمر ، والرداءِ الأحمر ، والكتابِ الأحمر . قال صاحبي : على رِسْلك ، أما الموت الأحمر والرداء الأحمر فقد عرفناهما ، وفهمنا مغزاهما ، فما عسى أن يكون ذلك الكتاب الأحمر ؟ قال : وضعه قائد الجيشين ، ورافعُ العلمين ، الحاكم بالإرادتين ووكيل الدولتين ، فاتحُ أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان ، رافع إرم ذاتِ العماد ، وقريع فرعون ذى الأوتاد ، واصلُ أعصاب الفيافي والقِفار ، بأعصاب المدائن والأمصار ، ساكنُ القصر ونابش القبر ، ناسف القبة ، وسالب الجبة ، وهو المهدى ، رفات المهدى والجاعل قُبته

مربِطاً للجياد ، ومسجَده ملعباً لُحمُر الأجناد، الناقل تلك الكنوزِ والدفائنِ إلى تلك المصارف والخزائن. المغربيُّ الذى يستشفُّ أحشاء الحبايا بسحر السياسة وطِلّسم الفِراسة ، ويفكّ ما عليها من الأرصاد ، بدماء أبناء البلاد ، بعد تبخيرها ببخور التمويه ، تحت ملاءة الترفع والتنزيه . ذلكم اللورد الكريم مخَّضَ قانون دولته ، ثم استخلص من زبدته ذلك الكتابَ الأحمر ، وأضاف عليه — حاسبه الله — ما أضاف . وهو اليوم تجرى عليه الأحكام في الجيش وإن لم يوقع عليه أمير ، ويشعر به وزير . وللجيش قانون آخر قد اشتملت عليه صدور القوم لا تدركه أبصارنا ، ولاتحيط به أوهامنا ، نقشته يد السياسة على صفحات تلك الصدور ، فلا يمسه إلا من مسَّ ترابُ تلك الجزيرة جثمانه ، ولا يراه إلا من رفعت يد الزلفى عنه الغطاء . ذلك قانون الإرادة .

فالويل لمن وقف وِقفة المجرم أمام القانون الأحمر . والويل ثم الويل لمن وقفها أمام قانون الإرادة ، ذلك الذى نفذت إرادته في أصحاب الثورة السودانية وكاد يلحقهم — لولا دفاع الله — بإحدى الجزيرتين . وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكما من حديث أصحابها . إنهم فتيةٌ ربهم أعلم بهم ، غُلبوا على أمرهم ، وأُخذوا بجريرة غيرهم ، وإنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها .

صدرت مشيئة القائم بالأمر في السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود ، فتساءل الناس عن هذا النبأ ، ومشى بعضهم إلى بعض وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوَزارة وانحراف الأمير عن القوم ، فكثُر التأويل ، كما كثُر القيل ، فتنبأت طائفة أن سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقي من انتقاض الجيش ، وقد نمى خبر خذلانهم في أوليات الحرب الترنسفالية وظنت طائفة أخرى أن سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا أنه واقع بين الأمير والقوم ، وقال ذوو الأسنان منهم : إنها محنة من محن السياسة يَبلون بها طاعة الجيش .

وقال صاحب الأمر — وقد أنهى إليه عيونُه أمر تماوج الجيش : إنما

نفعل ذلك صوناً للذخيرة من الرطوبة ، وحرصاً عليها من الضياع . والمصرى من الجنود كخرقاءَ أصابت صوفاً ، لا يحسن القيام بحفظ ذخيرته . وقد علمتم حال الزنجي إذا ملكتْه سَوْرة الغضب فإنه حاضر الانتقام ، يغضبه أخوه لبادرة تبدُر منه ، فلا يرى أهونَ عليه من الفتك به . وما أردنا بهم إلا رشداً .

ولما كان الليلُ ، واجتمع أحداث الضباط في ناديهم ، وأخذوا يتحدثون في أمر يومهم قال قائل منهم : أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنودُ ونحن في بلد غير أمين ؟ وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة ، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العِقبان والرَّخَم ، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة ، وتغلغل الضِّغن في نفوسهم وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها ، وما أحسبهم — وقد علموا اليوم بحالنا — إلا غادين على مبادأتنا لعلهم يثأرون . وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ، ويتسقطون الخبر . وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم ، فهم يعبدون الرداء الأحمر والفارس الأصفر ، فلم يجدوا شيئاً يلقَوْن به صاحبهم هو أقرب زلفى من نقل ما سمعوه ، فاستَبَقُوا بابه ، ورفعوا إليه الأمر على غير وجهه ، فوقع كلامهم في نفسه ووعدهم خيراً .

وبات يقلب طرفه في أسطرلاب السياسة ، ويحسب تقويم كواكب الرأى في أفق الدهاء . وحدَث في ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصَفت برءوسها النخوة ، فعطفت على الذخيرة فارتدتْها قسراً ، ولما حاول كبيرهم أن يَثْنِيَ عنها عِنانهم ، ويحول بينها وبينهم وفَّوه قسطه من الأذى ، وما زالوا به حتى رنَّحوه لطماً ولكماً .

فعظم الأمر على صاحب الأمر ، وكادت تنخلع شعبةُ مهجته هلعاً ، ويقطع نياطُ قلبه جزعاً ، وتمثل له شخص « واشنجتون » وفي يده علم الاستقلال وطار به الوهم إلى « لاديسميث » فانحلت منه الأوصال . ونسى أنه بين مصرى له ولى من الذل وزَنجى على قلبه أكنَّةٌ من الجهل . وكذلك لم نجد له عزماً . فجمع إليه نفراً من قومه ، وشاورهم في الأمر ،

فأشاروا عليه بالتماسك ، وأن يتراءى للجنود في هيئة المتفقد للشئون المستخف بالكوارث ، فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرسى ، ولا يماشيه أحد من قومه . وكان يكون معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وإمضاء أمره . فما زال يستقرئ الوجوه والأبصار ، وهو كلما مر بقوم تراصفت أقدامهم ، والتصقت أيديهم بجباههم ، وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع ، حتى إذا صار بمكان الموقعة ، وقد طرح عن منكبه رداء الفزع نظر فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن في بعض وفي يد كل واحدة منهن هراوة فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبِّسْن بها وجه جواده ، فأشفق أن يصيبه عنت منهن ، فلوى رأس جواده ، وأخذ يحثّه هرباً ، وما زال يَرْكُضُه ملءَ فروجه حتى وصل إلى دار حكمه . فلما أمِنَ في سربه أصدر مشيئة ثانية بإبقاء الذخيرة في أيدى الجنود ، حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود . وبعد أن كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة وحفظها من الضياع ، أصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع .

فدعت مثنويةُ رأى الحاكم سوءَ ظن المحكوم ، حتى ذهبت الظنون مذاهبها ، وحتى قال أحد الجنود السودانية لكبيره وهو يخطبهم ، ويدعوهم إلى الامتثال : ألم تعلم أن الله — سبحانه وتعالى — لم يخلق خلقاً ضعيفاً كان أو قوياً إلا جعل له من جسمه ما يدرأ به الأذى عن نفسه ؟ وهذه السمكة في قاع البحر قد أنبت لها في ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر ، فكيف بي وأنا ليس لى ما أذود به الردى عن نفسى إلا تلك الآلة التى نزعتم روحها فأصبحت كالعصا ؟ وما أردتم بنا الخير ، ولكن على كيدنا تعملون .

وفي ذلك اليوم استدعى صاحب الأمر أصحاب ذلك النادى ، وقد طرح الأنفة السكسونية ، وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانية ، وأخذ يروض نفسه على التخلق بأخلاق بنى الإنسان ، وقال لهم ، وقد مثّلوا بين يديه ، وما منهم إلا من استروح روائح الرفق من شمائله : لقد رُفع إلينا خبركم بالأمس وما خضتم فيه من الحديث ، فكدنا نُعجِّل العقاب لولا ما سبقت به

شفاعة الحلم ، فأنتم وإن أخطأكم عاجلُ العقاب فلا يخطئكم آجله إذا عدتم لمثل فعلتكم التى فعلتم ، فاذهبوا طلقاءَ السن ، فلولا حداثتُها لمثَّلنا بكم تمثيلاً . وإياكم وذكرَ السياسة ، فلستم من المنزلة التى يتناول أهلُها الكلام فيها . فانزعوا عن شياطين الصحف ؛ فهى إنما تزين لكم من العمل ما لا تُحمد له مغبَّـة ، ولاتغتبط عاقبة ، ولا يقوم بنفوسكم أن الكهرباء الفرنسية تسرى في أعصاب أرض وطئتها قدم الإنجليزى ؛ فهى لها الجسم العازل ، والحد الفاصل ، فما غاب عنا أمركم ، ولكن سوف تعلمون من منا يحز الودَجَ أسفاً ويقلب الكف ندماً ، ويقول : يا ليتنى لم أتخذ مع الجهل سبيلاً ، ولقد كنتم في ضلـَّة فهديناكم ؛ وفي ذلة فأعززناكم . وما كان المصرى في العز بأجملَ منه في الذل ، فحسبكم ما سمعتم ، فما بعد اليوم إلا ما علمتم . فخرجوا وهم يحمدون الله على النجاة من مخالب العقاب .

وينقضى ذلك اليوم والأحرف البرقية تنبض بأسلاكها ، والرسائل بين السردار ونائبه تروح وتغدو على وجهها . وتملأ أنباء الثورة فؤاد السردار رعباً ، فيقول في نفسه : أفتنة في الجيش ولما أقم بالأمر فيه غير أيام معدودات ؟ فيا سعد كتشنر كيف تحولـَتْ لى نحساً ؟ فيخف إلى العميد فينفض إليه جملة الخبر ، ثم يستوزعه الرشاد في العمل ، فيلقنه كلمات يلقى بها الأمير :

قد أخر جُوه بكره من سجيته والنارُ قد تُنْتَضَى من ناضر السَّلَمِ

فيصدق الطير ، ويعود السردار وهو يحمل ذلك الأمر العالى . وهنا تمنعنى هيبة الآمر عن التعرض لذكر ما جاء في الأمر ؛ فالله عليم بذات الصدور .

كلّ ذلك وحركاتُ السياسة الإنكليزية تجرى فوق سكون الجيش ، وهو كأنه فوق جارية في عـَرض البحار نام ربـّانـُها ، وتولى الموجُ أمرها ، فما لبث أن توّج بها رأسَ الصخر ، ثم جعلها سراً في جوف البحر . ولما ظفر السردار بمناه راغ روغة ، فإذا هو بالسودان وقد شمرت أيام عيد الفطر ، فأمر بتجديدها وأن تحشر له جنوده من السودانيين والمصريين . ونادى

من قِبَلِه المنادى : معشر الجنود ، كل من نابته ظلامة ، أو نزلت به شكاة فهذا باب السردار لا يحجبه عنكم حاجب . فطفق الضباط يتسابقون إلى بابه ، وجعل يقابلهم على انفراد ، وهو كلما خلا بأحدهم بالغ في محاسنته ومصانعته ؛ فلا يكلمه إلا ماء البشر يجول في محياه . وكذلك انقضى اليوم والسردار ينثر عليهم بِدَرَ المواعيد ، فما خرجوا إلا ورءوسهم مملوءة بالأماني وأيديهم بالآمال .

ولقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة في كل حول يومان : يومٌ جعله للنعيم ، ويوم للبؤس ، فكان يحبو من يلقاه في يوم نعيمه بما يجعله مكفيّ المئونة طول حياته ، ويصب على من يعثر به في يوم بؤسه سوطاً من العذاب ، فأراد ملك السودان أن يجرى في طريقة ذلك الجبار بإحياء سنته ، ففعل شرواه ، غير أنه زاد عليه ، فجعل للنعيم شهراً أو للبؤس شهراً ، فمضى الأول منهما — وهو شهر النعيم — والجنود السودانية ترتع ، وتلعب ، والسردار يعطى ويهب ، وكبارُ الضباط تصبح وتمسى على الموائد ، والمصريون كأنهم المعنيون بقوله تعالى : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » .

فإذا أيام النعيم ولّت ، وإذا أيام البؤس حلت ، وإذا الموائد رُفعت ، وإذا الصلاة قُطعتْ ، وإذا العهود نُكثتْ ، وإذا الصدور نفثَتْ . علِمَ المصرى أنه غلب على أمره ، والزنجى أنه جنى على غيره ، وهنا يلوح هلالُ شهر البؤس يطالع في صحيفة الأفق أسماء أولئك الذين تقاسمَهم العزلُ والطردُ ، فلم تَشرقُ شمس يومه الأول حتى أصبحت دار الولائم ساحة لانعقاد المحاكم ، وأمر السردار أن يكون التحقيق علنياً بعد أن كان سرياً . وإليك بيانَ ما وقع في السر والعلانية .

استقدم القائم بالأمر في السودان قبل أن يروعه الأمر بالسفر إلى الترنسفال رجلاً من كبار الإنجليز وكانت الثورة إذ ذاك في عنفوان شبابها . وقد بلغ الخطب أشُده — كما يزعمون — فولاه أمر التحقيق ، وأمره أن يسلك فيه سبيلاً أخفى من السر ، وأظلمَ من الكُفْر ، وقال له : لتكن عيونك في نقل

الخبر كنسيم السحر ؛ ينقل عن يانع الزهر ، وهو لا تدركه العيون ، ولا تحيط بمسراه الظنون ، وضع أمامك إبرة الخداع ؛ فهي لا تلبث أن تقتادك إلى الحقيقة ، ولا يحزننك اجتماعُ المصريين ؛ فالمصريُّ والمصريُّ كشعبتي المقراض ما اجتمعا على عمل إلا افترقا ، وليس التفريق بين أنامل اليد — وقد التصقت — بأيسر من التفريق بينهم وقد اجتمعوا ، ولا يغمضْ عنك أن النثرةَ من النقود تنثرُ ما في رءوس الزنوج من الأفكار ، وأن التفريق عليهم يدعو إلى التفريق بينهم ، وليجتمعْ فيك ما اجتمع في الرمح من البأس واللين ، وليكنْ كلامُك كالنَّفَس في كونيه : إن شئت لطّفت به الحار ، وإن شئت فالعكس ، ولتتخرق كفُّك بالنوال ؛ فقد ضمنتْ ردَّه إلينا تلك المناجمُ الذهبية التي نحن فوقها الآن ، وادع إليك هؤلاء الزنوجَ وحداناً ، واخلُ بهم كما يخلو الشيطان بالإنسان ؛ وكن كالدينار لتجتمع القلوب على الرغبة فيك ولا تنس كلمة « أرستطاليس » « للإسكندر » حين نصح له ، فقال : واجمع بين بِدار لا خفّة فيه وريث لا غفلةَ معه ، فخرج من عنده وهو يترسم ذلك الأثر ويقول : إن نفعَنا الدهاءُ فاليومَ . ولما خلا بنفسه ، وجمع إليه كيده أرسل خاف العيون ، فألقى عليهم كلمات يعملون بها ، ثم أخذ ينظر في وجوه الحيَل ، ويستنبط أمثلَ الطرق . وما زال يستمد قريحتَه حتى فتق له الذهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية ، فجعل يدعوهم ليلاً على انفراد ، فإذا ظفر بأحدهم هشّ له ، وأدنى متّكأه ، وحادثه محادثة القرين ، وقد طرح عنه أبهة الرئاسة ، وجلس معه على بساط المساواة ، حتى إذا سكنت نفسهُ إلى حديثه ، وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته ، طارحه حديث الثورة وما كان منها ، ثم استرسل إلى ذكر أسبابها ، فقال : إن الأمير — حرسه الله — ليتسخّط عند سماع هذا النبأ . وهو اليوم واجد على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه . وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووْكم بالأباطيل ، فما فعلوا ذلك إلا نكالاً بكم حين علموا أننا سنبلغ بكم أسمى المراتب ، فنجعل منكم الأمراء والحكام في السودان ، ثم نمكّن لكم في

الأرض : وقد علمتم ما لنا من الفضل على الجنس الأسود ، فنحن الألى نزعنا عنه أطواق الرق والعبودية ، ونحن الألى ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض ، كما ساوى الربيع بين الليل والنهار . وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر ؛ فنعرف أولئك المصريين الذين نفخوا في مناخركم ، فركبتم رءوسكم ، وطاوعتم أهواءكم ، حتى إذا أدرك الجزرُ بحر الهياج تسللوا عنكم ، وخلفوكم بين السخط والعقاب . فاذكروا لنا أسماءهم ؛ لتنظروا كيف نمثِّلُ بهم . واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم إلا خيراً ، ولا يرون إلا شراً ، وما مثلنا معكما إلا كمثل لعاب المزن : تصيب منه الأصداف فيكونُ درًّا ، وتصيب منه الصِّلال[1] فيحولُ سمًّا .

يقول ذلك والقدح لا يكادُ يُفرغُه الزنجى حتى يملأه الإنجليزى ، فإذا نال منه الحديث ، وأخذته الخمر استملاه أسماء أولئك الذين يزعم أنهم جروهم إلى عدم الانقياد ، فيملى عليه ما يحضره من تلك الأسماء ، ولا ذنب لأصحابها إلا أنها مرت بخاطر هذا الزنجى حين اضطره ذلك الإنكليزى . هذا ما كان يدور عليه فلك السياسة البريطانية مع الجنود السودانية . أما الضباط منهم فقد وجدوا السبيل إلى استمالتهم بالمواعيد . فكان إذا خلا بهم ذلك القُلَّبُ طارحهم ما أسلفنا من الحديث ، وزاد عليه ، فقال : وما كان لنا في جمع الذخيرة من أرب سياسى كما وسوس لكم أولئك المصريون . ولو شئنا — لا شئنا — أن نوقع بكم لأمرنا بعمل مناورة حربية ، فأتلفنا فيها كل ما بأيديكم من الذخيرة ، وأنتم لا تشعرون . ولكنّ فلاناً هو الذى ساقه قائد العجلة إلى ركوب هذا الشطط فكان جزاؤه الخروجَ من الجيش . فقد أحفظ العميد ، وأغضب الأمة ، ونبّه نياماً لم توقظهم رعودُ السياسة منذ ثمانيةَ عشرَ حولاً . على أننا سنردهم إلى سُباتٍ لا يقظة معه، بعد أن نبدد شمل الجيش في أقطار السودان ، ولنجعلَنّ كل اثنين منهما كالمتوازيين

---

(١) الصلال : جمع صل « بكسر الصاد » : الحيات .

في مستوى واحد لا يلتقيان . ولسوف يعلمون مَنْ منا أكثرُ مالاً وأعزّ نفراً ، ثم يستمليه من تلك الأسماء ، فيملي عليه ما شاءت الخمر وشاء الأمل :

ولما اهتدى ذلك المحقق إلى ما لا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع في خريطته ما يربو على الثمانين اسماً خفّ إلى كبيره وقد حمل ظلماً . فوالذى علّم آدم الأسماء كلها ، ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبُه غيرُ مكذوب عليه . فقال له كبيره وقد نظر في الأمر نظرة الحكيم : إنى لا أرى رأيك في عقاب هؤلاء الثمانين ، وما جرّت الثورة العرابية إلى ما يقارب ذلك العدد . ولكنْ تضرب عليهم بالقداح فمن صادف النحسُ سهمَه حقّ عليه العقاب . ولا تجاوز تلك القداح أنامل الكفين عدًّا ؛ فإذا فعلنا ذلك أمنّا شر العاقبة ، وفزنا بالغاية من إرهابهم وما أحسبهم بعد ذلك إلا قد صدفت قلوبهم ، وانصرفت وجوههم عن بعضهم بعضاً . ومتى انتهى فصل العقاب عمدنا إلى النظر في وجوه مطالبهم ، فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم ، وحبَوْنا بعضهم بالنياشين . فينسيهم ما هم فيه من السرور كلّ ما لحق بإخوانهم من الشرور . ولقد غضب الإسكندر يوماً على أحد جلسائه فأمر بإبعاده وتفريق ما له على أخصّائه ، فقيل له في ذلك فقال : فرقت ماله على أحبابه لكيلا يشفعوا فيه . وكذلك كان رأى الحاكم العام في إخواننا الذين سبقت لهم منه الحسنى ، وفي الألى حق عليهم منه العقاب .

خمدت جمرة الثورة التى كان يحدِمها الوهم ، وسكن بحرُ الهياج ؛ ووقف فلَكُ العصيان ، وعادت أجرام السياسة إلى الدوران ، ورُجِمَ الثائرون بشهب من العذاب ، فمن يَشُرْ اليومَ يجدْ له شهاباً رصداً . وهدأ زئير الأسد البريطانى ، وأصبح حاكم السودان مبرود الغليل ، وحمِد العميد مغبّة الرأى ، وقام الواعد بوفاء الوعود ، فحلّى صدر الدجى بكواكب النياشين ، وصدرت نشرة المكافئات وما لغير الزنجى فيها نصيب ؛ وآن لنا أن نشرع في ذكر أسباب الفتنة السودانية فقد علمتما ما كان من أدوارها .

لقد أراد الله أن تمتد الثورة من كوخ حقير كما امتد الطوفان من التنّور . وسببها كلمة خرجت من ذلك الكوخ ، فحملتها الريح إلى آذان الجنود السودانية : كلمةٌ لأمةٍ كانت تحت جندى من الزنوج ، جاءها زوجها عشاءً ، فسألته عن أمر يومه ، فذكر لها حديث الذخيرة ، فقالت له :

وما عسى أن تكون حالكم إذا صبّحكم العدوّ أو مسّاكم ، فلقد أصبحنا سواسيةً في العجز ، وبات الرجال والنساء كأسنان القوارح :

فليت لى بك زوجاً إن أشرت لـه   هذا العدوّ أتى أصـلاه نيرانا

تلك هى الكلمة التى مارت لها جزيرة القوم ، واهتز العرش البريطانى ، وطار نوم حاكم السودان ، ومرت أمامه حوادث حرب الاستقلال مرور الصور المتحركة . تلك هى الكلمة التى اجتمع لها البرلمان ، وقرر تخفيض الجيش ، وحكم على كل مصرى فيه بسوء العيش . ولقد كنتُ أحد أولئك الذين ضُربَ عليهم بالقداح . وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية ، ولو لم أكن متخرجاً في المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلّة الفقر والسؤال ، ولكننى خرجتُ منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجهلُ شخصٌ ينادى فوقَ قامته   لا تسأل الرّبع ما في الربع من أحدِ

فلقد لبثت في الجيش مع من فيه بضع سنين ، فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سُخروا لبناء الأهرام وإقامة البرابى ، وما باتت الإنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الإنكليزية . نعم ، ولا لاقي جيشُ الإسكندر في فتوحاته ، ولاجيشُ نابليونَ في غزواته بعضَ ما لاقته هذه الفئة المصرية في الأقطار السودانية . فلو حاول الإنجليز وصل الكرة الأرضية بإحدى السيارات بمد السكك الحديدية لما وجدوا من يصابرُهم على هذا العمل غير ذلك الجيش ؛ فلقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التى تراها ، فتمكنوا فيه من النفوس ، وحكموا على الضمائر ، فلم تخطئْهم وساوسُ الصدور ، ولم تفتهم خطرات الأفكار .

دخلوا مصر وفي جيشها من هم أولو سابقة في الفضل وخصيص في العلم ومن حنّكته السن ، وغذته التجربة ، وخبطته الحروب : فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيماوى الباهر ، والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ؛ فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفاً صلداً ، فزحزحوهم عن أماكنهم ، حتى أصبح الجيش عطلاً من كل رجل ركين ، ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف ، فهالهم أمرُها ، وأسرعوا في سلبها كنز علومها ، وتجريدها من حلى فضائلها ؛ حتى أصبحت كالأخيذة السليبة ، ثم يتّموها[1] أساتذتها . وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج : يدخل فيها التلميذ ، فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل ، فهو يومَ دخل فيها مثله يوم خرج منها ؛ لا يزيد علمه في الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرعَ في أخذ الصور من تلك المدرسة في تهيئة التلامذة للدخول في الجيش .

فأصبحتْ بفضل القوم كما ترى . وقد جمدَتْ فيها روح العلوم ونضّبت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة . وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل فَدْمٍ[2] وجاهل كما تطلب البوم الضيعة الخرِبة .

يمشى الكبير من الإنجليز في معسكر الجنود السودانية ، فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام ، وكأنهم وقعوا على تمرة الغراب ، فيقف عليهم ، ويتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم ، فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية . فلا يحول الحَوْلُ حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس ، فيغدو اليوم حاكماً على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس . وربما كان فيهم عمه وأبوه .

---

(١) اليتم : فقدان الأب ، ويتمه بالتشديد : جعله يتيما ، وهو يتعدى لمفعولين .

(٢) الفدم : الغبى .

والسعدُ يدرك أقوامـاً فيرفعهُـمُ وقد يُنال إلى أن تَعبُدَ الحَجَرا

ويمرّ ذلك الكبير من الإنجليز على الجنود وهم على مصافهم قيام ، فيروقه منظر أحدهم ، ويعجبه حسن سمته . وما هي إلا لفتة منه إلى كاتم سره ، حتى يُمسيَ ذلك الجندى تلميذاً . فلا يُهلّ بالمدرسة شهراً حتى يوافي إخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد [١] يمسكه لسال خجلاً .

شكا ضابط مصرى إلى كبيره — وهو يحاوره — من سوء العيش ، وجفوة الرؤساء ، وكثرة الإتعاب ، وقلة الأعطية ، فأجابه الإنجليزى — وقد أمال سالفته تيهاً ، وثنى عطفه كبراً : إذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذة ، ألا تتم له تلك الإرادة ؟ قال المصرى : بلى ، فلا يكلفه ذلك غير النشر في إحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب . قال الإنجليزى : لهذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء ؛ فهو إن يشأ يذهبْكم ويأتِ بخلق جديد . ولو عاف المصريون ورود هذا المورد ، وانصرفَتْ وجوههم عن ذلك الباب ، وعزفت نفوسهم عن الولوج فيه لأصبحتم من الإعزاز بحيث نحن الآن ، ولكن أنّى يكون لكم ذلك وما فيكم إلا من هو معنيٌّ بقول ذلك الشاعر الجاهلى :

لحـا الله صُعلوكاً منـاه وهمـُّهُ من العيش أن يَلقى لَبوساً ومطعَماً

لذلك تكسرت في المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب ، غير مرعيّ الجناب ، يعتوره الذل والخور ، وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر : كلما مر به يوم لحق به النقص .

ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة ، فيُكبره رهبة وإجلالاً ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة — وقد عكسها — فيُصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس الإنجليزى فيه ،

---

(١) يشير إلى قول أبي العلاء :

يذيب الرعب منـه كل عضب فلولا الغمـد يمسـكه لسـالا

وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ، ويزدهيها البطر . هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم : كبار الرتب والأجسام لا كبار النفوس والأحلام ، فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم ؛ فلقد سقاهم ساقي السياسة الإنجليزية كئوساً من منقوع الرعب ؛ فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وِقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا صدر له أمره بشيء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر ، فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من « الفنوغراف » على حفظ الصوت ! !

اللهم إن العيش مع الأبيضين[1] وإن أبردا العظام، أروح للنفس من عيش ضباطنا العظام ! تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ، فيروقك ما ترى . ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء ، أفئدة هواء ! !

فليت سيوفهم كانت عصيًّا وليت نجومَهم كانت رُجومَا

قال صاحبي وهو مقبل عليه : إنى أراك موتوراً ، فلا بدع إذا بالغت في النعى على القوم فيما يذهبون إليه من ضروب سياستهم .

قال البائس : وما عسى أن تقول إذا حدثتك عن حياة الضابط الإنجليزى في الجيش المصرى ؟

يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها ، حتى يقابله الأمر بمنصب في جيشها .

فإذا سما من رتبة المأمور إلى رتبة الآمر ، وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز أيام الأسبوع عدًّا وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلتْه كيمياء القوة من معدِن يُرغبُ عنه إلى معدن يُرغبُ فيه ، وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبّت ريحُ سعوده ، ونسىَ جلود جدوده

(١) يشير إلى قول الراجز :

الأبيضان أبردا عظامى الماء والفت بلا إدام

نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها . وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم في وقت وجيز ، فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط ؛ فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ، ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الهُجر والفُحش . فإذا وعى منها كلمة ، وأراد استعمالها فيما وضعت له أسرع إلى المصرى ، فجبهه بها عن غير ذنب ، فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق . فإذا أنّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الإنجليزية . كذلك نصيبُ كل مصرى يخاطبه الإنجليزى بالعربية ، ولم يفهم مقصده لتعذر النطق عليه ، أو لعزوب الكلام عنه ، أو لإيراده على طريقة النطق الإنجليزى ، فينطقه بلسان يرتضخ إنجليزية ، وحلقٍ كأنه يقيء . ولقد مررتُ ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً ، وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر في وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت في الأمر فإذا الإنجليزى حديثُ العهد باللغة .

والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلاً من الهند ، فإن رِجله إلى لكز من يخاطبه أسرعُ من لسانه إلى سبه .

ومن لم يرَ نعيم الدنيا أو يرزقْ عيش التَّرَف ، فليقدم الجيش ، وينظرْ الإنجليزى في لين عيشه ، ورخاء باله بين مبتسم زمانه ، وعز سلطانه : إذا صاح ابتدرت صيحتَهُ الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ، وإذا لبس القلنسوة كانت لها في النفوس رهبةُ التاج ، وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج :

أأفــريدونُ في التـــاج أم الإسكندر الثـــانى
أم الرجـــعَةُ قد عـــادَتْ إلينـــا بسليمانٍ

يهب من نومه ، فيترامى الخدم على خدمته كلٌّ في شأنه الذى نُصب له . فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه . قُدِّم له الجواد ، فاستوى عليه ، ومضى متباطئاً إلى حيث الجنودُ مصطفةٌ للتدريب غيرَ مبالٍ بانتظار تلك المئات ، ولا بما يلحق بهم من السأم والملل إذا تأخر أوان تجليه عليهم إلى

وقت الضحا ، وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان . فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف ، وقامت البنادق ، وخمتت الأصوات ، وجمَدت الشخوص ، وسكنت الأنفاس ، كسكون النسيم إجلالاً للقادم ، ورهبةً للمقبل ، وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه ، أو من يده . ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد ، وخلفه أكبر ضابط مصري يكتب عنه ما يملي عليه من ملاحظاته . ثم يَركُض جواده ملءَ فروجه إلى ملعب الكرة ، بعد أن يرسمَ لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب في غيابه .

ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان ، وقد أخذ منه الجهد ، ظنه منقلباً من إحدى مواقع البوير غبَّ عراك وصدام ، وتعانُقٍ والتحام ، وروغ وإقدام ، قد رنحه الضرب ، وأثملته الحرب . يجر من ورائه رمحاً قد جمَد عليه النجيع(١) بعد ما سالت النفوس .

وتحين ساعة عودته إلى مقر حكمه ، فيغيِّر من زيه ، بعد أن يقطع صدر يومه ، على مائدة الصباح . ثم يوافي ديوان نهيه وأمره ، ومظهر علو قدره ، فيتربع في دست جلاله . فما سليمان على بساطه ، ولا كسرى في إيوانه ، بأكثر جلالاً في الصدور ، ولا أشد رهبة في النفوس . فإذا قعد للمظالم والأخذ للمظلوم من الظالم ؛ فهنا لا تسل عن الميل والإجحاف ، وسل عن العدل والإنصاف . والويل للمصرى يَستعدى عليه الزنجى الحاكمَ الإنجليزى ، فإنه مدفوع به إلى أقصى درجات العقاب ، قبل أن يعلم الأسباب ، فأى مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده ، بسواد جَدِّه(٢) ، ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ، ويحظى عند القوم بتلكم الحظوة ؟

والإنجليزى في الجيش مشغوف بحب الأسود من الألوان ، عامل بقول الشاعر الحكيم :

وما كل وجهٍ أبيضٍ بمباركٍ ولا كلُّ جفنٍ ضيقٍ بنجيبِ

---

(١) النجيع : الدم .

(٢) جده : حظه .

ولو أنه انقلب إلى بلاده في عهد الحرب البويرية ، لرأى ما يروق لعينه فيها من تلك الخرق السوداء ، خرق الحداد التي تتجمل بها الأذرع هناك . وقلما ترى العين ذراعاً غفلاً منها منذ كانت الحروب الترنسفالية . فليسأل الله دوام تلك الحروب ليدوم عليه وعلى أمته سوادها . وهذا أديم الليل فليقُدُّوا منه ما استطاعوا إذا أعوزهم النسيجُ وعزت الألوان !

ثم يعودُ إلى داره ، فينغمس في حوض من الماء ، فإذا تم ابترداه فيه تحول عنه إلى المائدة ، حتى إذا امتلأ عمد إلى مجلس الشراب ، واسترسل فيما هو فيه إلى قبيل تطفيل الشمس . ثم يفزع إلى بارودته فيحتقبها ، وينطلق للتصيد في الأودية والغابات ، وخلفه الكلب والخادم ، ولا يُعقّب حتى يلوحَ سُهَيل .

هذا كل ما يفعله الإنجليزى في يومه ، وهذه عيشته وتلك حالته . أما الجندى الأشقر ، صاحب الرداء الأحمر ، والعيش الأخضر ، والطالع الأزهر ، فعيشته أعجب ، وسيرته أطرب . يؤتى به من جيشه ، وهو من عامة الجند فيه عاطلُ الذراع ، خفيف المتاع . فإذا قدِم مصر ليلاً أبى أن تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيساً لمكتب إفرنجى ، يعنو لإمرته كل من فيه من مترجم وكاتب . ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء ، وتُفتحُ أبواب الخزائن ، فيمنحُ من النقود ما شاءت القوة ، ومن النفوذ ما شاءت السياسة ، حتى يصبح محل الثقة ، وموضع السر ، ومحور الأشغال ، وقطبَ التنقلات ، ومركز التغيرات . فلا يبرم الحاكم الإنجليزى أمراً دون استشارته . فإذا دخل فيه العُجْب ، وغلب على نفسه الزهو ، نظر إلى المصرى تلك النظرةَ التى أسلفنا نعْتَها . فتتقاطرُ على بابه فئات المتزلفين ، وأرباب الحاجات ، فمن كان له به دخل أو خاصة كان السعيدَ المحبوبَ ، ومن صلى لغير تلك القبلة كان الطريد المجفوَّ .

وأعرف واحداً منهم قد استطرد به جواد السعادة ، حتى أصبح قومنداناً لحملة الجيش ، وآخر قد سما به سُلّم العز حتى أصبح من السردار قاب قوسين أو أدنى . وهو اليوم بالسردارية واضع إحدى قدميه على العسكرية ،

والأخرى على الملكية ، تجرى على سن قلمه أرزاقهم ، وتدور على طَرَف لسانه تنقلاتهم .

قال الراوى : ثم سكت قليلاً ، واستأنف الحديث قائلاً : ولو أنى حدثتك عن ذيل الثورة وما كان فيها من أمر الخائنين منا لأضفت إلى عَجَبك من تغطرس الرؤساء استياءك من تدابر المرءوسين .

قال صاحبي : وما عسي أن يكون ذلك الذيل ؟ قال البائس : مخزيةٌ أتى بها مصرى . وماذا أقول فيه والزمان أكثر منه وفاءً بالعهود ؟ ! خرج من الثورة خروج القدح المنيح[1] ، فكبر عليه الأمر ، وقد كان ليث كتيبة الجواسيس ، على يده خربت تلك البيوت في شهر البوس ، وبيده فُتحت تلك الزجاجات في شهر النعيم . وهو أول من طرق الباب على كبيره ، وخبره بما سمع وما رأى ، وأول من دخل في نسبة القوم . فكانوا إذا ذكروه وأعماله قالوا : ما رأينا غراباً أشبه بغراب من هذا بنا ! قال في نفسه : لقد زجَرَتْ يدُ القدر طيرى بالنحوس ، ونسى القوم ما قدّمت يداى ! وما كان أشبهنى بالعافية تذكر عند المرض ، حتى إذا زالت عوارض السقم نسى صاحبها ذلك الذكر . فوالذى جعل إبليس من المنظَرين لآتينّ عملاً تأنف الحفظة أن تكتبه علىّ ، ولأعقدن عقدة تُحل لها العزائم . فما حتمد الخصيان على الفحول ، بأبرى للصدور من حقدى على هؤلاء الذين فازوا بنعمة المكافآت دونى .

ودخل بيت كبير الجيش ، وهو ظالم لنفسه قال : أحطتُ بمالم تُحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، منذ حوْل دعانى سلفك ، وقد نمى إليه أن جماعة من المصريين ممن ينظرون لكم على غير الجميل ، قد قاموا بتأسيس جمعية وطنية تحت كبير من ولد إسماعيل باتت تظلله القلوب ، وتحرسه الخواطر : قاموا بتأسيسها منذ خمسة أعوام ، وأخذوا في الدعوة إليها ، حتى اتسعت هالتها ، وهالنى أمرها ، ثم أمرنى بالغوص على أسرارها ،

---

(١) القدح المنيح فى الميسر قدح لا سهم له .

والوقوف على أمرها ، فقمت بتنفيذ مشيئته . وما زلت أخالط الضباط ، وأنا في لباس من الرياء والتظاهر ، حتى ظفرت بصديق قد أنس إلى صحبتي ، وسكن إلى مودتي . فأكثرت من مسايرته ومجاملته ، وسرت أطارحه حديث الوطن ، وأبتهل إلى الله ، ودموع الخداع تتناثر على خدي . وما زلت به حتى سلَلْت نفسه ، واختلست لُبّه ، فشفّتْ لي سرائره ، وأحطت علماً بما في قرارة نفسه ، وتناولت ما وراء ضميره ، فعلمت أنه فرد من أفراد تلك الجمعية ، فاسترشدته فأرشدني . وما كاد يستقر في نفسي هذا العلم حتى غدوت لا ألوي على شيء ، فطرقت بابها ، وساعدني الجَدُّ فغشّى الله أبصارهم ، وطمس بصائرهم . فأفسحوا لي بينهم مكاناً ، وأقسمت لهم يميناً . وما زلت بهم حتى استفرغت أسرارهم ، واستبطنت أمورهم ، ووقفت على ورقة التراسل بينهم . وما هي إلا أن سقطت في يدي ، حتى تمنيت لو مسخني الله طائراً ، فطرت لساعتي ، ووقعت في حجر ذلك الكبير . ولما أقبل الليل في لون صحيفتي ، رغت روغة فإذا أنا أمامه . فرفعتُ إليه كل ما وصلَتْ يدي إليه من أخبارهم ، فسر حتى عجز عن مداراة سروره .

وحال الحول ولم أعلم شيئاً عن أحوالها ، وكأنه طوى كشحاً عنها ، وتثاقلت أنا الآخر عن تعهدها ، حتى وقعت حادثة الذخيرة ، فقلت في نفسي ما لهذه الحادثة بد من سبب . فأطلت البحث ، فما زال يقتادني ، حتى وقف بي على باب تلك الجمعية . وأكبر ظني اليوم أنها أم لتلك الحوادث ، فصحت عزيمتي على لقائك وإطلاعك على باطن الأمر ، حتى تحتاط له ، ولا زلتَ صاحب النظر الأعلى في الأمور .

وخرج من عنده وما أدري كيف لم تغُرْ به الأرض ، ولم ترجُمْه السماء . ولولا أنني أعلم ما أعدّ الله له في لوّاحة[1] البشر من آجل العقاب لعجبت من حلم الله . فسبحان من وسع حلمه كل شيء . فلقد أجَّل عقاب

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في وصف جهنم « لواحة للبشر » أي مغيرة لألوان الجلود .

هذا الأثيم إلى يوم لا تنفعه فيه شفاعة العميد ، ولا تغنى عنه أساطيل القوم شيئاً ، يوم يسبَحُ معهم في بحر من العرق ، كما يسبح اليوم في بحر من الغرور .

قال الراوى : ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبى : حسبك ما ذكرت من أمر القوم ، فانى أراك تَهم بذكر ما ينبغى أن يدرج في أثناء النسيان . فإن كنت لا تزال تُعاظم الناس بمصيبتك ، فهؤلاء أهل دنشواى قد نسخ ما نزل بهم من العذاب كل ما سلف من أعمال القوم منذ حرقوا « جان دارك » إلى يوم أصلَوْا أهل الأزهر النار ، وألقوا بمقاليد الأمر إلى هذا المستشار . فما تلك بيمينك أيها الموتور ؟ قال : « صحيفة المؤيد » ولقد أبرد غليلى ما كتب صاحبها اليوم من تلك الحادثة النكيرة .

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراءُ أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد ؛ لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة ، وهى لا توجد مع الضعف في شىء غير متعدد ولو بالاعتبار .

أما نحن فنقول : إنْ العنف قد يكون مظهراً كبيراً من مظاهر الضعف ، وخصوصاً في سياسة الأمم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فإنها لا تكون في الشخص إلا حيثما يذهب شيء من فضائله ومزاياه ، فيحل الكبر بهذا الفرع ليكمل صاحبُه علاءً في زعمه .

وخذ الشراسة مثلاً في بعض الناس ، فإنها توجد حيثما يعوز المرء شيءٌ من مزايا حسن النظر ، وضبط النفس ، وسعة الصدر ، فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد أضيق الناس صدوراً من يسُب غيره ، وأقلَّهم مقدرةً على الإقناع الخطابي من يصيح في وجه محدثه ؛ ليحمله على قبول رأيه .

كذلك العنف وقوة البطش في حكم الأمم يحل محل حسن السياسة وقدْر المسئولية قدرها في كل عمل . وقلما ترى سياسياً محنكاً قادراً على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدّماتها إلا كان عادلاً حليماً بعيداً عن فعال الظالمين .

لانذهب بالقارئ بعيداً بضرب الأمثال عن الموضوع الذى نحن بصدده فهذه مصر يدير دفّة سياستها وإدا رتها المحتلون من الإنكليز منذ ربع قرن ، وهم يقلبونها على كل وجه من وجوه النظام ، محواً وإثباتاً ، وتبديلاً وتعديلاً ، ورفعاً ووضعاً ، فلم تكن أمة ألين عريكة وأطوع في يد العامل

منها . تشكر حسن الصنيع ، وتصبر على الإساءة . ولو كان « اللورد كرومر » في غير مصر لمجّ السياسة ، ومل ّ أن يقيم في قطرٍ واحد مثل هذا الزمن الطويل ، حتى قيل : إنه فضّل مراراً أن يكون قنصلاً جنرالاً في مصر عن أن يكون سفيراً لدولته في أعظم العواصم الأوربية . بل فضّل هذه الوظيفة على أن يكون عضواً في وزارة الأحرار . ولو شاء ذلك لحُفظ له مركزه في الوزارة الحاضرة .

وما ذلك إلا لأنه في مصر يعمل كالملك المطلق الإرادة لا يشوّش عليه مشوِّش من المراقبات الشديدة ، ولا ينغّص عليه منغِّص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر ، هادئ البال ، قرير العين بهذا الساطان القوى الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية . وقد لقى من الأمة مهاداً طريّاً ، ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ، ومن الوزارة استسلاماً ليست العبودية أوفي منها في العبد لسيده .

ولكن اللورد في حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج إلى الأعوان الذين يساعدونه . ومن عادة الملوك أن يختاروا في كل دوْر من أدوار حياتهم الأعوان الذين يوافقون الظروف . ففى دورٍ كان مع اللورد كرومر أعوان مثل « الجنرال غرنفيل » في الحربية و « الكولونيل منكريف » في الأشغال و « السير سكوت » في الحقانية و « السير إدجار فنسنت » أو « بالمر » و « ملنر » أو « غورست » في المالية ثم الداخلية . وفي دور كان معه المستر « ماتشل » في الداخلية والمستر « كوربيت » في المالية والمستر « دنلوب » في المعارف وهلم جرا .

ولا خلاف في أن هؤلاء يختلفون كفاءة ، كما أنهم يختلفون استقلالاً في الرأى مع اللورد . بل مما لا خلاف فيه أن أعوان جنابه في هذا العهد كانوا في وظائف مصريةٍ صغيرة أو صغيرة جداً . ثم ترقّوا بحسن عناية اللورد ، وعظيم رعايته ، فله عليهم يد الفضل ، أكثر مما لهم عليه من يد المعونة الكبرى !

والزمن الذى كان « السير سكوت » لا يقبل كل رأى يشار عليه به

من الوكالة الإنجليزية في التشريع والقضاء ، ويقول : إن النظامات القضائية لا تحكي بناء القناطر وتشييد الجسور قد ذهب بذهابه . وجاء الزمن الذى يضع فيه أساس الإدارة الداخلية في البلاد كلها ، ويقول بضرورة الانقلاب العام ، وإحلال العنف فيها محل العدل مَنْ كان قبل بضع سنوات ضابطاً عسكرياً صغيراً يؤدى وظيفة عسكرية محضة ! !

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ، ولكن نقول بالإجمال : إن الذين يتولون إدارة البلاد الآن أعواناً للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة ، وخبرة كبيرة بأحوال البلاد ، حتى يكونوا بعد ذلك منظمين مصلحين ! ولا يمكن أن يكون اللورد عاملاً بذاته في كل مصلحة ، لأن المراقبة العامة تَشْغله عن المراقبة الخاصة . فإذا حدثتْ حادثة غيرُ منتظرة في البلاد، حالت بينهم قلةُ الخبرة وبين تكييفها بحقيقتها ؛ فأعطَوْها غير حكمها وبنَوْا على حدوثها تغييراً وتبديلاً في النظامات ؛قد يَبْعدان بها عن محجة الصواب بعداً شاسعاً . وكلما سأل جناب اللورد واحداً من أولئك الأعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر ما يعلم بالرأى الفطير ، فأمره بناء عليه بما يأمر به الطبيبُ ممرضًا يخطئ في أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول !

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الأعوان على غير خبرة كافية منهم ، وبالأوامر المطاعة من جناب « اللورد كرومر » .

وحيث اختلفت حواسّ السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الأشياء .

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن في إدارة البلاد . وعيوب هذه الإدارة تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . فيوجد في عناصر السياسة المصرية الآن فراغٌ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سدُّه بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تُحكم به البلاد . ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وُجد ناقصاً في ذاته نقصاً يقولون إن طبيعة البلاد اقتضته . وللورد كرومر في هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة في عدة أبواب

من تقريره الأخير ، حكم فيها حكماً قاسياً على الأمة ، واستعدادها للنظامات الدستورية الكاملة .

وأضفْ إلى ذلك الاختباط وسائط شتى تُحيط بالوكالة الإنجليزية ، وكبار موظفي الإنكليز ، جعلت همها تأويل كلّ حادث في مصر بما يوسّعُ مسافة الخلف بينهم وبين المصريين ، وتحريف كل كلمة تُكتبُ في الصحف المصرية بما يسوء سمعهُ حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير .

فلو وُجد محلّلون كيماويون سياسيون خبيرون يحلّلون عناصر الحوادث التي تحصل في مصر ، ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلاً حقيقياً . يَردّون به كلّ جوهر إلى أصله ، وكلّ معلول إلى علته ، وكلّ نتيجة إلى مقدّماتها ، ولو وُجد من الإنجليز في وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرّفين . والمحتلون أكثر الناس انخداعاً بزخارف المموّهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية سابقاً ، لما نعكست آية ما بين أبناء البلاد وأولئك المسيطرين .

انعكست تلك الآيةُ إلى حدّ أن يظُنوا أن حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الديني القائم الآن بين المصريين والأوروبيين . وهو ظن باطل إن لم يكن خطأً مقصوداً بالذات لتخفيف شناعة ما فعله رجال الاحتلال في هذه الحادثة لدى الرأى العام الإنجليزى .

والقارئ لما نشرناه اليوم نقلاً عن « جريدة التيمس » يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجاً في البرلمان وهو يُسألُ عن نقط كيفية تنفيذ الحكم على الصورة الفظيعة التي حصل بها ، فلا يجد له جواباً سوى أن يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقةً كان تنفيذ الحكم جهاراً نهاراً على مرأى من أهل المحكوم عليهم نساءً ورجالاً ، سألوه : هل حقيقةً كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يُشنق المحكوم عليه بالإعدام ، ثم يبقى معلقاً على مرأى من بقية المحكوم عليهم به وبالجلد حتى

يجلد اثنان ، سألوه : هل حقيقةً كان الشنقُ والجلد على مرأى من الأهل يبكون ، والنساء يندُبن ويُعْوِلن ، سألوه : هل كان التنفيذ بواسطة الكابتن « متشل » مستشار الداخلية (لأنه لا يزال برتبة كابتن في الجيش الإنجليزى) وقد وصفوه وصفاً مُهيناً جداً كما يرى القراء في محضر جلسة البرلمان المنشور اليوم نقلاً عن « التيمس » .

سألوه أشياء من هذا القبيل ، فكان لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب ، وهو يعلم أنّ كلّ ما سألوه إياه واقع لا ريب فيه . وكان كلّ ما يقدر عليه في هذا الموقف الحرج أن يعد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية في ذلك . ولو أجابهم بالإيجاب في ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة ، وساء حال كبار المحتلين في مصر بمالا يعلم إلا الله نتيجته .

على أن « اللورد كرومر » وجد من هذا المضيق الخطر فرجاً له ولوزير الخارجية في جلسة تالية ، فاتّهم الأمة المصرية كلها بالتعصب الدينى على الأوربيين . وقال : إن عمل الحكومة المصرية في حادثة « دنشواى » كلها كان عملاً استثنائياً إخماداً لثورة خفية في الطبقة النازلة من الأمة . وهدد مصر بمعاملات جائرة ربما اضطُرّت لها الحكومة اضطراراً . وكان هذا ختام فصول الرواية في البرلمان الذى ترجّح عنده الآن أن الأمة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواى وحدهم ، وأن مركز الحكومة المصرية يحفّ بالأخطار الهائلة إن لم يطلق لها السّراح للنهاية في استعمال كل ما تريد استعماله عند الحاجة مخالفاً للدستور ولطرائق الأمم المتمدنة .

ما الذى أوجب « اللورد كرومر » أن يدافع عن نفسه وعن بقية أعوانه في البرلمان بهذا السلاح الخطر المضر بمصر وأهلها .

ما الذى أوجب القائمين بإدارة مصر الآن أن يلجئوا إلى هذا العنف المودى بأهليها اتهاماً .

ما الذى اضطرّ ناظر الخارجية أن يهدد الأمة المصرية في مستقبلها مثل هذا التهديد .

أوجب ذلك كله ضعف في سياسة القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد !

ولكن ، حنانيك أيها اللورد الكريم ؛ وعطفاً أيها العامل المصلح ، الذى ما عهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح ! إنصافاً أيها الرجل الشريف النزيه الذى لايرضيه أن تضحى مصلحة أمة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه – أن يخدعك عجزُ أعوانك ، فتحكم خطأً على أمة كتبت صحف تاريخها فيك بيضاء ، فتعكسها آية انتقام لا محل له منك بما تجرد عليها من الويل والثبور في مصير الأمور » .

ولما انتهى من القراءة قال صاحبي : لقد أحسن الكاتب ، وأصاب الناقد ، فغمز بقلمه مكامن الضعف من تلك السياسة ، وحسبُنا الساعة ما سمعناه . على أنى لا أرى رأيَهُ في النعي على هؤلاء المحتلين فيما يذهبون إليه من مذاهبهم في ضروب الاستعمار وفنون الاستثمار . إنهم دخلوا في أرض أصابوا فيها أنعاماً سائمة فاكتسحوها ؛ وقُطعاناً سارحة فاغتنموها . ولو أنهم أصابوا نفوساً تشعر وأعصاباً تُحس ، لما بلغوا بها المبلغ الذى تراه .

أرأيتك كيف يجمُلُ بهم – وهم أبطال السياسة وفُرسان الدهاء – أن يوقظوا بأيديهم هؤلاء النيام ؟ أو يحرّكوا بقوة العلم هذه الأصنام ؟ فمن الذى يقف بعدوه على سبيل الرشاد ؟ أو يمهّدُ لأسيره طريق الفـــكاك ؟ إنما تملك ذلك شمائل الأنبياء ، وخلال الأصفياء ، لا فرق عندهم بين العباد ، في سبيل الهداية والإرشاد . قرأت في قاموس وضعه أحد الحكماء من شعراء فارس ألبس فيه الحكمة ثوب الهزل ، لترغب فيه العامة ، ولا ترغب عنه الخاصّة والخاصة . فكان مما استوقف نظرتى ، ولفت فكرتى ، قوله في تفسير لفظة النبي : إنه المحب لأعدائه . وإنك لا تجد فيما أعلم بين هذا الناس ، مهما اختلف القياس ، من يحب عدوه ويرجو له الهداية ، اللهم إلا تلك الطائفة التى اصطفاها الله فنزهها عن الأغراض . وطهّرها من الأحقاد . والقوم ليسوا – بحمد الله – من تلك الطبقة ، حتى نحسن الظن بأفعالهم ، ونريدهم على أن يعملوا على صلاح عدوهم ،

فلا تحضنهم بأنياب الملام . ودعنا الساعة من ذكر السياسة ، فإنني أخشى أن ترتفع أذيالُ الظلام قبل أن نقضي اللبانة من رؤية تلك المراقص .

ثم ودعناه وعطفنا على المرقص ، فما هو إلا أن أحلّنا حتى نظرنا فإذا امرأة نَصَف(١) ، قد تبذّلت في لباسها حتى خرج بها التبذل عن أفق الحياء ، تكاد تتزايل من فرط التمايل أعضاؤها ؛ وينعقد من شدة التهييف خصرها . فهي تلتوى التواء الحية الرقطاء ، وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء . فأجال صاحبي نظرةً في أنحاء المرقص ألمّتْ بجميع ما فيه . ثم دعاني إلى النهوض فنهضت . وماكدنا نجاوز الباب حتى أنشأ يحدثني فقال ، وهو يخافت من صوته : إني نظرت فما كاد يرتدّ إليّ طرفي حتى ألممت بجميع مايقع بين تلك الجدران من أسرار هذه المخازى العصرية . قلت : وما عسى أن يكون قد كشف لك منها في هذه اللمحة اليسيرة والنظرة القصيرة ؟ قال : رُبّ نظرةٍ عجلى تنقطع دونها سوابق الأفكار ، وتنكشف أمامها غوامضُ الأسرار .

نظرت في تلك الصفوف فلم ألمح إلا رءوساً مصريةً ، وأزياءً شرقية ، ثم نظرت فإذا الذى يحمل المدام ، ويقف موقف الغلام ، لا يخرج رأسه عن أفق تلك الرءوس . ثم تنقلت بالنظر إلى الناقر على الدّف ، والنافخ في القصب ، وحاضن العود ، وحامل المبذل(٢) ، وصفعان(٣) القوم ، فإذا كلّ أولئك من أولئك . ثم أسرعت باللمح إلى تلك النسوة المتبذلات ، فإذا جميعهن من المصريات ، فأحزنني الحال ، وزادني حزناً أن رأيت أن المحتلب لهذه الجيوب ، والذاهب بتلك الأرباح ، روميٌّ غير مصرى . فهبْ أنّ المصرى قد أعياه أمرُ النزوع عن تلك الشهوات ، أفلا يعرض

---

(١) فى منتصف العمر .

(٢) المبذل : الثوب الخلق .

(٣) صفعان : يطلق على الرجل الذى يصفع على قفاه . ولعله يريد بهذا وذاك من يتخذون سخرية فى الحفلات لإضحاك الجمهور .

له فكر الانتفاع بما يقع وراءها من المنافع واسترداد هذ المال الضائع ؟ عجبت له أيذهب هو بالإثم ، ويذهب بالمنفعة سواه ؟ فماضرّه – قاتله الله – لو ضم تلك إلى ذاك ، فقام بعمل الرومى ، وخرجَ من جَدَث هذا الجمود ، ونفض عنه غبار ذلك الخمول ؟

قلت : لقد أصبت مواقع الرأى . ولكن الذين تطول ذلك أيديهم من أبناء وادى النيل ، ليشمخون بأنوفهم عزّةً عن معالجته ، لأنهم يرون أن العار كلّ العار في النزول بالنفس إلى تلك المنزلة . وسيدى يعلم – نفعنا الله بعلمه – أن هؤلاء المصريين – وإن تقلبت بهم أحوال غير جميلة ، فسُلبوا من الهمة بقدر ما رزقوا من الخمول – لا يزالون يحفظون في ثنايا النفوس بقية من شمَم الآباء ، ويخفون في قرارتها صُبابةً [1] من ذلك الإباء . ولذلك ترى المصرى كائناً من كان ، يؤثر حبس ماله عن استثماره والانتفاع به في أمثال هذه المخازى . فسلوته على ما أرى قد أصبحت فى الحرص على حياة تلك الذكرى في نفسه . فإنك لا تجد في خلق الله من يسرّك مظلوماً من غيره ويُرضيك ظالماً لنفسه ، اللهم إلا هذا المصرى المسكين . على أن سيدى – حفظه الله – قد نظر إلى الأمر نظرة عمرانية فعزّ عليه أن يرى المصرى مأكولاً غير آكل . وقد ألمّ صاحب المنار الأغر بما نحن فيه فكتب في ذلك وأبدع .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لعن الله شارب الخمر ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها » . وقد احتمل أكثر المسلمين في مصر كل هذه اللّعنات إلا اللعنة الأخيرة ، فإنهم حمّلوها للأجانب ، وأعطوهم أجرة حملها الملايين من الجنيهات والألوف من الفدادين ! !

قال صاحبي : ألا ترى أنني كأني نظرت إلى ما كتب بلحظ الغيب . وهذه أمة الفرنسيس – وهى أعرق الأمم مدنيةً ، وأقدمها حضارةً –

---

(١) صبابة : بقية قليلة .

لايزال يرى فيها الرائى من المخازى العصرية أضعاف ما يجده في أمة النيل . ولكن أفراداً منها قد انبروا إلى التقاف ما تطوح به أيدى المستهترين في مهاوى تلك المخازى ، فلا يكادُ يخطئهم دينارٌ أو يُفلتهم درهمٌ ، وقلّ أن يذهب الغريب في بلادهم بغير الصدأ من تلك النقود .

قلت : لقد أجمع المشتغلون بعلوم الاقتصاد على أنه ينبغي أن تترك الأعمال لأربابها. فإذا نظروا إنساناً مضطلعاً بعمل من الأعمال ، أو نابغاً فيه ، تركوا له أمر الاشتغال به لينتفع وينفع . علموا أن الرومى لا يجارَى في حسن القيام بشئون المنتديات والمراقص ، وأنه لا يبارى في الصبر على احتمال ما هو فيه فأفسحوا له في بلادهم مكاناً ، وكانوا له عوناً على انتشار صناعته .

هذه « باريز » على تسابق أهلها وتناحرهم في شئون الحياة لا تزال ترى في هنّا[1] وثَمّ منها . أماكن للأروام بديعة النظام ، لايزاحمهم فيها مزاحم ، اللهم إلا نفر من أهلها ، قد أودعت فيهم طبيعة الاستعداد الرومى فشاركوهم في صناعتهم ، وصابروهم على احتمال ذلها .

قال صاحبي : كان يكون ذلك شبيهاً بالحق في أمم الشرق لو أنهم تركوا مالا يضطلعون به ، وأخذوا فيما فطروا عليه من الاستعداد بالقيام به. ولكنهم تركوا كل شيء وزعموا أنهم عنه عاجزون . ظنوا بهذا الغربى الكمال ، فألبسوه ثوب الإجلال ، وغلـوا أيديهم عن تناول ما يطمح إليه نظره ، وحبسوا أفكارهم عن السَّبح فيما يسبح فيه فكره . قلت : إنى أرى مولاى قد قتل شئوننا بحثاً فليس لى فيها ما أقول .

ومرّتْ بنا فترة ونحن سكوت ، حتى إذا صرنا أمام قصر فسيح من قصور الأغنياء قد خيمَّ عليه الدَّيجورُ[2] وسكن سكون القبور ، نظر إلىّ صاحبي نظرة أدركت مغزاها ، فقلت : إنه قصرٌ لغنيٍّ همه الجمعُ ، وشيمته المنع ، فهو لايخشى المعرّة ، ولايعرف سبيل المبرَّة . وقد بلغ من

---

(١) هَنّـا وثمّ : اسما إشارة للمكان .

(٢) الظلام الحالك .

حرصه على الدانق والحبة أنه إذا أغلس[1] استصبح في داره بالنجوم . لذلك لا ترى في فنائها قنديلاً ، ولا يعرف الطارق إلى بابها سبيلاً .

فلو يستطيعُ لـــتقتيره تنفس من مُنْخُرٍ واحدِ[2]

على أنه قد أفنى ثلاث عمائم ألواناً ، فوقف على أبواب الفناء ، وهمّ سراج حياته بالانطفاء .

قال صاحبي : عجبت لهذه الحكومات تُسرع بالحجر على السفهاء من المبذرين ، وتتثاقلُ عن الحجر على هؤلاء المبخلين ! قيل لعمر بن الخطاب : قد جمع فلانٌ مالاً . فقال : وهل جمع له أياماً ؟ ويلي على هذا الغني تُنفقُ من عمره الأيامُ ، وتهدمُ من بناء هيكله الليالي ، فتسْهُلُ عليه النفقة من عمره ، وتعزُّ عليه النفقة من ماله . ولو أنصفت الحكومات لسارعت بالحجر على أمثال هذا الغني البخيل .

قلت : ليت المشرّعين الذين يتفننون في أساليب ما يضعون يقفون لمحة أمام هؤلاء الأغنياء ليعلموا أن الشرائع التي وضعتها يد البشر لا تزال في حاجةإلى الكمال .

قال الراوي : ثم ساد بيننا السكوت. ونمرّ بدار قد سطت عليها غياهب الليل ، وخيّـم تحت سمائها الذلّ والويل . فيقولّ لي صاحبي : لمن هذه ؟ قلت : هي لرجل كان مكفىّ المئونة في دهره ، مستور المعيشة في عمره . فأبى إلا المتاجرة فيما يخرج عن الطوق ، فأكل الطمع منه رأس المال ، وردّه إلى ما ترى من سوء الحال . !

قال صاحبي : لقد نظرت في سواد هذه الأمة ، فلم أجد إلاأحد رجلين : رجلاً رُكّب في طبيعته حبُّ العمل ، ورُكّز في طباعه التهور في كل ما يأخذ فيه ، وهو لا يملك إلا مائةً من الذهب . يرمي بنفسه في غمار الاتجار

---

(١) أغلس : دخل في الغلس وهو الظلام .

(٢) البيت لابن الرومي ، وقبله :

يقـــتر عيسى عـــلى نفـــه وليس ببـــاق ولا خـــالدِ

بما يخرج عن طوقه ، فيسوقه التهور إلى الاستدانة وتوسيع هالة عمله ، فلا يلبث أن تذهب بماثته المقاضاة[١] . ورجُلاً بُني على الحرص ، وفُطر على الخمول ، وهو يملك الألوف فيدعوه الحرص إلى حبسها ، ويقعد به الخمول عن استثمارها ، فلا هو ينتفع بألوفه ، ولا الناس تنتفع بوجوده .

ثم حانت منه التفاتة إلى السماء ، فإذا الظلمةُ تنجلى عن أطرافها ، انجلاء الخضاب عن القذال[٢] الأشيب . فصاح بى : على رسلك أيها الصاحب ، فلقد أفجَرْنا[٣] . ألا تنظر بربك إلى الأفق وقد نظم الفجر حواشيه ، فوضح للعين ما قال فيه صاحب هذا التشبيه :

وقد رفع الفجر الظلام كأنهُ ظليمٌ[٤] على بيضٍ تكشّف جانبه

فانطلق بنا إلى بيت من بيوت الله ، نقضى فيه الصلاة . فانطلقنا إلى مسجد قريب قضينْا فيه صلاتنا . ولم نبرحه حتى برِحت الشمس خدرها ؛ فقلت له : أعزم سيدى على الرجوع إلى أبيه ؟ أم على الأخذ فيما كنا بالأمس فيه ؟ قال : إنى ليحزُننى أن أعود قبل أن أرى أسواق هذه الحاضرة ، وأقف على شيء من عاداتها . قلت : لله أبوك ! فما عدَوْتَ ما في النفس . ثم أخذنا طريقنا إلى الغورية ، وتباطأنا في السير ريثما يتعالى النهار ، وتبتدئ الحركة في الأسواق . وكنتُ كلما حدثته في شيء يبهرَنى واسع علمه . فما سألته عن أمر إلا أجابنى ، فظننت أنه لا يحسن سواه . فما زلنا كذلك حتى بلغنا المكان الذى نقصده . وكان يومنا هذا طليعةً لموسمٍ من مواسم العام عند المصريين . فماجت بهم الطرقات ، وغصّت حوانيت التجر بالمساومين ؛ فأشرق وجه صاحبى سروراً ، وتألق بشراً ، حين ظفر بضالّته ، وأصاب مشهداً من مشاهد المجتمع البشرىّ ، تحشَدُ فيه طبقات الناس . فيجد الناقد

---

(١) أى التقاضى أمام المحاكم .

(٢) القذال : القفا .

(٣) أفجرنا : دخلنا فى الفجر .

(٤) الظليم : ذكر النعام .

السبيل إلى نقد العادات والأخلاق ، التي يثيرها احتكاكُ ذات الصدور ، ويُبرزها تبادل ذات اليد . فيجتلي منها الباحث في علوم الأخلاق ما يجتلي : حتى إذا انقلب عن موقف إشرافه ، وموطن تأمله ، انقلب مبرود الغليل ، جمَّ فوائد الاطلاع ، عزيز جانب الإقناع . فما لبث صاحبي أن رمى بنفسه في غمار هذا الزحام ، وتعقبته : أكاتفُ[١] مرة ، وأزورُّ[٢] أخرى ، حتى خلصنا إلى مرقب يمكّننا من الإشراف . ثم أخذنا نتأمل في سواد هذا الناس . فإذا التجار منتشرون على أبواب الحوانيت ، وإذا السلع معروضة للمساومة . وقد جعل كلٌّ يبالغ في تنفيق سلعته بضروب التمليق ، وصنوف التزويق . فكان التاجر لا يمر به مارٌّ إلا جذب بطرف ردائه ، وأراده على الابتياع من حانوته مزيِّناً له حسن سِلَعه ، مُلحًّا عليه بالرجاء ، مُقْسماً له بكل مُحْرِجةٍ من الأيمان ، أنه ما دعاه إلى ابتياعه لا يوجد عند غيره ، وأنه إن فاته الظفر به ، فقد فاته الحظّ ، وأخطأه التوفيق .

وكان كيسهم ، إذا ظفر بفَدْم[٣] من أفدام الريف ، حطَّ عليه بأنواع الدهاء ، ثم واثقه على أن يُطرفه بأنفس ما عنده ، حتى يثلُج[٤] الرجل إلى قوله . فإذا علم أنه سكن إليه ، بهره بطائفة من ألفاظ الثناء ، قد خزنها في رأسه ، وادخرها لوقتها . فلا يكاد المسكين يُفيقُ من نشوة الفرح بما سمع من الإطراء ، حتى يعاجله الخبيثُ بتعليق سلعةٍ في عنقه ، مشفوعةٍ بأخرى فوق رأسه ، معزّزةٍ بثالثة تحت إبطه . فلا يبرحً الحانوت حتى تبرحّ الدراهم مخبأها . فيخرجً وقد انتفختْ أوداجه[٥] من كثرة هذا النفاق ، وهبط كيسه من فرط ذلك الإنفاق .

وآخرُ قد تخلّت عنه العناية ، ونام عنه الجَدُّ ، يمر به الصيدُ فلا يحسنُ

---

(١) كاتفه : وضع كتفه بجانب كتفه .

(٢) ازورّ : ابتعد .

(٣) الفدم : الغبى .

(٤) ثلج يثلج من بابى نصر وفرح : اطمأن يطمئن .

(٥) الأوداج : عروق فى العنق .

إلقاء الحب ، لما ابتلي به من حب الصدق ، وكراهة تزويق الكلام . فيقف سراة[1] يومه يستقبل من أولئك الأفدام ، وهم يلؤمون في المساومة ، ويشتطون في الطلب ، ويتعنتون في توسم السلع ، حتى إذا قلبوا أحشاء الحانوت قلباً ، خرجوا كما دخلوا ، لأنهم لم يأنسوا في رب الحانوت ، ما اعتادوا أن يسمعوا من صنوف التمليق .

قال الراوي : ولبثنا في مرقبنا هذا حتى سامتتنا الشمس ، ووجدنا مس الهجير ، فأومأ صاحبي إلي بالمسير . فتسللنا من تلك الجموع حتى انتهينا إلى مكان قد حجبت شمسه ، وأطلق سراح نسيمه . فهاج فينا روحه شجون الحديث ، فأنشأ صاحبي يقول :

حكى أن أحد الملوك ارتأى أن يفتتح مدينتين على حدود ملكه . فكاشف في ذلك أحد وزرائه — وكان حكيماً مدرباً — فضرب الوزير برأيه فيما أفضى به إليه الملك ، ثم قال له : إذا رأى الملك — أيده الله — قبل المخاطرة بالمال والرجال أن نعلم علم القوم ، فنخرج في سر من الناس . فإذا خالطناهم ، وعرفنا أوزان رجالهم ، ومقياس أخلاقهم ، هيأنا لهم على قدر ما نرى منهم . فأخذ الملك برأى الوزير . وانطلق اثناهما في زي العامة ، حتى بلغا إحدى المدينتين في ضحوة من النهار . فعمدا إلى سوقها الكبرى ، وعطفا على حانوت هناك قد نظمت فيه صنوف الأقمشة . فجلسا إلى ربه وطلبا إليه عرض سلعة سمياها له . فقال لهما التاجر : لقد كان في يدي شيء كثير مما تطلبان ، ولكنه نفد منذ اليوم ، وأظنكما لا تصيبان منه في غير ذلك الحانوت . وأشار لهما إلى مكان في زاوية من السوق ، فلم يأخذا بإشارته . وعمدا إلى تاجر آخر ، فكان نصيبهما منه نصيبهما من الأول . فقصدا ثالثاً فكذلك ، فعرجا على رابع فكذلك . وما زالا يتنقلان في الحوانيت ، ولا يظفران من أربابها بغير تلك الإشارة حتى ضاق الملك ذرعاً . فكر راجعاً إلى أول من لقياه وقال له : ما لنا كلما عطفنا على أحد من تجاركم ، وأردناه على ابتياع سلعة من سلعه أبى علينا البيع ، وصرفنا

---

(١) سراة يوم : معظمه .

عنه : بربك ألا ما صدقتنا خبر تلك الإشارة . قال التاجر : أما وقد أقسمت ، فاعلم أن صاحب الحانوت الذى حاولت صرفكما إليه قد مرت به ثلاثة أيام لم يطرقه فيها طارقٌ بخابئة خير ، ولم يُفتْح عليه بشيء من الرزق . وقد أدر الله لأهل السوق أخلاف(١) الأرزاق ، فكرهوا أن يُصبح صاحبهم ويمسى ، وهو على غير حالهم من التيسير ؛ لذلك تراهم يُلطفونه بالطُّرَّاق ، لعله يصيب ما يُصلح به حاله ويقوتُ عيالَه .

قال الملك : بارك الله فيكم وعليكم . ثم أسرع إلى ذلك الرجل ، فابتاع من سلعه وِقْرَ بعير ، حتى كاد يأتى على ما في الحانوت . وتركه وقد أنساه ربحُ يومه ما مرّ من كساد تلك الأيام .

قال الراوى : ولما خلا الملك بوزيره قال له : ماالذى وقفت عليه من أحوال القوم ؟ قال الوزير : إنّ من لبِسَهم على ظواهرهم راقه منهم ذلك الأدب ، وأعجبته تلك المصافاةُ . ومن استبطن أمورهم ، وقف منهم على مروءة لا تكون في غير الرجال ، وقناعةٍ لا تسكنُ في غير النفوس العالية . يكسو ذلك منهم حسنُ الاتحاد ، ويزينه الإيثار ، ولا أحسبنا بالغين منهم ما نريد حتى نركب الصعاب ، ونقاسيَ العذاب ، على أن سكان هذه المدينة لا يربو عددهم على عشرة الآلاف .

ثم انطلقا إلى الثانية . فإذا بها تموج بسكّانها ، فوقفا في سوقها الكبرى ، وقفة كان فيها الغناء عن كل شيء . كُشف لهما من أخلاق القوم ، ما كشِف لنا اليوم من أخلاق أهل هذه الحاضرة . فآنسا منهم الأثرة(٢) مكان الإيثار ، والتدابر مكان التكافل ، فلم يلبثا أن كرّا راجعين . وما هى إلا دورةٌ من دورات الفلك حتى خفقت راية ذلك الفاتح على أسوار تلك المدينة . وامتنعت عليه الصغيرة حتى همّ بالانصراف عنها ، لولا حيلةٌ دبرها الوزير فكان فيها الفتح .

---

(١) أخلاف جمع خلف : ضرع الناقة ونحوها .

(٢) الأثرة والإيثار ضدان : الأول تفضيل النفس على الغير ، والثانى تفضيل الغير على النفس .

ذلك مَثَلُ المدينتين . فانظر إلى أهل هذا البلد ، واعلم أنهم يتناصرون ولكنْ على التخاذل ، ويتعاونون ولكن على تسويد الغريب[١] . فهم لا يملكون لأنفسهم إلا الضرّ ، حتى أو شك أن يصحّ فيهم قول كاتبهم الكبير[٢] — عفا الله عنه — : « هذا بلد لا يخاف المرء فيه إلا من نفسه » .
وطيّب الله ثرى فقيد الإسلام الأستاذ الإمام ، فقد سمعت عنه كلمة من مأثور القول أفرَغتْها الحكمةُ في قالب الاختبار : « هذه الأمة حياتها في موتها » . قالت : وعلى ذكره — رحمه الله — أروى لك عنه ما يكشف عن اعتقاده الراسخ في أفراد هذه الأمة : صحبته مرة في إحدى روْحاته إلى عين شمس . وكانت لى عليه دالّة ترفع عنى مئونة الاحتشام . وكنت أتبسّطُ معه على الحديث . فكان مما ذكر لى في هذه الليلة أنه أُلقِى إليه كتاب كتبه صاحبُه وإبليسُ جاثم بين كتفيه ، ينذره فيه بالقتل ، ويتوعده بالاغتيال . ذكر لى ذلك كمن يذكر نبأ من الأنباء التي يسوقها الحديث ، فلم ألمح على وجهه ما ينمّ عما وقع في نفسه من أثر ذلك الكتاب . ثم خاض في غير ما أخذ فيه ، حتى انتهينا إلى طريق مقفر ، قامت على عِطْفيه طائفة من النخيل . وكان لا بد لنا من ركوب ذلك الطريق للوصول إلى الدار . فسرينا فيه تحت الليل ، والظلمةُ تقبض البصر ، وتدعو في كل خطوة إلى الحذر . فقلت له وهو يخوض في أحشاء الظلام : ألا يخشى مولاى — حرسه الله — أن يقوم صاحب الكتاب بالوفاء ، فيكمُن له في لقمة[٣] من لقم هذا الطريق ، ويبلغ منه ما بلغ أبو لؤلؤة[٤] من الفاروق ، فيُطعن الإسلام طعنةً ثانية ، تذهب بهذه البقية الباقية ؟ ! فنظر إلىّ نظرة لمعتْ في تلك الظلمة لمعاناً ، ساورتنى منه الهيبة ، وقال لى : « أين يُذْهبُ بك يا بنى ؟ فتالله إنى لأهنئُ نفسى إذا وجدتُ في هذه الأمة من يقدر

---

(١) تسويده : جعله سيداً .
(٢) المرحوم إبراهيم المويلحى .
(٣) لقم الطريق : نواحيه .
(٤) أبو لؤلؤة هو الفارسى الذى اغتال عمر بن الخطاب .

أن يقول لى أخطأت في وجهى ، فكيف بى إذا وجدتُ من يقوى على رفع يده لقتلى ؟

ذلك كان اعتقاده في أمة وادى النيل : ولم يكن — رحمه الله — منفرداً بهذا الرأى ، فقد سمعت غير واحد من الحكماء والأدباء يبالغون في وصف ما نحن فيه ، حتى وعيت عن بعضهم كلمة ما درى صاحبُها بأىّ درّة رَمىَ : « لقد نزلت هذه الأمة منزلة من الخمول هبطت بها إلى مصافّ العجماوات ، حتى خشيتُ أن يخطئها البعث في يوم البعث » . فما ظنك يا سيدى بأمة أصبح بعضها يخشى عليها ألاّ تحشر مع الأمم ؟ اللهم إن هذا منتهى أمد الخذلان . موتٌ في الدنيا وموت في الآخرة . ثم قمنا إلى مسجد فقضينا فيه الصلاة ، وعطفنا بعده على مطعم ، فتناولنا ما نمسكُ به الرّمق[1] ، واستأنفنا المسير . وبينا نحن في طريق « عابدين » إذا لفيف من التلاميذ يهرولون وهم من أمرهم على عجَل ، وإذا لفيفٌ آخر على آثارهم . فقال لى صاحبى : مالى أراهم يُسرعون وإلى أين هم ذاهبون ؟ قلت : إنهم يؤمّـون الاحتفال الذى تقيمه نظارة المعارف للألعاب فتتسابق فيه التلاميذ تسابق الجياد ، ويتبارون في الألعاب الرياضية كما يقولون ! وهو احتفال يشهدُه عميد الدولة الإنكليزية ، ويتأنق في تزيينه بطل رجال الإنجليز مستشار المعارف المصرية . ذلك الذى أبْلى البلاء الحسن في قتل النفوس واستحياء الجسوم ، وجعل الجوائز السنيّة لكل سابق في هذا المضمار . لذلك ترى نُظار المدارس لا همّ لهم في غير تعهد الأشباح . والويلُ لمن يعثر به الجدّ في يوم ذلك المهْرجان . فلا تفوز تلاميذه بجوائز الامتحان . ولقد بلغ من ولوع المستشار برؤْية هذا المشهد أنه يستقدم التلاميذ من أطراف البلاد ، فيجمع تلميذ رأس التين بتلميذ عابدين ، والطالب في أسوان بمثله في حلوان ، وحكومة البلاد تقوم بالنفقات ، على هذه الملاعب وتلك التنقلات ! قال صاحبي ، وهو ملق بسمعه إلىّ ومقبل

---

(١) الرمق : بقية الروح

بوجهه عليّ : لقد أحسن القوم صنعاً فيما يحتفون به من ذلك . ولا أحسبهم إلّا مبالغين في الاحتفاء بتعهّد الأرواح ، بعد تعهّد الأشباح ، فيحسنون جوائز الناجح في العلوم ، حتى يصحّ ما يتمثّلون به من قولهم : « العقل السليم في الجسم السليم » . قلت : لو كان ذلك كذلك لوجدنا سبيلاً إلى مزاحمة الأحياء ، وبسط كل رجاء ، في اضطراب جسده وإسعاف ذات غيبه ! . ولكنهم قضوا على أحد هذين السليمين ، فاهتموا ببناء أسوار الأبدان . اهتمامهم بإقامة الخزّان ، وارتفاع الأطيان ، ومحوا آثار تلك الاحتفالات ، التي كانت تقام بمدارس الحكومة على نفقة الحكومة ، يشهدها عزيز مصر في حمَلَة عرشه ، ورجال دولته ، وسروات[1] أمته ، ويُلطفون فيها الفائز ، بكل سنيّة من الجوائز . فكان الطالب في ذلك العهد يرصدُ هذا اليومَ المشهود ، ويرتقب حلوله ، وهو منكمش في الدرس ، مقبل على التحصيل ، مكبٌّ على التشمير في أحد فروع العلم الذي يميل بطبعه إلى النبوغ فيه . حتى إذا حلّ يوم فخاره بين أترابه ، استقبله على عِدَةٍ ، فيدخل فيه دخول المقدام الجسور ، ويخرج منه خروج الفاتح المنصور .

قال صاحبي : إذا صح أنهم يحتفون بالأشباح دون الأرواح ، فقد أحسنوا القيام بالواجب . فإنما هم أعداءٌ لكم ، وما رأيت قبلكم من طلب من عدوه صلاح حاله . فلا حياة لهذه الأمة إذا هي لم تستمدّ حياتها من سوادها ، فيقوم من أغنيائها من يُنعم النظر في صلاح شئونها . بربك هل رأيت غنيًّا من هؤلاء الأغنياء أصبح وقد خصّص شطراً من دخله لنصرة العلم ؟ فما لكم تُنحون باللائمة على رجال الاحتلال ، وأنتم أصل ما أنتم فيه من البلاء ؟ أو ليس حسبكم منهم أنهم لا يضربون على يدَيْ عامل ؟ فما عساهم أن يصنعوا بكم إذا قام لفيفٌ من أغنيائكم ، وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية ؟ أو ما عساهم أن يصنعوا بكم إذا خصّص هؤلاء الأغنياء جوائز للفائزين في العلوم ، وأرصدوا جِعالات لكل بارع في صنوف

---

(١) سروات : أشراف .

التأليف ، أو معرّب لتلك التصانيف التي ضاقت بها رحاب المغرب ، وأقفرت منها مكاتب المشرق ؟ « أتأمرون الناس بالبر وتنسَوْن أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون » قلت : لقد صدق الذى قال : « إنما تصلح هذه الحكومة على ظلمها ، لتلك الأمة على نومها » .

ثم أردت الترويح عن نفسى بالخوض في غير تلك الأحاديث ، فقلت له : ما الذى يراه سيدى بشأن تلك « الشركة السودانية » التي خفق لها العلمان ، على أطلال أم درمان ؟ فالتفت إليّ مبتسماً وقال :

وقف شريكان : شرقي وغربي ، أمام المرآة وفي يد الغربي قطعة من الذهب ، فقال له شريكه الشرقي — وقد تلطف — : ألا تعطيني قسمي من تلك التي بيدك ؟ فقال الغربي : أما وقد أردت القسمة ، فاعلم أن التي بيدى هي لى ، وتلك التي تراها في المرآة هي قسمك ونصيبك . ذلك مثلكم مع القوم في « شركة السودان » . قال الراوى : فندمت على هذا السؤال الذى أضفتُ به همّاً إلى همومى . ثم عزمت في نفسى على الخروج من دائرة الكلام على السياسة ، والدخول في باب المحاضرات الأدبية . فقلتُ له : ألا أحدّث سيدى بأحسن ما ورد على سمعى من الحديث ، قال : ألطفْنا بما عندك ؛

قلت : سكر أحدُ ملوك الفرس ذات ليلة ، وأحسبُه قمبيزاً . فسأل جلساءه — وقد علت الحمرة ذؤابته — : أيُّنا خيّر أنا أم أبى ؟ فكلهم تزلف إليه بتفضيله على والده ، إلا جليساً بينهم يقال له قارون . وكان أكرمهم عليه ، وأكثر توفيقاً لديه : فإنه قال له : بل أبوك خيرٌ منك ، فغضب الملك حتى خافه الجليس على نفسه فعطف قائلاً : فضّلتُ أباك لأنك كنت عنده وليس عندك اليوم من هو مثلك .

وقد وقع لى ما وقع لهذا الجليس ، وركبت ذلك المركب الذى يرمى بصاحبه إلى مواطن الشرور. قال صاحبي : وكيف كان ذلك ؟ قلت : جلست مرة على مائدة أحد الكبراء من رجال الإنجليز في الجيش ، وأنا إذ ذاك ضابط صغير . وكانت ليلة وداع لعظيم من عظماء القواد في الجيش المصرى انطوت

مدةُ خدمته فيه . وقد شهد المائدة معي لفيف من ضباط الإنجليز والمصريين : وقد أجلسوا بجانب كلّ مصريٍّ منا إنجليزياً منهم يحدثه ويباسطه . وكانوا لا يتنازلون إلى الحديث معنا في غير تلك الاحتفالات التي تُطرحُ فيها أبهةُ الرياسة . فأخذت في الحديث مع جبار من جبابرتهم أجلسته المصادفة على يميني . وساقنا الكلام إلى ذكر الأتراك وما كان منهم . فقال لى وهو يتكلف البشاشة : أنحن خير أم هم ؟ فأجبته بتفضيل الأتراك.وتاللهإني ما كدت أنطق بالكاف حتى رأيته وقد تمعّر(١) وجهه ، واغتاظ حتى كاد ينشق إهابه غيظاً . فأحسست بالشر . ولكنى عمدت إلى الحيلة ، فعطفت قائلاً : فضلت الأتراك إذ لولاهم لما رأيناكم . فهم أصل ما نحن فيه اليوم من سعة العيش ، وبشاشة الحال . فأشرقَتْ أسارير وجهه ، وسُرِّيَ عنه ما كان قد نزل به من الغضب :

قال صاحبي : أولى لك ؛ فلقد نجوت من شر هذا الجليس بفضل ذلك الجليس . وما كدنا نأتي على هذا الحديث حتى دانيْنا فتى يتوكأ على عصا ، وهو لايكاد يحمل بعضه بعضاً من فرط الهزال . وما تنطق به معارفُ وجهه من آيات سوء الحال ، يرد عن نفسه حملات الألم ، وصدمات السأم ، بأناشيد أودعها من الأنين ما يُعلّم به الصخور كيف تلين . فاستوقف هيكله أبصارنا واسترعى صوته أسماعنا ، فاذا به يغنى هذه الأبيات (٢) :

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهُذِّبتْ ... حواشيه حتى بات ظُلماً منظّماً
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى ... وأن أصبح المصريُّ حرًّا منعّماً
أعِدْ عهد إسماعيل جَلْداً وسخرة ... فإنى رأيت المنّ أنكى وآلما
عملتمْ على عزّ الجماد وذلّنـــا ... فأغليتمُ طينا وأرخصتمُ دما

ولما أتى على نشيده دانيْناه ، وبالتحية بادأناه . ثم ابتدره صاحبي بالسؤال لمن الشعر أيها الأديب ؟ قال : لأحد شعراء الوقت . قال : وهل

(١) تمعر : أحمر .
(٢) الأبيات لحافظ نفسه .

ترى رأيه فيه ؟ قال : ومن ذا الذى يخالفه فيما يرتئيه ؟ وقد نطق حقاً ، ونظم صدقاً . قال : وأين أنت من القوم ؟ قال : من أولئك الذى نقموا الرضا على العهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحُكْمين : عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة الإنجليزية ؛ فنى أولهما فاضت المظالم ، وغاضت الأموال : وفي ثانيهما أخصبتْ الأرض وأجدبت الرجال . قال : وهل أنت في خفض من العيش ؟ أجاب : لا أشكو بحمد الله عسراً ، ولا أرجو يسراً . إنما أنا أتفيأ ظل هذا البيت العربى ، لذلك الشاعر الأبى :

مذبذبُ الرزق لا فقرٌ ولا جدةٌ حظٌّ لعمرك لم يحمُقْ ولم يَكيسِ (١)

قال : وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلةُ الحلم ؟ قال حسبي أنى من تلاميذ حكيم الإسلام ، الأستاذ الإمام طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه . قال : إنى لأرى رأياً حصيفاً ، وأسمع قولاً شريفاً ، فمن أى تلاميذه تكون ؛ فقد سمعنا أنهم فريقان : فريقٌ قد اختصه بسياسته . وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ، قال : لا علم لى بما تقول . فلقد كنت ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره . فما سمعته يخوض في ذكر السياسة — قبحها الله — ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته . وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ، ومنازل الأحلام . ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق ؛ وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى ؛ فأفاض في شئون الاجتماع وحاج (٢) العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ؛ ولم يزل ذاك همّه — رحمه الله — يُلقى في الأزهر دروس التفسير ، وفي داره دروس الحكمة ، حتى مضى لسبيله ، فإن كانوا يسعون تلاميذه أحزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدّم والعمران . على أنه كان من أشدّ الناس تبرماً بالسياسة وأهلها ،

(١) من الكيس : مضارع « كاس » المجزوم .
(٢) مفرده حاجة : اسم جنس جمعى .

حتى أعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها في كتاب الإسلام والنصرانية ما قال .

لكنه كان يحتك بها ما دعت إلى ذلك الحاجة ، ويرصُدُ حركاتها رصداً ، ويصدُّ غاراتها صدًّا ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثرةً في طريق الفضيلة . ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه ، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه . فكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ؛ حتى إذا ظفر بطلبته ، وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء تحت حماية الإفتاء . عطف على العلم بذلك الإمداد ، ورد عليه ما سلبت يدُ الاستبداد . ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عاديته ، ويُفسد عليه سياسته ، في مصادرة العلم ، ومصارعة الحلم . أما ترى بربك أثر ذلك في المدارس ، وما عبثت به يد ذلك السائس ؟

ولولا أن الإمام مادّهم حبلَ الوداد ، وجاذبهم فضلَ النصح والإرشاد ، لأصابه ما أصاب حكيمَ الأفغان ، وقُضِيَ على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ، ويروح عنها ليدفعَ عنا شِرّةَ القوم ، ويصلحَ ما تُفسدُه أهلُ الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ، ودفع كارثاً . ولو كان حيًّا يوم دارَ الفلَكُ لنا بالنحوس في دِنْشوايَ — لرأيتَ غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوتُ العميد ، بذلك التهديد والوعيد . ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير ، الذى جاء أبلغَ ما تُملي الضغينة على الموتور . فكان فيه كثيرَ جُموحِ البراع ، ضعيفَ جانب الإقناع ، كأنه يكتب مقالة خياليّةً إلى مجلة سياسية ، وَقَفَ فيها وقفةَ المدافع عن نفسه ! !

لحق النبيّ عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، فارتدت طائفة من جُفاة العرب ، وكادوا يفتنون الناس لولا حكمةُ الصديق ، وعزمةُ الفاروق ، فما غضّ أمرُ الردة من شرف النبوة ، ولانال من عصمة الرسالة ، ولبث الإسلامُ إسلاماً . ومات الأستاذ الإمام — رحمه الله — فصبأ بعض

حزبه كما يدّعون ، وأستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غضّ ذلك من كرامة حكيم الإسلام ، ولا مسّ من سيرة ذلك الإمام .

أراد بعضُ مريديه أن يُغني غَناءه ، وأن يفعل شَرْواه [١] ، في التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنا . فرمى بنفسه في أحضانهم ، وليست له مكانةُ الإمام من نفوسهم ، ولا منزلتُه من قلوبهم ، فقصّر ولا بدع ، وأخفق ولا عجب ! فإن الفراغ الذى تركه الإمام لايَشغلُه الألوفُ من أولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح ، وينعَوْن عليه مذهبَه في الإصلاح . ولما ظهر ذلك المريدُ بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناسُ منه ذلك ، فطارت حوله الشبهاتُ ، وانبسطت فيه الألسُنُ ، وأخذته سهام الأقلام . على أنه وإن أخطأه التوفيق في عمله فما أخطأه حسن القصد ، ولا جازته سلامة الطوية . فوَجد بعضُ المرائين السبيلَ إلى تشويه سمعة الإمام بعد موته ، وبالغوا في ذم حزبه ، وزادهم ضِغناً أن قرءوا في تقرير العميد ما قرءوا . وظنوا أن هناك حزباً يعمل . ولو أراد الله خيراً لهذه الأمة ، لسخّر لها من تلاميذ الإمام ، من يقوم بالدعوة إلى التئام ذلك الحزب ، الذى أودع فيه الإمام من أسرار حكمته ، ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذى أصبحنا نُساقُ إليه سوقاً أعجلَنَا عن النظر في أمورنا ، فأمسينا أتباعاً لكل ناعق !!

قال صاحبي — وقد هاله ما سمعه — : أكان يكون بين ظهرانيكم أمثالُ أولئك الأمناء على تعاليم ذلك الحكيم ، ولا تتعلقون بأذيالهم ؟ على أنى لا أرى فيكم إلا ناعياً عليهم ، مشهّراً بهم ، فإن كنت لم تكذبنى القولَ فتلاميذ الإمام حقيقون باللوم ؛ لأنهم يعلمون الحق ولا يدعُون إليه . علموا أن لاحياة لهذه الأمة بغير « الجامعة » فما لهم لايواصلون قرع أنوف الأغنياء بالمواعظ ، ويوالون الصياح بطلب تأسيسها ، فتلتقى أصواتهم بالنداء في أنحاء القطر ؟ ولكنهم سكتوا !! اللهم إلا شاعراً منهم قدقرض قصيدة ،

---

(١) شرواه : مثله .

قاضياً قد حبّر مقالة في سبيل « الجامعة » ، درّج كلاهما في أثناء النسيان. فجمد الأغنياء عن البذل لجمود أولئك الوعّاظ عن الكلام . وتدفّقوا في إنشاء الكتاتيب حين ساقتهم الحكومة إلى ذلك . ولو علموا أن انتشارَ التعليم الناقص شرٌّ على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا في سبيله ما بذلوا، فكان مثلهم في ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ؛ ليقع تحت براثن الليث ؛ لأنهم إنما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل ولكن بداء الغرور[1] ! !

فسبيل الإصلاح أن يُنشأ الكتّاب وتبنى « الجامعة » في وقت معاً ، حتى إذا أخرج الأول نصفَ إنسان ، أطلعت الثانيةُ إنساناً كاملاً . فتكمّل هذا الكاملُ بصلاح ذلك الناقص . فتتماسَكُ الأمة ويكثر فيها الدعاةُ إلى الخير. فليس بينهما وبين الحياة إلا أن يُخرجَ لها العلم الصحيح رجالاً يقودون الأفكارَ ، ويسلكون بها سبيلَ الرقيّ . ومَنْ رأى أن هذه الأمةَ لاتنهض إلا بتعليم مجموعها وتهذيب أفرادها فقد أخطأ مواقعَ الرأى ؛ فكم نهضَتْ أمة بفرد ، وأُسّست دعائمُ دولة على عزائمِ آحاد وُفّوا قسطهم من العلم الصحيح ، وأخذوا نصيبهم من الإقدام ! !

وقد انصرف الناس إلى الصياح بطلب انتشار العلم ، ونَسُوا أن ذلك لا يغني عنهم شيئاً إذاأعوزَتهمْ تربيةُ القادة ، وعزّهم بناء الزعماء . فاعلم أن بناءة الرجال لاتكون إلا في « بناء الجامعة » .

قال الأديب ، وهل يكفي العلمُ وحدَه لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخُلق والدين ؟ فُسوقٌ عن أمر الكتاب ، وطاعةٌ للهوى ، فلا وازعَ من الدين ، ولا زاجرَ من الخُلُق ؟ ! فإذا تزعزعت العقيدة ، ولم يطمئن الطبع قلّ أن ينجحَ في الناس علاجُ العلماء ، أو تأخذَهم صيحةُ الخطباء ! !

قال صاحبي : صدقتَ . ولكن ما تراه أنت خطباً كبيراً، لم يكن في نظر الحكمة إلا أمراً يسيراً ، وإني ذاكرٌ لك دواء هذا الداء . وهو أيسر مما في نفسك . فلا تُنزلْ أمرى معك على المزاح . ولا يصغُرنّ في عينيك مأني ما أُلقي عليك . فرب مؤرب[2] من العُقَد ضلّت حلّه الحكماء ، واهتدت

(١) لعله يريد أن يقول : لأنهم بانتشار الكتاتيب إنما يستبدلون بداء الجهل داء الغرور .

(٢) الأربة : العقدة ، والمؤرَّب : المعقد .

إليه خطرة من الفكر يرمي بها أحدُ العامة ، وتغفلُ عنها عقول الخاصة .
ولعلك إذا سمعت أن الدواء الناجعَ ، والعلاج النافعَ لا يحتاج إلى مقدمات طويلة ، أو فلسفة جليلة ، أصغرتَ ماكنتَ تُكبرُ ، واستنزرتَ ما كنت تستغزر . فاعلم أنه إذا أُقفلت أبوابُ المنتديات ، وأُطفئت أنوارُ الحانات قبل منصف من الليل ، انحرف عنكم جارف هذا السيل .

هذه « لندرة » لا تكاد ترى في حوانيتها ساهراً ، ولا تجد في طُرُقاتها عابراً إذا انقضى الثلث الأول من دولة الظلام . وتلك « فينا » يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى ، ويحول الظلام بين الأرجل والسُّرى . فإذا شبّ الليل أوكاد سكنت حركة العباد ، فما لكم لاتأخذون أنفسكم بتقليد تلك الخلائق ، وقد ائتمروا بأوامر الخالق ؛ وما لكم لا ترجعون إلى الفطرة البشرية أوتخضعُون نواميسِ السنة الكونية ، فتجمعوا في ذلك بين الدنيا والدين ، ولاتعقُّوا أوامر الكتاب المبين . يا ويلكم ! أحييتم ليالىَ العمر بالآثام ، وأمتمْ أيامه بالمنام ، فعكستم الفطرة . ولابدع إذا عُكست آمالُكم وخابت أعمالُكم . خذوا مضاجعكم إذا طرّ شارب الظلام ، واهجروها إذا تنفس الصباح ، ففي ذلك صحة لأبدانكم وسلامة لأديانكم.

إذا شئت أن تعرف ما وراء ذلك من المنافع فإني أعُدُّ لك منها ولا ولا أعدِّدُها(١) : منها الرجوع إلى المعيشة المنزلية ، التى انحلّت بزوالها روابطُ الأهل والأقارب ، ويبس ما بين البيوتات . فتناكرَ الأخوانِ ، وتدابرَ الجارانِ وأقفرت المنازل من أُنس السّمَر ، وألفَ الناسُ الجلوسَ في المنتديات ، حتى إنهم ليُوحشون في ديارهم ، لقلة زُوّارهم ، وأصبح المرء في داره حاضراً كالغائب ، مُقيماً كالنازح ، يَعلم من حال البعيد عنه ، ما لايَعلم من حال القريب منه ! !

ومنها اجتياز العقبات التى أقامتها المنتدياتُ والحاناتُ في سبيل

---

(١) نظر فى هذه الفقرة إلى بيت المتنبى :
له أيادٍ إلىّ سابقة أعد منها ولا أعددها

الاجتماعات : كان المصريون في العهد الذى نُسميّه اليوم بعهد الظلام يجتمعون في الدور ، ويتزاورون في القصور . وكانت سَراتُهم[1] وذوو اليسار منهم يجلسون في بيوتهم للسّمر ، فيغشاها العالم ، ويؤمها الكاتب ، ويقصدها التاجر ، وينتجعها الأديب ، فتجرى بينهم الأحاديثُ ، وتقوم سوق المناقشات . يحدث الحادثُ فيخوضون في ذكره ، وتنزل النازلةُ فيجمعهم الألم على العمل على إزالتها . وتُطل رءوسُ المشروعات ؛ فلا يفتئون يتبيّنُون معارفَها ، حتى يقتلوا شئونَها بحثاً ، ويقفوا على وقائعها جدالاً . وينزلُ بأحدهم المكروهُ ، فلايزالون يتلطّفون بالسعى له ، حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته . عقدت بينهم الزياراتُ عُرَا المودّات ، فتراهم وهم كأنهم أهل بيت واحد ، يألم الجار للجار ، ويأخذُ الناهضُ بيد ذى العثار . بربك هل نهضت أمةٌ بغير إدمان المجتَمعات ؟ وهل أخصبَتْ مودّةٌ إذا هى لم يتعهدها أهلها بالزيارات ؟ لقد جار في حُكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق ، وجعل تلك الكلمةَ التى رمى بها حكيمُ الأفغان[2] أساساً لحكمه ، فصرفه التقليد عن النظر إليها بعين عقله . فمن أين للمصريين أن يتفقوا إذا هم لم يجتمعوا ؟

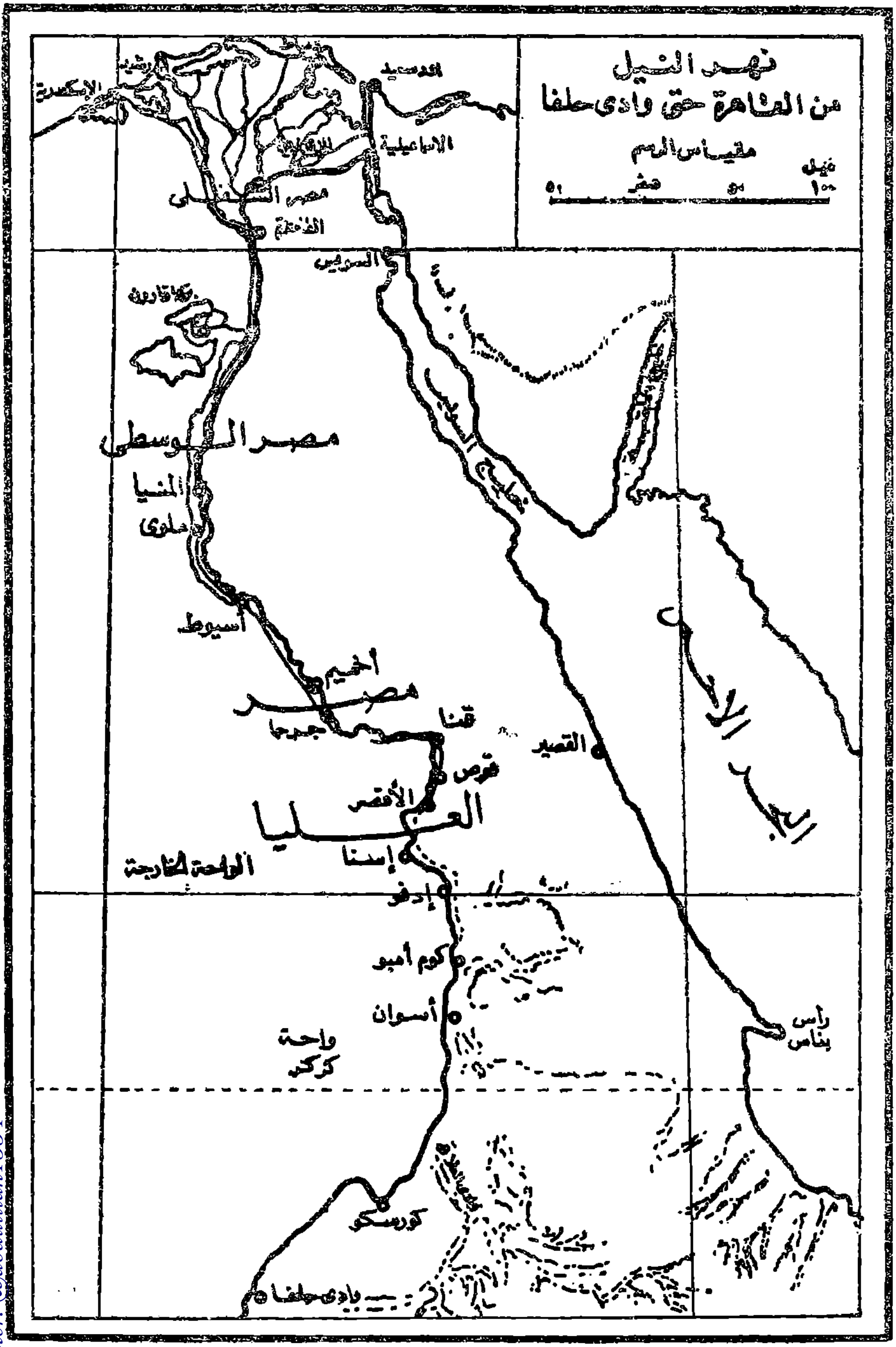
ومنها اقتصادُ المال . وأنت ترى أن هذه السّتةَ الأفدنة[3] تكاد تبلعُ ما تُخرجهُ أرض وادى النيل من الخيرات . ولا يغرنّك ما ترى في عاصمة الفرنسيس ، فإن أهلها من الأكياس الذين يَصِلون سهرَ الليل بالنهار لاصطياد الذهب ، ولكنْ من جيب الغريب . ونحن إنما نفعل ذلك ليذهبَ الغريبُ بأموالنا . ويسْخرَ من جهّالنا .

---

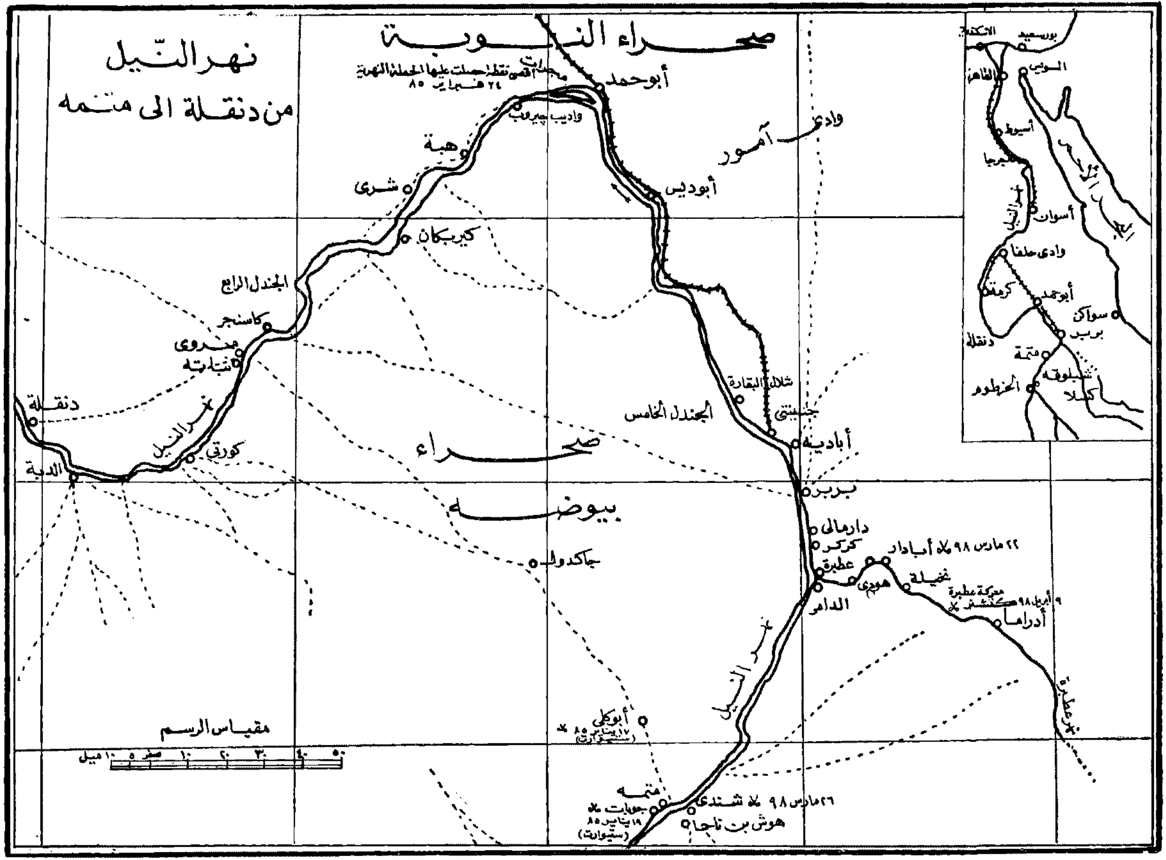
(١) سراتهم : أشرافهم .

(٢) لعلها الكلمة المأثورة : « اتفقوا على ألا يتفقوا » .

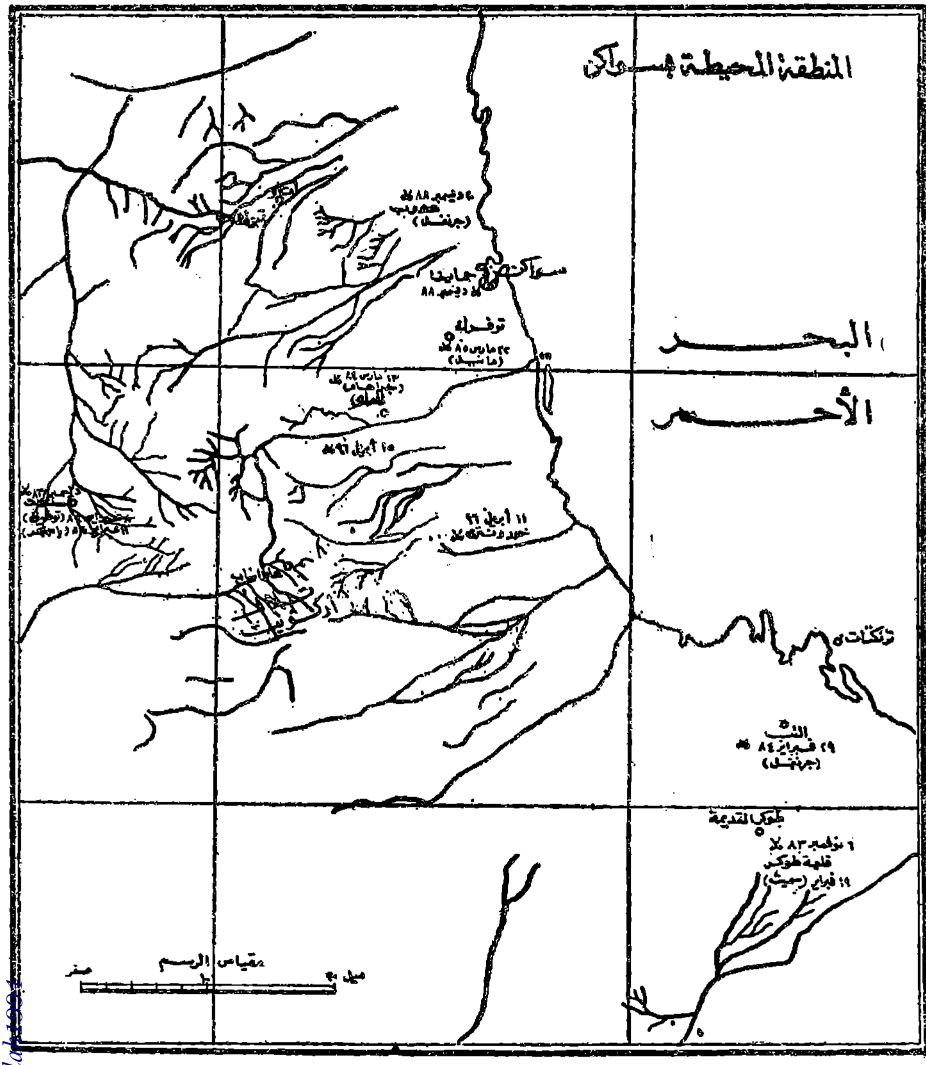
(٣) يقصد بستة الأفدنة حديقة الأزبكية مثابة الملاهى والمراقص .



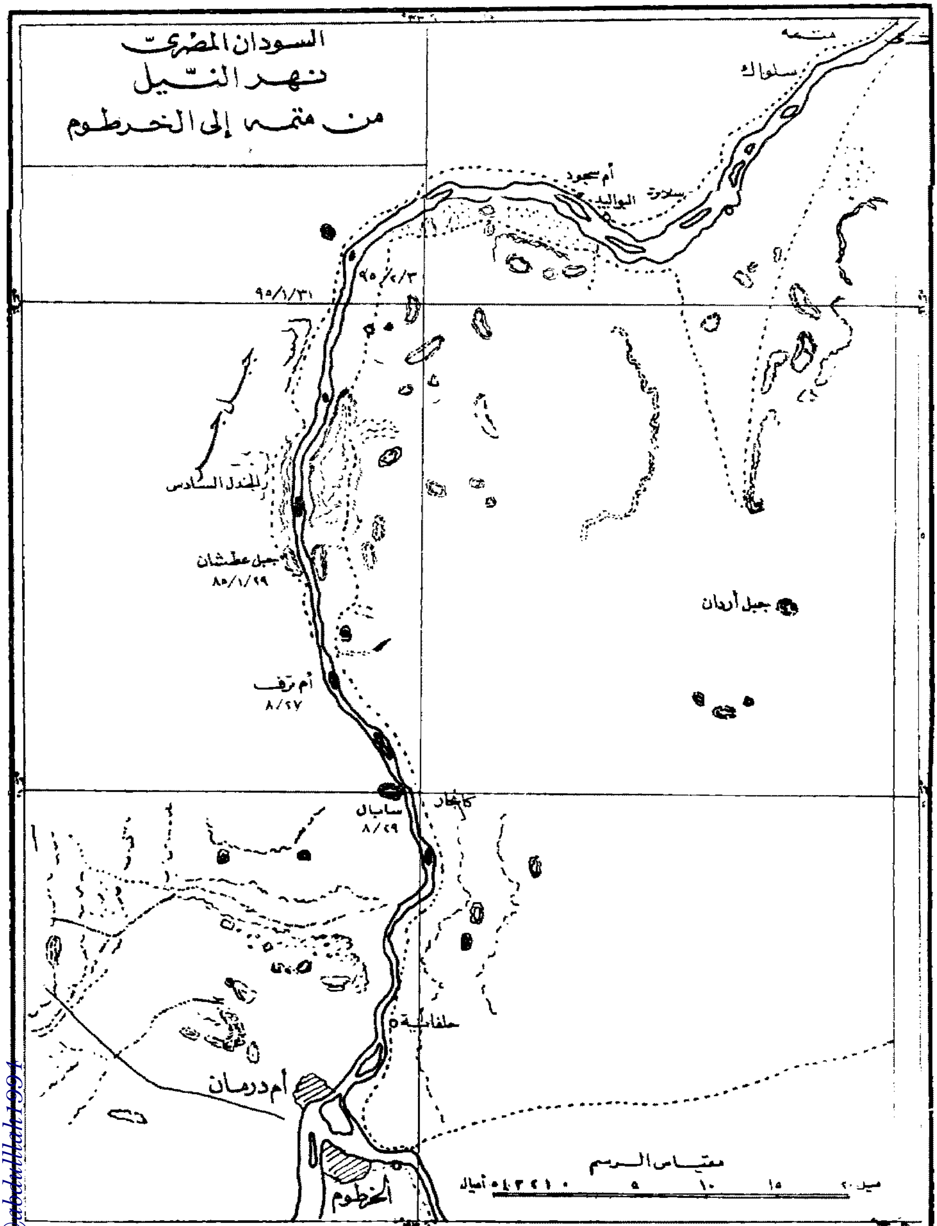
(الخريطة رقم ١)



(الخريطة رقم ٣)



(الخريطة رقم ٤)



(الخريطة رقم ٥)

ليالى سطيح

المكتبة العربية

تصدرها

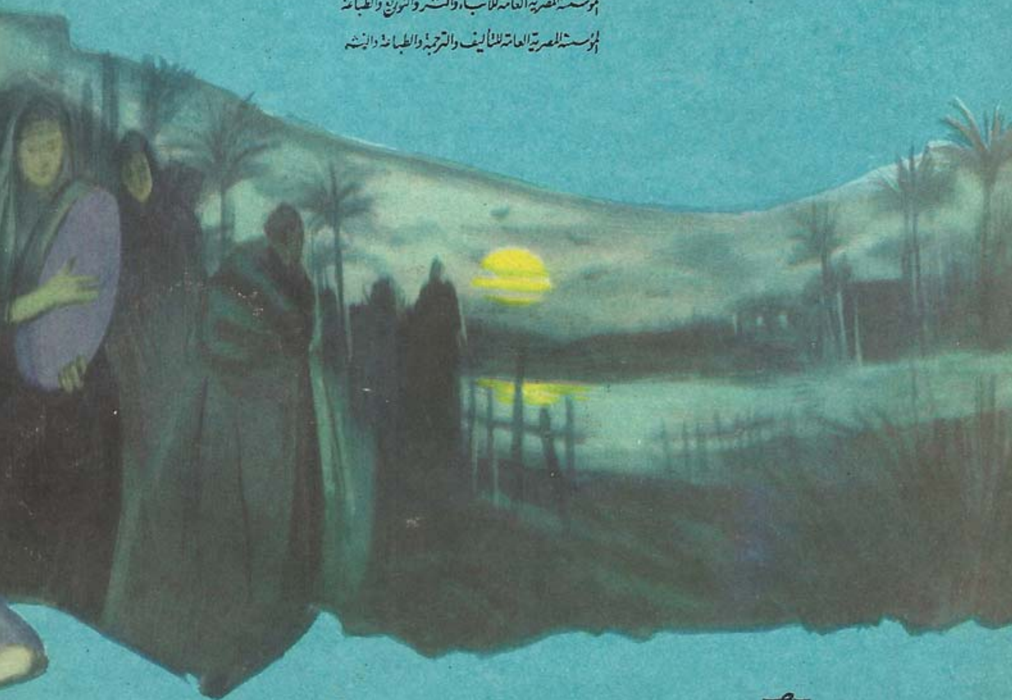
وزارة الثقافة والإرشاد القومي

بفروعها الثلاثة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر



الثمن ١٨ ص